«استكشافٌ عميق ومؤثر لحياة امرأة في أمة تتعارض مع مُثلها العليا».

سحر مصطفى

جمالُ وجهكِ

ترجمة: د. محمد نجيب

مكتبة

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة

جمال وجهك

جمال وجهكِ

سحر مصطفى

ترجمة: د. محمد نجيب

منشورات سدرة

بريد إلكتروني:

Sidra.publisher@gmail.com

إنستجرام:

@sidrapublishing

تويتر:

@sidrapublishing

ردمك: 978-9921-768-89-3

مكتبة

t.me/soramnqraa

جمال وجهكِ

سحر مصطفى

ترجمة:

د. محمد نجيب

مكتبة
t.me/soramnqraa

سرة

إهداء

إلى الذين أصابتهم نيران الكراهية، قصصكم لا تزال تُبقِيكم بيننا.

هي صغيرة جدًا. هلا تركتها لتزدهر أكثر قليلًا؟

صديقة يسر محمد أبو صالحة[1]

الأحداث ليست هامة كثيرًا، فقط قصص الأحداث تؤثر فينا.

- ربيع علم الدين، «الحكواتي»

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) وقعت حادثة إطلاق نار تشابل هيل في 10 فبراير 2015 وراح ضحيتها ثلاثة طلاب مسلمين بعد اقتحام منزلهم، وهم: ضياء شادي بركات (23 عامًا) وزوجته يسر محمد أبو صالحة (21 عامًا) وشقيقتها رزان محمد أبو صالحة (19 عامًا). (المترجم).

الجزء الأول

مدرسة نور الدين للبنات

مكالمة غاضبة أخرى، ولا يزال يوم الثلاثاء من الأسبوع.

«هذا حرام جدًّا يا سيدة رحمن! كل هذا الشرب والفجور!»

تستنشق عفاف رحمن بعمق. اشتهرت بالصبر بصفتها ناظرة مدرسة «نور الدين» للبنات. لم تكن هذه الشكوى الأولى المقدَّمة ضد كتاب. تشرح بهدوء للوالدة على الطرف الآخر: «غاتسبي العظيم نص وافقت عليه الولاية، يا سيدة إبراهيم».

يأتيها رد سريع: «ولاية إلينوي لا تربي ابنتي حتى تكون مسلمة حقَّة، يا سيدة رحمن». بإمكانها سماع نبرة السخرية عبر الخط.

قلما اتصل الآباء بعفاف -امرأة مهنية حاصلة على درجتي ماجستير- ولم يكلفوا أنفسهم عناء التحدث مع امرأة. لقَّن الرجال زوجاتهم ما سيقولنه عندما يتصلن بها. استطاعت أن تدرك من خلال الإصرار الضعيف في أصواتهن أن بعض الزوجات لم يتخذن مواقف أزواجهن الرافضة التعليم الليبرالي لبناتهن.

هذه الأم، مع ذلك، تتوق إلى الشجار.

تظهر صباح مساعدة عفاف أمام باب مكتبها وهي تحمل ملفًّا. تلوح عفاف لها حتى تدخل. تقول عبر الهاتف: «يا أم إبراهيم، تربية ابنتكِ حتى تكون مسلمة حقَّة هي وظيفتكِ في المنزل، ومهمتي في هذه المدرسة». أدارت عينيها إلى صباح وأردفت «لكنني أيضًا مسؤولة عن تزويد كل شابة مسجَّلة في

هذه المدرسة بتعليم تنافسي. أنا متأكدة من أنه لا يوجد كتاب يمكن أن يوجهها -أو أي من طالباتي- بعيدًا عن طريق البِر، يا أم إبراهيم».

طالباتي -أربعمئة فتاة شابة ومشرقة ومصممة اعتبرتهن عفاف بناتها. حبها وتفانيها لهن قويًا.

أشارت صباح إلى موضع توقيع في وثيقة، وسلمت عفاف قلمًا. ارتدت مساعدتها وشاحًا ثقيلًا محبوكًا بسُمكٍ حول رقبتها، وسترة طويلة فوق عباءتها. في منتصف فبراير بولاية إلينوي، يمكنك المراهنة على هبوب عاصفة باردة تبلغ عشر درجات مئوية في أحد الأيام، ثم تستيقظ في صباح اليوم التالي على ارتفاع ثلاثين درجة فوق المعدل الطبيعي.

سألت عفاف الأم على الهاتف وهي توقع الاستمارة بسرعة: «هل قرأتِ غاتسبي العظيم، يا أم إبراهيم؟»

ابتسمت صباح، وهزت رأسها. أعادت المستند داخل ملف. تراجعت إلى مكتبها الواقع خارج باب مكتب عفاف مباشرة.

«حسنًا، لا. شاهدنا أنا وأبو إبراهيم الفيلم على نتفلكس. ليوناردو دي كابريو يُمثّل فيه».

دلّكت عفاف صدغها الأيسر. «أرى ذلك. ربما عليكِ أنت وزوجك قراءة الرواية. يمكنني ترتيب إرسال نسخ إلى المنزل مع ابنتك إيمان. إن شاء الله يمكننا الجلوس معًا بمجرد قراءتكِ لها، ومناقشة مخاوفك».

بضع ثوان من الصمت. حكّت الجزء العلوي من حجابها بهوائي الراديو ثنائي الاتجاه، منتظرة.

خلال السنوات العشر التي قضتها في مدرسة نور الدين، دخلت عفاف في مجادلات مع أولياء الأمور الذين لم يتراجعوا قط -حتى أن قليلًا منهم سحب ملفات تسجيل بناتهم في المدرسة. في النهاية رضخ الغالبية ووثقوا بها. ومع ذلك، انتقت معاركها؛ يمكن استكشاف موضوع وسائل منع الحمل في حصة العناية بالصحة دون التشجيع على ممارسة الجنس قبل الزواج. ولا يُعقد أي نقاش حول الإجهاض على الإطلاق.

«لا. لن يكون ذلك ضروريًا، يا سيدة عفاف. منحكِ الله القوة والحكمة لهداية بناتنا في هذا العالم المخيف».

أنهت الوالدة المكالمة، وغادرت عفاف مكتبها وهي تمسك جهاز الراديو. أشارت إلى صباح بإبهامها لأعلى.

ضحكت مساعدتها. «بالمناسبة، أجلوا اجتماع قمة الأديان إلى الأسبوع المقبل. سيرسلون إلينا جدول الأعمال منقحًا بحلول نهاية اليوم».

«جيد. من هن الطالبات السفيرات اللاتي سيمثلن مدرستنا؟»

تفحصت صباح مكتبها. «مجيدة أبو لطيف، وجنين محسن، ورنا عبد البكير. اثنتان من طالبات السنة الأخيرة، وطالبة من السنة الأولى».

أومأت عفاف برأسها. كانت جنين صديقة ابنتها عزمية المقربة، وقد بدأت الاثنتان الفصل الدراسي الأول لطالبات الثانوية في منظمة العفو الدولية في مدرسة نور الدين. لم تكن عزمية سوى طالبة مستجدة ذلك العام، ومع هذا دافعت بالفعل عن حقوق الإنسان. مثل كثيرات من قريناتها، أولت اهتمامًا وثيقًا

بقضية ملالا يوسفزي، طالبة باكستانية تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا مثلها، أصيبت برصاصة في رأسها بسبب رغبتها في الحصول على تعليم. هزَّ الخبر عزمية عدة أيام.

كيف يفعلون ذلك؟ أليسوا مسلمين أيضًا؟ أرادت ابنتها أن تعرف. لم يكن لدى عفاف إجابة جيدة سوى *أنهم ليسوا مسلمين حقيقيين يا حبيبتي*.

ثم وقعت حادثة «ساندي هوك»[1]، وساعدت عزمية في حشد تظاهرة طلابية، قطعن كل الطريق حتى «سبرينغفيلد»، وانضممن إلى مجموعات أخرى تطالب المشرِّعين في «إلينوي» بتحميل الكونغرس مسؤولية حياة العشرين شابًا المقتولين.

كانت عزمية في السنة الدراسية الأخيرة الآن، ونصب عينيها دراسة القانون الدولي. اختارت صديقتها جنين تمهيدي الطب، وفي بالها خطط التطوع في منظمة «أطباء بلا حدود». في بعض الأحيان، بينما كانت عفاف تقف خارج إحدى حجرات الفصل تتنصت عبر الباب، تسمع المعلمة وهي تحاضر، ثم يلي ذلك جوقة متقطعة من الردود الصاخبة والهادئة. يغمر عفاف في تلك اللحظات إحساس طالباتها بالفخر والغاية. يوجد عدد لا حصر له من الخيارات التي تنتظر هؤلاء الشابات في المستقبل.

---

(1) حادثة إطلاق نار مدرسة ساندي هوك الابتدائية: حادثة إطلاق نار وقعت في يوم 14 ديسمبر 2012، تسببت في مقتل سبعة وعشرين شخصًا، منهم عشرون طفلًا وذلك في إطلاق نار قتل جماعي في قرية ساندي هوك التابعة لمدينة نيوتاون بولاية كونيتيكت الأمريكية. أطلق الجاني «آدم بيتر لانزا» النار على نفسه بعد قتل ست وعشرين ضحية في المدرسة (المترجم).

في المنزل، كانت عفاف تشاهد عزمية جالسة فوق مائدة المطبخ، رأسها مدفون في كتاب مدرسي، وشعرها معقوص على هيئة كعكة. تعجبت عفاف من هذا المخلوق البديع الذي لا يشبه ما كانت عليه عفاف في سنها؛ محطمة وضائعة. كانت عزمية مفاجأة غير متوقعة في المدة الأكثر حزنًا من حياتها، حيث كبُرت لتصبح جريئة وحازمة، وكان أخواها يبديان قلقهما عليها لكنها كانت تدفعهما بعيدًا باستمرار، وتخلق لنفسها حيزًا مستقلًا، تفرد فيه جناحيها، وترسم مسارها الخاص.

حين كانت في التاسعة من عمرها، أخبرت الفتيات في فرقة الكشافة أنها محظوظة لأن مظهرها لا يوحي أنها مسلمة. رجعت ذلك اليوم إلى المنزل باكيةً. طلبت الإذن من عفاف بارتداء الحجاب.

أحاطتها عفاف بذراعيها. *لماذا يا حبيبتي؟ ما زلت صغيرة جدًا*. تجعدت حواجب عزمية كجناحين متقاطعين، كما الحال دائمًا عندما توشك أن تبكي -وهي مناسبة نادرة، إذ كانت صلبة الشخصية.

لا أريد أن يخطئ أحد بشأن هويتي.

ألم تؤكد كل مسلمة هذه الهوية الجماعية للعالم؟ لا يمكن أن يوجد خطأ بشأن مَن هن، وما يؤمنّ به. ما زالت جرأة ابنتها تذهل عفاف. كانت عزمية مغايرة تمامًا عمّا كانت عليه في سنها، فتاة صغيرة لا تملك أي وعي بالذات، طفلة غير مرئية. هذا ما يفعله أطفالك؛ يمحون عيوبك ومآسيك.

خارج مكتبها، جلس حارس أمن المدرسة لُو فوق مائدة خشبية صغيرة، ونظارة مثبتة على جسر أنفه المرقط بالنمش، يقرأ جريدة. لم يرفع عينيه، حافة قبّعته الوايت سوكس White Sox تُظلّلها. رفع جهاز الراديو ثنائي الاتجاه (راديو إرسال واستقبال) ليلقي التحية.

تذكرت عفاف نظرات لُو المتشككة عندما وظَّفته العام الماضي.

«تقاعدت من القوات العسكرية قبل خمس سنوات. لم أعمل قط مع مسلمين». نطقها هكذا، موو-*سلم*. وبدا أنه ما كان ليشعر بخيبة أمل إن لم يحصل على الوظيفة.

ومع ذلك، أرادته عفاف. كانت تشع منه تلك الهالة الواثقة بالنفس التي تحيط بالأشخاص البيض التي تشي باعتقادهم أنك تعول عليهم لتحسين الأمور. بعد سلسلة من التهديدات بتنفيذ عمليات تفجيرية في المدرسة، وافق مجلس إدارة المدرسة المتوتر بسرعة على تعيين لُو بدوام كامل، ضابط سابق في شرطة شيكاغو.

انعطفت في الممر ما بعد الكافيتريا، حيث تعلو وتخبو أصوات الضحك والثرثرة باستمرار. الفتيات الصغيرات -من سنّ الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة- يتناولن سندوتشات الديك الرومي ويرشفن من زجاجات المياه، رؤوسهن مغطاة بالحجاب الأبيض الإلزامي، وأجسادهن مخبأة تحت زي رسمي أخضر غامق فضفاض.

لوحت رئيسة طاقم الكافتيريا لعفاف بملاقط الفرن المعدنية.

كانت أم خِضر أرملة عجوزًا لكنها مفعمة بالحيوية، ولديها تسعة أبناء بالغين. ناشدت عفاف للحصول على وظيفة في المطبخ لملء فراغ أيامها. كانت الطالبات مغرمات بأم خضر. كانت مثل دجاجة أم؛ ممتلئة الجسم، وتتذمر باستمرار بشأن الطعام المهدَر.

تجأر «أم خضر»: «ما شاء الله يا سيدة رحمن! هؤلاء الفتيات يتمتعن بكل الحرية هذه الأيام. كم أغبطهن!»

تومئ عفاف برأسها وتبتسم يحدوها الأمل في أن يستمر هذا التقدم، وتتمكن كل طالبة من طالباتها من تحقيق إمكاناتها بالكامل. عزفت طالباتها عن التأثر بعروض الزواج المُغرية ومهور الذهب. تلمع وظائف في القانون والطب، والمشاركة في النشاط السياسي في أفق حياتهن الشابة ببريق أقوى من خواتم الألماس. كانت سنوات مراهقتها غشاوةً من الأولاد البيض غير المبالين، ووحدة عميقة ابتلعتها.

بادلت عفاف أم خضر التلويح بالراديو ثنائي الاتجاه، متجاوزة النافذة الزجاجية لمكتب شؤون الطالبات، وملصقات حول *المُواطَنة الصالحة والتوقعات العالية*. ابتسمت إليها صورة مؤطرة للرئيس أوباما. ستفوِّت صلاة الظهر إنْ لم تسرع.

«سيدة رحمن! سيدة رحمن!»

توقفت عفاف من فورها، وتنهدت. استدارت. فتاة قصيرة ريانة الجسم بوجه مستدير تهرول نحوها. نجوى عثمان، طالبة في السنة الأخيرة. كانت في منافسة محتدمة مع طالبة أخرى

على لقب الطالبة المتفوقة[1]. ارتادت والدتها وعفاف في المدرسة الابتدائية معًا. صُدمت الوالدة لرؤية الوضع الجيد الذي آلت إليه عفاف بعد سنوات تخبُّطِها.

«السلام عليكم يا سيدة رحمن! هل سنحت لكِ الفرصة للنظر في اقتراحي بشأن حملة التبرع بالدم؟» حبست نجوى أنفاسها، وهي تطرف برموشها السوداء السميكة، منتظرة ردها.

«ليس بعد يا نجوى. سوف-»

قاطعتها نجوى: «الموعد النهائي في غضون ثلاثة أسابيع يا سيدة رحمن». وثبت نجوى على باطن قدميها وهي تتحدث. قد تتراءى لكَ حماستها معدية أو مزعجة، حسب مزاجك.

«ثلاثة أسابيع مدة طويلة من الوقت لـ-»

رفعت نجوى يديها. «إن شاء الله، أود أن أبدأ الدعاية للحملة في أقرب وقت ممكن، يا سيدة رحمن. أنا أحتاج إلى موافقتكِ».

ابتسمت عفاف رغمًا عنها. قالت: «إن شاء الله».

كان تبادل جملة كاملة مع نجوى عديم الجدوى مثل التنبؤ بالطقس.

سارعت عفاف متجاوزة مختبر العلوم. في الخريف الماضي، حصلت السيدة سلطاني، معلمة مادة العلوم الجنائية، على منحة من الولاية للحصول على مقياس طيف الأشعة تحت الحمراء - كانت مدرسة نور الدين أول مدرسة في المنطقة تحصل على

---

(1) Valedictorian في الأصل: لقب أكاديمي يُمنح للطالب/ة التي تحقق أعلى الدرجات في سنة التخرج، وتُمنح فرصة إلقاء كلمة باسم الدفعة الدراسية في حفل التخرج. (المترجم)

مثل هذه الأداة المتطورة للتحليل الكيميائي والاختبار البيئي. ظهر فصلها في مقال يُسلط الضوء على أنشطة المجتمع في أثناء الشراكة مع قسم شرطة تيمبست في حل قضية سطو منزل.

انعطفت شرقًا في ممر آخر، اتجاه الطرف الأقصى من مكتبها في الطابق الأول. تلقي ألواح النوافذ الملطخة بالثلوج وهجًا قويًا، وجزيئات الغبار الصغيرة تدور مثل مجرات صغيرة فوق رأسها. توقفت أمام باب من ألواح خشبية مزود بنافذة شبكية في أعلاه.

نظرت عفاف خلفها. لم يكن أحد بالجوار. صدى كرات وصافرات قادم من صالة الألعاب الرياضية على الجانب الآخر من المبنى.

تسللت إلى الداخل، وسحبت سلسلة مصباح كهربائي، لتضيء حيزًا لا يزيد على مساحة خزانة أدوات تنظيف. ثمة كرسي مبطن مهترئ مسنود إلى أحد الجدران، ومصحف قرآن صغير على منضدة بجانبه. كانت هذه غرفة اعتراف في السابق، علمت عفاف ذلك في جولة في المبنى عندما عُينت لأول مرة للتدريس قبل عشر سنوات. مدرسة نور الدين في تيمبست، بإلينوي، كانت منذ زمن بعيد «سيدة السلام»، دير من طابقين يضم ثلاثين راهبة بندكتية[1].

شُيد المبنى عام 1929. يواجه الشرق صوب بحيرة ميشيغان، بيد أنّه لا يمكن رؤية مياهها الزرقاء الرمادية من المبنى. خلف

---

(1) نسبة إلى بنديكت نورتشا (480–543) وهو قديس مسيحي كرمته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بصفته قديسًا لأوروبا وللطلاب.
أسس بندكيت اثنتي عشرة طائفة للرهبان في سوبياكو بإيطاليا شرقي روما. (المترجم).

الدير يمتد حقل متواضع -فدانان، بحجم ساحة انتظار سيارات في مجمع تجاري. لم تهدر أخوات «سيدة السلام» شبرًا واحدًا منه. زرعن البطاطس والخيار والطماطم والملفوف.

خلال فترة الكساد الكبير، كان الدير بمثابة محطة استراحة للعائلات البيضاء الفقيرة المسافرة شمالًا إلى شيكاغو من المناطق الوسطى والجنوبية لإلينوي – وصلت بعض العائلات إلى جوبلين بولاية ميسوري. هربًا من خطر الإعدام خارج نطاق القانون، انتهت رحلة الرجال السود في الدير، وبقي عدد قليل منهم لمساعدة الأخوات في حصاد الحقول مقابل أجر بضعة سنتات في اليوم. بالنسبة إلى المزارعين البيض الذين دمرتهم قصعة الغبار[1] تألقت شيكاغو بالفرص في مواجهة حياتهم الكئيبة والمتعثرة اقتصاديًّا، آثار التربة المتآكلة التي خذلتهم لا تزال عالقة بملابسهم عند وصولهم. توقف المسافرون عند دير «سيدة السلام»، وتناولوا وجبة متواضعة من البيض المسلوق والتفاح المخبوز، وأراحوا خيولهم حتى الفجر.

في بعض الأحيان يُنبَذ الأطفال الصغار أمام الدير في منتصف الليل. تخيلت عفاف الأخوات يعتنين بهم، ويقتلن القمل في رؤوسهم بخل التفاح، والديدان الخطافية بالحليب الدافئ

(1) قصعة الغبار: مصطلح يطلق على فترة الثلاثينيات من القرن العشرين حين سادت المنطقة الوسطى من الولايات المتحدة الأمريكية مدة من الجفاف الحاد امتدت من 1930-1936 وفي بعض المناطق حتى 1940. أدى الجفاف الحاد وعدم استعمال الدورة الزراعية والممارسات الزراعية السيئة إلى تدهور الغطاء النباتي وبنية التربة؛ ما ساعد على انتشار عواصف الغبار، ومن هنا جاء الاسم. امتد تأثير هذه الكارثة من تكساس جنوبًا إلى كندا شمالًا. (المترجم).

وزيت الخروع. سرعان ما أصبحت ممارسة منتظمة -أرامل بيض وأمهات غير متزوجات يودِعن الرضَّع والأطفال الصغار الذين لا يستطعن تحمل تكاليف رعايتهم- وتحول الدير تدريجيًا إلى دار أيتام، حيث أخوات «سيدة السلام» يغرسن الورع من الرب في قلوب الأجساد الغضَّة المهجورة، مثل لقاح.

استهوت عفاف غرفة الاعتراف. كانت مكانًا للهروب والاعتزال، للصلاة الانفرادية وأخذ استراحة من المهام المدرسية اليومية. جلست عفاف على الكرسي، وتنفست بعمق قبل أن تخلع حذاءها للصلاة على سجادة من مخمل أخضر. وضعت الراديو بجانب مصحف القرآن وحدقت إلى الباب. رُسِمت جدارية على الباب، تصوِّر *بشارة مريم العذراء*. تأملت عفاف وجه مريم الجليل المشرق عند استقبال رسالة الملاك جبريل. كان لون مقلتيها البني باهتًا ومتقشرًا بفعل مرور عقود عديدة، كما صارت أجنحة الملاك البيضاء كاللؤلؤ قاتمة ومتسخة. كانت الجدارية البقايا الكاثوليكية الوحيدة الباقية -بالإضافة إلى غرفة الاعتراف نفسها- في المدرسة الإسلامية.

أُغلِق الدير في أواخر الأربعينيات عندما اجتاح السل المنطقة؛ ما أسفر عن مقتل معظم الراهبات وأي أطفال باقيين لم تتمكن وكالات الرعاية الاجتماعية من الوصول إليهم في الوقت المناسب. على مر العقود، جعلت الدولة من المبنى منزلًا لاستقبال قدامى المحاربين الذين شرذمتهم الحرب. في الثمانينيات، عندما قطع الرئيس ريغان التمويل، سلمت الولاية المبنى إلى قرية تيمبست.

ظل المبنى شاغرًا حتى وقف علي أبو نمر في اجتماع مجلس القرية في إحدى الأمسيات الباردة من فبراير 1995 -بعد عامين من فتح مركز صلاة تيمبست أبوابه لأول مرة على بعد عدة بنايات فقط- واقترح تأسيس مدرسة إسلامية خاصة للأطفال. كان رجل أعمال ثريًا -مهاجرًا من فلسطين- يغسل السيارات المستعملة ويشمعها قبل أن يمتلك أول قطعة أرض له في الجانب الجنوبي من شيكاغو. بعد أداء فريضة الحج برفقة زوجته، عاد إلى تيمبست بجيوب عامرة بالمال المكرَّس من أجل القيام بأعمال الخير حتى يضمن مكانه في الجنة. من ضمن هذه الأعمال، التبرع لإقامة المركز الإسلامي وافتتاح مدرسة للجيل القادم من المسلمين الذين كان إنشادهم حينذاك أحدث أغنية بوب مرجحًا أكثر من تلاوة آية من القرآن الكريم.

في هذه الأثناء، كان دافعو الضرائب البيض في تيمبست يشهدون بخوف تناميًا في عدد السكان المسلمين. كادوا ينجحون في عرقلة بناء المركز عام 1993؛ لم يكونوا حريصين على توسيع «المساحات غير المسيحية»، كما ذكر أحد المنشورات المتداولة. رُفض اقتراح علي أبي نمر بإنشاء مدرسة – ثم رُفض بعد ذلك ست مرات. بدا من المرجح أن تهدم بلدة تيمبست الصغيرة الدير القديم بالجرافات قبل «السماح له بالذهاب إلى «الموز-لمز»[1].

في شتاء عام 1998، وُفِّق أخيرًا على بناء المدرسة بمساعدة محامٍ أمريكي باكستاني للحقوق المدنية، وفي العام التالي فتحت

(1) Muz-lumz في الأصل: المسلمون باللكنة الأمريكية. (المترجم).

مدرسة نور الدين أبوابها، أولًا للبنين، ثم حصريًا للبنات بعد افتتاح مدرسة أخرى للبنين في بلدة مجاورة. من بين الشخصيات البارزة التي قصت الشريط كان علي أبو نمر -الذي استقال لاحقًا من مجلس إدارة المدرسة وعاد إلى وطنه فلسطين تاركًا وراءه إرثه- طوبة منقوشة في الممشى الخارجي للمدرسة تخلِّد مشاركته في تأسيس المدرسة.

خلعت عفاف حذاءها واعتدلت في وقفتها. ثبَّتت قدميها على حافة سجادة الصلاة. في دفعتين، دخلت الطالبات والمعلمات إلى صالة الألعاب الرياضية لأداء صلاة الجماعة المقررة، وأوقفن مؤقتًا تمارين ألعاب كرة الطائرة وكرة السلة. في معظم الأيام، فضَّلت التعبُّد بمفردها متجنبة وابل طلبات أعضاء هيئة التدريس والاستفسارات المتراكمة عليها ما إن ترفع نفسها عن الأرض في ختام الصلاة.

خيم على غرفة الاعتراف السلام، وإن لم تكن هادئة تمامًا. كان لحن بيانو يسري عبر فتحة تهوية السقف، ثم تبعه جوقة من غناء نسائي. جوقة أداء الآنسة كاميليا معلمة الموسيقى، تستعد لحفل الربيع في «نافي ببر». أداء باهت لأغنية «Skyfall» لأديل تردد صداه فوق رأس عفاف. خلال مدد هروبها القصيرة من مكتبها، كانت تجلس على الكرسي المبطن، وعيناها مغمضتان، تستمع إلى الأصوات الرنانة المتدفقة من فتحة التهوية. لكن اليوم لم يكن لديها وقت سوى للصلاة. علاوة على المكالمات الهاتفية من أولياء الأمور هذا الصباح، كانت تفكر في اقتراح ميزانية جديدة، والتحقيق في شُبهَة سرقة أدبية لورقة بحثية كتبتها إحدى الطالبات.

همست عفاف ويداها مطويتان أمام صدرها: «بسم الله الرحمن الرحيم».

في سجدتها الأخيرة، سمعت عفاف صوتًا يشبه مفرقعات نارية. فرغت من الصلاة بسرعة، ومدَّت يدها إلى جهاز الراديو ثنائي الاتجاه.

لا بدّ أنَّ لُو سمع الصوت أيضًا.

رفعت مستوى الصوت وضبطت هوائي التحكم: «لُو، هل يمكنك التحقق من هذا الضجيج؟ مثيرو شغب مرة أخرى؟ حوِّل».

ألقى أناس من الحي مفرقعات M-80s النارية من فوق سور المدرسة بانتظام. كانت رسالة تدوي بصوت عالٍ وواضح: *أنتم لا تنتمون إلى هنا*.

ازدادت أعمال التخريب سوءًا أيضًا. في الأسبوع الماضي رسموا بالرشاش رأس خنزير على جدار قاعة الأدوات الرياضية، وقبل يومين حطمت زجاجة بيرة نافذة حجرة فصل رسم السيدة نوال قدير.

أبلغت المعلمة الشابة الحبلى عفاف البارحة: «زوجي يلحُّ عليَّ حتى أستقيل»، وجهها المؤطر بالحجاب مشدود من فرط الذعر. فركت بطنها المنتفخ، في انتظار كلمات عفاف المطمئنة.

أخبرت عفاف معلمة الرسم: «اتخذنا كل الاحتياطات يا نوال. علاوة على ذلك، الأمور بيد الله». بدت غاضبة أكثر من كونها متفائلة. كانت عبارة محفوظة تقولها تلقائيًّا. وعندما توقفت سيارة تابعة لقناة إخبارية محلية من أجل تغطية آخر حادثة تخريب، رددت عبارة أخرى:

«نحن دين سلام لا إرهاب. نحن أمريكيون أيضًا».

متحدية توصية مجلس الإدارة، رفضت نصب مزيد من الأعلام، لا سيما علمًا أمام مدخل المدرسة ليراه الجميع. العلم الذي تعهد تجمُّع من الطلاب وأولياء الأمور بالولاء إليه خلال البرامج وحفلات التخرج، المتمركز بالفعل بشكل بارز في قاعة المناسبات الصغيرة. جادلت في المجلس: *هل العلم الدليل الوحيد على الوطنية؟*

طقطق الراديو. أعادته عفاف إلى منضدة الأباجورة. بقيت جالسة على الأرض، رجلاها مطويتان تحتها، وأغمضت عينيها.

فكرت: *امنحني الصبر يا الله.*

دعت بعينين لا تزالان مغمضتين من أجل عزمية حتى تؤدي جيدًا في اختبار علم النفس في برنامج التعيين المتقدم[1] بعد ظهيرة هذا اليوم. أمضتا الليلة الماضية في مراجعة أكثر من اثنتي عشرة من بطاقات الملاحظات التي كتبتها عزمية بخط يدها عن أصناف السلوك غير السوي.

رنَّ هاتف عفاف المحمول. قبل قراءة الرسالة الواردة، تركت عقلها ينجرف لحظة أطول في الدعاء لأحبابها. تنفست بعمق، وهمست بدعاء أخير لأمها التي تعيش على بعد آلاف الأميال، ومع ذلك لا يزال بوسعها زعزعة ثقة عفاف. تحمَّلت سنوات من رفض أمها المتقلِّب –أو ربما لا مبالاتها الكاملة.

---

(1) برنامج تعلمي في الولايات المتحدة وكندا أنشأه مجلس الجامعات، ويقدم مناهج وامتحانات على مستوى الكلية لطلاب المدارس الثانوية. وتمنح كثيرًا من الكليات والجامعات الأمريكية حق الالتحاق بها للطلاب الحاصلين على درجات عالية في امتحانات البرنامج (المترجم).

قبل أن تتمكن من الرد على الرسالة، هزَّ انفجار آخر المصباح الكهربائي فوق رأس عفاف. هبَّت واقفة. بدا دوي المفرقعات النارية أقرب كأنها قادمة من داخل المبنى. بالتحديد من الطابق فوقها؛ غرفة موسيقى الآنسة كاميليا.

نظرت عفاف إلى فتحة التهوية وقلبها ينبض بقوة.

توقف الغناء فوقها.

اختطفت الراديو ثنائي الاتجاه من فوق المنضدة، أصابعها ترتجف بشدة لدرجة أنها كادت تسقطه. «لُو! تفقد المبنى يا لُو! طلقات نارية! حوِّل».

اندلعت ضوضاء عالية الحدة، بلا كلمات عبر السقف. صراخ الفتيات الصغيرات. أصوات مرعبة وغير مألوفة، على عكس تضخم الضحك وانحساره المعتاد. الأصوات التي تبلورت بمحبة في قلب عفاف على مر السنين التي كانت تدرِّس فيها في مدرسة نور الدين.

ثم علا صوت خبطات مدوية مثل أكياس أسمنت تتساقط على الأرض.

اتكأت عفاف على الباب حاجبة جناحي جبريل الحائم فوق مريم العذراء. أنصتت وهي تمسك بالراديو ثنائي الاتجاه، ووجهها يميل نحو فتحة التهوية.

1976

1

لا ترد على والدتها في المرة الأولى التي تناديها. «عفاف!» تستمر في القفز فوق سريرها.

«عفاف! أين أنتِ؟»

مجيد، شقيقها الأصغر، يقفز أمامها على السرير المزدوج. يتسمر في مكانه ويرفع رأسه على أنغام أغنية «الدلو Aquarius» التي يشغلانها بلا انقطاع على مشغل أسطوانات مستعمل اشتروه من بيع مرأب.

بيع مرأب[1]، بالنسبة إلى والد عفاف، بدعة أخرى في الحياة الأمريكية. في المرة الأولى التي اكتشف فيها وجود أحدها، قال لوالدتها: «هؤلاء الأمريكان[2] يبيعون ممتلكاتهم الخاصة من أجل الربح!» في فصلي الربيع والصيف، ترافق عفاف ومجيد أباهما في نزهات صعودًا وهبوطًا في أزقة الحي، بحثًا عن مرأب مفتوح حيث يجلس الملاك البيض على كراسي الحديقة، يشربون البيرة ويقذفون بأعقاب السجائر على الحصى، ويساومون أباهما على سعر حاجيات يعرضونها للبيع. ترتدي زوجاتهم سراويل قصيرة من قماش تيري وبلوزات دون أكمام، وخطوط السُّمرة الصفراء

---

(1) بيع المرأب: طريقة غير رسمية وميسَّرة لبيع الأدوات أو الملابس المستعملة في مقر إقامة البائع عادة المرأب (المترجم).

(2)؛ Amrkan بالعربية في الأصل (المترجم).

الفاقعة تتغلغل في بشرتهن الملفوحة بالشمس. لا تستطيع عفاف أن تشيح بعينيها عن أثدائهن المترهلة البارزة. في رحلتهم الأخيرة، اشترى الوالد مشغل أسطوانات من رجل بلحية غير مشذبة ونظارات مثل نظارات جون لينون، وأباجورة مكتبية مقابل خمسين دولارًا مع أن عائلة عفاف لم تكن تمتلك مكتبًا في شقتهم الضيقة. يؤدون واجباتهما المدرسية على منضدة قهوة سطحها مليء بالخدوش والقشور في الغرفة الأمامية، تمسحها والدتها عدة مرات في اليوم.

عارضت الأم شراء مشغل الأسطوانات —وبختهم: *مصاري على الفاضي*— أي إهدار للمال. تخلص المالك السابق من مجموعة غريبة من الألبومات مع مشغل الأسطوانات: ألبوم لفرقة الفتيات شانجري-لاس Shangri-Las، وبات بوني Pat Boone وسام كوك Sam Cooke. حفظت عفاف ومجيد حتى الآن كل مقطع من أغنية شَعر Hair، أغنيتها المفضلة. يستمع الأب إلى ليونارد كوهين، ويحسِّن لغته الإنجليزية من خلال الأغاني. «سوزان»[1] تتراءى لعفاف بئرًا بلا قاع.

في صباح يوم الأحد، يعزف الأب على عوده، ويشدو الأغاني العاطفية لعازف العود المصري المفضل لديه، فريد الأطرش. يعلن الأب: *فريد ليس تعيسًا مثل ليونارد*، كما لو أن الموسيقيين المشهورين صديقان مقربان له.

«عفاف!»

---

(1) اسم أغنية لليونارد كوهين (المترجم).

المـرة الثالثـة التـي تناديهـا فيهـا الأم، علامـة أكيـدة علـى أمـر جـاد، تقفـز عفـاف فـوق سـجادة الصـوف البنيـة، وتنطلـق عبـر الردهـة الضيقـة للشـقة، وينـزلـق مجيـد خلفهـا فـي جواربـه الطويلـة فـوق الأرضيـة الخشـبية التـي تمسـحها الأم كل يـوم.

كانـت الأم علـى الهاتـف، السـلك الأصفـر للسـماعة يلتـف حـول أصابعهـا. يغلـي قِـدر مـن يخنـة الفـول علـى الموقـد، وثمـة كومـة مـن الأطبـاق قـد أخرجتهـا الأم مـن الخزانـة، لكنهـا لـم تضعهـا علـى المائـدة بعـد. عطّـل شـيء معيـن أمهـا عـن تجهيـز مائـدة العشـاء.

تتحـدث الأم بلغـة عربيـة محمومـة عبـر الهاتـف - تخمـن عفـاف أنهـا الخالـة[1] نسـرين علـى الطـرف الآخـر، أخـت أمهـا الصغـرى، القريبـة الوحيـدة لهـا فـي الولايـات المتحـدة، والتـي تعيـش علـى بعـد سـاعتين، فـي كينوشـا، بويسكنسـن.

تسـتدير الأم إلـى عفـاف بعينيـن عسـليتين واسـعتين، حجريـن مـن الكهرمـان مـع بقـع تبـدو خضـراء أو ذهبيـة حسـب حالتهـا المزاجيـة. عندمـا تضحـك، تبـدو مثـل شـذرات ذهبيـة صغيـرة استُخرِجت مـن الأرض. الخـوف والغضـب عـادة مـا يحولانهـا إلـى اللـون الأخضـر، وهـو اللـون الـذي أصبحـت عليـه الآن فـي حيـن تحـدج الأم عفـاف بنظراتهـا. عينـان لـم يرثهمـا عنهـا سـوى شـقيقها مجيـد. عينـان تشـتهيهما عفـاف كل يوم، هـي المحاطـة ببحـر مـن البشـرة البيضـاء والأعيـن الزرقـاء والخضـراء فـي مدرسـة نايتنجيـل الابتدائيـة. لعفـاف شـعر أبيهـا، سـميك وممـوج.

---

(1) Khalti (خالتي) بالعربية في الأصل. (المترجم).

«نعم يا ماما؟» تقف عفاف بالقرب من والدتها بقدر ما تسمح لها به شجاعتها إذ تخيفها والدتها بطريقة لا تفهمها. الأم امرأة جميلة تعتني بعفاف وشقيقيها. تطبخ كل يوم، حيث تجد عفاف ومجيد عند عودتهما إلى المنزل أواني أكلة المقلوبة ومقالي الكفتة، تصل رائحة البهارات إليهما في بئر السلم حتى قبل أن يفتحا الباب الخلفي للشقة. قبل النوم، تحمم الأم مجيد -تسمح لعفاف أن تستحم بمفردها الآن- وتجهز لهما ملابس نظيفة من أجل اليوم التالي. لكن، ثمة أيام أخرى يعودان فيها من المدرسة ليجدا الأم في سريرها تبكي. يستمر هذا الوضع بضعة أيام. في تلك الليالي، كانت تسمع الأب يتحدث إلى الأم، كلماته الرقيقة والمعزية مكتومة ببكاء الأم. تتحرك عفاف بحذر حول الأم التي تشبه إحدى تلك الدمى المرنة في مهرجان الألعاب، التي تطيح بها بواسطة كرة. تخشى عفاف في تلك الأيام أن لا تنهض أمها من فراشها مرة أخرى.

«هل أخبرتكِ ندى أين ستذهب بعد المدرسة؟» تسألها والدتها وقد وضعت كفها فوق السماعة، رغم أن عفاف متأكدة من أن خالتها تسمع سؤال الأم اليائس.

داهمت الحقيقة عفاف؛ أختها الكبرى لم تعد إلى المنزل بعد. تشتت انتباهها هي ومجيد بسبب غنائهما وقفزهما، ولم ينتبها إلى الغسق الخريفي الزاحف خارج الشقة. يجب أن تكون ندى في المنزل قبل أن تُضاء مصابيح الشوارع، قبل أن يرجع والدها إلى المنزل من المصنع.

«لا، يا ماما. لم تقل لي أي شيء». كلتاهما تنظر إلى مجيد البالغ من العمر سبع سنوات - فعل لا طائل من ورائه. يهز رأسه. لماذا تخبر أختها البالغة من العمر سبعة عشر عامًا شقيقها الأصغر -أو عفاف حتى- بأي شيء عن حياتها الغامضة خارج حدود شقتهم؟

ترتق عفاف -البالغة من العمر عشر سنوات- في ذهنها قطعًا صغيرة من حياة أختها معًا -الساعات التي تقضيها ندى في فرد خصلات شعرها البني الكثيف، وتثبيتها بمشابك على شكل درع سلحفاة، أو الابتسامة الماكرة التي تزحف على وجهها عندما تقرأ رسالة على ورقة منزوعة من مفكّرة، مطوية ومجعدة مرات عديدة. اللحاف الذي حاكته عفاف من حياة أختها لا يمثل شخصًا كاملًا - فقط لمحات من حياة مزدوجة.

تصرخ الأم في الهاتف: «يا ربي! يا نسرين، أين يمكن أن تكون؟» كتفاها تهتزان بالبكاء. تواصل الأم الاستماع، والإيماء برأسها في حين تقول خالتها أشياء لا تستطيع عفاف سماعها. تثني الأم خصلات الشعر المتطايرة خلف أذنها. تنبت من تاج رأسها خصلات رمادية. يحتاج شعرها إلى بعض الرتوش التجميلية. كل شهر، على مائدة المطبخ، تضع الخالة نسرين عباءة بلاستيكية حول كتفي الأم النحيفتين فيما تحتضن والدتها فنجانًا صغيرًا من القهوة السميكة المتبلة بالهيل في راحة يدها. يضحكان وهما تتذكران تصرفات طفولتهما الغريبة في فلسطين، وتشارك الخالة نسرين الحكايات عن المهاجرين العرب الآخرين في دائرة معارف زوجها، وتضغط على زجاجة صبغة الشعر البلاستيكية حتى آخر قطرة. تفهم عفاف حفنة من الكلمات والجمل العربية:

مصاري. مال. كلمة كثيرًا ما تُنطق.

بلاد. البلد القديم. كلمة مشوبة بالشوق.

مع السلامة. إلى اللقاء. في نهاية المكالمات الهاتفية البعيدة، أحيانًا من بين الدموع المختنقة.

جرت العادة في أي حديث بين الأختين، أن يشير علو في درجة صوتيهما إلى فرحة حميمية تتلاشى مع انخفاض حدة الصوت ثانية. وتحل الشهقات محل الضحك، وتلتقط أذن عفاف اسم أبيها؛ محمود. تتساءل كيف يمكن أن يحمل كلمة من مقطعين كل هذا الغضب والمرارة في كل مرة تنطق الأم اسم الأب. لا تفهم عفاف سوى قليل عن زواج والديها. في بعض الأحيان، تجدهما جالسين إلى مائدة المطبخ، الأب في منتصف رواية قصة عن حادثة مؤسفة في مصنع البلاستيك حيث يعمل، والأم تضحك طويلًا وبقوة، كتفاها تترجرجان وهي تغرف العشاء في طبقه، حبات الأرز تتناثر عند حافة الطبق. في أحيان أخرى، تلمحهما عفاف أمام حوض المطبخ، الأب يمد يده نحو خصر الأم، يداها مبللتان وملطختان بالصابون، والأم تلكزه بكوعها في بطنه، وتدفعه بعيدًا، شفتاها مزمومتان.

بينما تشتكي الأم وتنتحب في الهاتف بشأن ندى، تريد عفاف أن تلمس ذراعها لتهدئتها، لكن يتراءى لها الأمر كأنها ستمد يدها لتُمسِك مقلاة ساخنة من زيت القلي.

تفكر عفاف مليًا في ما يجري. هذه ليست الدموع المألوفة التي تتدفق فوق صدغي الأم، وتبلل غطاء وسادتها. الأم مرعوبة، وهذا يسبِّب الخوف لعفاف. تنظر إلى نعل الأم المتسخ، الذي

كان لونه ذات يوم ناصع البياض وقد أصبح الآن بلون مياه الجلي القذرة، قبل أن تُمسك بيد مجيد، وتجذبه بعيدًا.

يغيران ثياب المدرسة، ويرتديان البيجامات، ويجلسان على سرير الأريكة القطيفة الزرقاء حيث ينام مجيد في الغرفة الأمامية. يتجنبان طريق الأم وهي تقرع الأطباق وتغلق أدراج خزانة المطبخ وتتمتم متحدثة إلى نفسها. يتكوم مجيد بجوار عفاف ويشاهدان حلقة من مسلسل «Three's Company»، مسلسل عادة ما يجعلهما ينفجران ضاحكين. الليلة بالكاد يستطيعان الضحك إذ يستوعبان خطورة الموقف؛ مسلسلهما المفضل يُبَث دائمًا بعد العشاء، عندما يكون الأب قد رجع سلفًا إلى المنزل منذ ساعة على الأقل. وندى ليست متأخرة.

تتساءل عفاف أحيانًا عمّا تفعله أختها الكبرى خارج الشقة. رائحة ملابسها كالسجائر، وشعرها أشعث، ومشبك شعر يتدلى بإهمال أخفض من الآخر. لا تجرؤ على السؤال لأن ندى كتومة، وكثيرًا ما تنفعل في وجه عفاف: *اهتمي بشؤونك الخاصة*.

في نهاية الحلقة، عندما يقف السيد روبر وقد وقع مرة أخرى ضحية لخداع جاك، يخطو الأب بخفة عبر الباب الأمامي. تندفع الأم نحوه. يضع حافظة العود الجلدية على الجدار.

«أين كنت؟ هل تعلم أن ندى لم تعد إلى المنزل حتى الآن؟» تصرخ، وهي تلف منشفة الجلي بيديها لتصنع ما يشبه الحبل.

«ندى ليست في المنزل؟!» ينظر الأب إلى عفاف ومجيد كما لو أنهما يستطيعان تقديم سبب معقول له. يهم شقيقها بالتذمر. عفاف تمسك بيده.

يستدير الأب إلى الأم. قميص عمله نصف مطوي، ظهر القميص يرفرف فوق حزامه. اسمه مثبّت فوق جيب الصدر علاوة على اسم المصنع «بلاستيك داير Dyer Plastic». القميص إحدى قطعتي الثياب اللتين تغسلهما الأم يدويًا كل ليلة، وتعلقهما فوق حوض الحمام. بحلول الصباح، يكون القميص جافًا بدرجة كافية كي يلبسه الأب مرة أخرى.

«أين يمكن أن تكون؟»

«هذا الصباح أخبرتني أنها ذاهبة إلى لورا». تنطق الأم حرف الراء في اسم الفتاة الأخرى بسرعة حتى لا يبدو الاسم أمريكيًا. «للمذاكرة من أجل اختبار العلوم، على ما أعتقد». تشد منشفة الجلي، مثل لعبة شد الحبل، بين يديها.

«حسنًا، حسنًا». يتخذ الأب خطوة مترددة تجاهها كما لو كان يقيس غريزتها لرفض اقترابه منها، وهي لفتة تتعرف عليها عفاف بصفتها طفلة تبقيها أمها دائمًا بعيدًا عنها بمقدار ذراع. تفك أصابع الأم خصلات شعر عفاف المتشابكة وتجدِّلها، وتفرد ياقة فستانها في يوم التقاط الصور، وتمسح أنفها عندما تصاب بنزلة برد. لكن عفاف لا تتذكر آخر مرة ربتت فيها يدا أمها على خديها، أو سحبت ذراعاها النحيفتان عفاف في عناق. يمسك الأب كتفي الأم برفق. «أنا متأكد من أنها نسيت نفسها ولم تدرك مرور الوقت، يا منتهى. هل اتصلت بوالدي لورا؟»

تبدو الأم كأنها تلقت صفعة على وجهها. تبتعد عن الأب. «لا. ولكن أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة فيما أنا أُقلِق نفسي حتى الموت؟» خداها متوردان.

يمشي الأب إلى المطبخ. «ما رقم لورا؟»

يتضخم غضب الأم، ضاغطًا على الذعر المطلق الذي يملأ أرجاء الشقة. «أخبرني لماذا تأخرت يا محمود. آه؟! مزيد من العمل الإضافي، أم هل كنت مع تلك *العاهرة* مرة أخرى؟»

عاهرة. كلمة عربية أخرى تسمع عفاف الأم تنطق بها بين شهقاتها على مائدة المطبخ في أثناء كلامها مع أختها عبر الهاتف، تنطقها بالتحديد عند الحديث عن امرأة لا تعرفها عفاف. تكتفي الخالة نسرين بمص شفتيها، وإخراج مزيد من صبغة الشعر من الزجاجة.

«بس (كفى) يا منتهى!» يوبخها الأب، وصوته يتردد في الردهة. «أخبرتك مئة مرة، كنت أتدرب مع الفرقة».

لا يمتلك الأب سيارة. يستقل حافلتين إلى المصنع -أحيانًا واحدة، عندما يصحبه زميله زياد خلال أشهر الشتاء. بعد ذلك، يتدربان في مرأب صغير منفصل، يملكه أمجد عضو الفرقة الثالث.

تجر الأم قدميها وراءه. عفاف تقفز من فوق سرير الأريكة، مجيد يندفع خلفها ويتبعان والديهما. مجيد يمسح أنفه في كم بيجامة سكوبي دو.

«أيوا (أجل)! أنت تعزف على آلتك اللعينة، ولا تبالي بالعالم!» تقطع الأم كل كلمة اتهامية بضربة من منشفة الجلي في الهواء. تتذكر حساء الفول على النار وتطفئ الموقد، وتلقي ملعقة خشبية على الأرض. تقفز عفاف ومجيد مفزوعين من الصوت.

يسحب الأب قصاصة ورق مثبتة على جانب الثلاجة بمغناطيس على شكل تفاحة. تتعرف عليها عفاف على أنها ورقة مأخوذة من مفكرتها المكتبية، التي يحد أطرافها رسومات حيوانات السيرك. فازت بها في حفلة عيد الحب العام الماضي في الصف الثالث لرميها خمس كرات طاولة داخل صف من الدلاء، مثلما يحدث في برنامج «بوزو شو».

ومع ذلك، لم يبهر الأمر جولي مكنولتي أو أمبر ريفز، أجمل فتاتين في فصلها. لن تدعو أي منهما عفاف أبدًا إلى حفلات أعياد ميلادهما. في ذلك اليوم، حملت عفاف جائزتها بفخر حين اندفعت جولي نحوها وقالت: «لم تمنحي أمبر فرصة للفوز. لا تكوني بخيلة يا أ-فاف. أنتِ لا تريدينها حقًّا، أليس كذلك؟» نظرت إلى أمبر، التي وقفت بصمت ترقب عفاف، ذراعاها معقودتان، عيناها الزرقاوان تتلألأن بالدموع التي لم تسقط قط.

دون أن تنبس بكلمة، سلمت عفاف الجائزة إلى جولي. بالنسبة إلى بقية الحفلة، وقفت عفاف في زاوية حجرة الفصل وهي تنظر إلى يديها الفارغتين. في نهاية الألعاب، شاهدت جولي وأمبر، أذرعهما ملأى بالبطاقات المصنوعة منزليًّا على شكل قلب، واقفتين في مقدمة الصف كما تفعلان دائمًا عند مغادرة الطلاب حجرة الفصل. على منضدة أمبر، كانت الجائزة المشتهاة التي منحتها إليها عفاف تحت إصرار جولي، وقد تركتها وراءها بلا مبالاة. أخذتها عفاف مرة أخرى -هي حق لها، بعد كل شيء، مع أنها تخلت عنها بسرعة.

«عفـاف». يشـد شـقيقها ذيل قميـص بيجامتهـا. ينتظـران عنـد مدخـل بـاب غرفـة نـوم والديهمـا، إلـى الجانـب الآخـر مـن مائـدة المطبـخ، بعيـدًا عـن طريـق الأبويـن.

«صـه يـا مَـجا» تضـع إصبعهـا علـى شـفتيها وتتسـع عينـا أخيهـا. أومـأ برأسـه، وهمـا يشـاهدان الأب يحـدق بصمـت في قائمة الأسـماء التـي جمعتهـا الأم. كتبـت الأسـماء بالعربيـة —أحـرف غريبـة علـى عفـاف، الحـروف العربيـة المشـبوكة معًـا مثـل تمائـم حظ علـى قـلادة، تتكسـر فـي بعـض المواضـع. الأرقـام مطبوعـة باللغـة الإنجليزيـة.

«مرحبًـا؟ نعـم، معـك محمـود رحمـن»، تلعثـم الأب فـي الهاتـف. «محمـود رح.. أجـل، والـد نـدى. نعـم. بخيـر. وأنـت؟»

تقـف الأم بالقـرب مـن الأب، فكهـا مشـدود، وعيناهـا تلمعـان. يعاودهـا خوفهـا السـابق، الغضـب تجـاه الأب يتسـرب مغـادرًا وجههـا. كل مـا يهـم الآن رجـوع نـدى إلـى المنـزل.

2

وِلدت ندى شقيقة عفاف عام 1959 في منزل طفولة الأم في فلسطين. عندما حصلوا أخيرًا على دعم من ابن عمه، جمع الأب عائلته الجديدة من أجل السفر إلى أمريكا. عمل نادلًا في أحد المطاعم خلال النهار وارتاد ملاهي جولد كوست الليلية في شيكاغو مثل ملهى «پامپ روم» حيث خُصِّصت مقصورة من أجل سيناترا. أخفق الأب في إقناع مالكي الملهى بمنحه فرصة العزف هناك.

لم يكن الأب ليونارد كوهين أو جوني كاش. عزف على عوده ألحانًا شجية، أجنبية جدًا أو «شرقية» كما أطلقوا عليها. قالوا للأب وهم يهزون رؤوسهم تجاه عوده بصندوقه المُصمَت المنفوخ: «يحب الناس الرقص هنا. عزفك غير مناسب هنا».

لم يكن حظه أفضل في حانات «ساوث سايد بلوز». كان بعض المديرين مفتونين بأداة الأب الموسيقية - صندوق الكمثرى المقلوب، والاختلاف بين النغمات الصادرة عن ضرب الأوتار السفلية، وضرب الأوتار العلوية.

لكن، كما يتذكر الأب عندما صعدت عفاف إلى حضنه لسماع قصص حياته الموسيقية، كان الرد واحدًا:

أنت لا تغني بالإنجليزية، إذًا لا يمكنك الغناء هنا.

أُجبر والدا الأب على النزوح من منزلهما في حيفا عام 1950. وكان أمامهما ساعة واحدة لحزم كل متعلقاتهم في حين كان المستوطنون اليهود يرقبونهما من كثب ويوجهون بنادقهم نحوهم.

وضعت والدته مفتاح المدخل الحجري لمنزلهم المستولى عليه في كيس مخيط داخل عباءة الفلاحات التي ارتدتها، وتنفّسوا نسيم البحر للمرة الأخيرة.

قال الأب لعفاف: «كان يمكنك أن تشمي رائحة ملح البحر من نافذتنا».

تساءلت عن شعور الأب الذي امتلك ذات يوم بحرًا كاملًا، والآن مجرد بحيرة، مع أن بحيرة ميشيغان تراءت لعفاف لا متناهية خلال فصل الصيف حين أخذهم الأب إلى شاطئ البحيرة الممتد خارج قبة أدلر السماوية، لمشاهدة المراكب الشراعية وهي تتحرك في الأفق.

كان الأب صبيًّا صغيرًا عندما تركهم والده في ضيافة عائلة في الضفة الغربية، بحثًا عن عمل ومنزل جديد في الجهة المقابلة من النهر في الأردن. لم يسمعوا عنه مرة أخرى. توفيت والدته لاحقًا بسبب التهاب في الجهاز التنفسي، وانفصل عن إخوته؛ انتقلت شقيقتاه إلى الخليل للعيش مع عمة أرملة، وبقي هو وأخوه الأكبر جميل مع عائلة حاضنة في رام اللّه. في فترة المدرسة، تدرب جميل على يد حداد محلي، وكان يدق المعادن من الصباح الباكر حتى صلاة العصر. في العام الذي بلغ فيه الأب سن الثالثة عشرة، تعرض شقيقه لحادثة إذ ركله ودهسه حمار وهو في طريقه إلى السوق لمقايضة البضائع بالحدادة.

بات الأب وحيدًا تمامًا في العالم. كانت الأسرة الحاضنة لطيفة، لكنهم لم يتمكنوا من إخماد شغف الأب بالموسيقى، مهنة غير مُربِحة. انقطع عن المدرسة، وقضى بعض الوقت مع قرويٍّ

علّمه العزف على العود. اشترى القروي الذي كان يُدعى وجيه الأعمى عودًا مستعملًا من أجل الأب، ودرَّب أصابعه الصغيرة على العزف على الأوتار والإمساك بها.

تسأل عفاف «هل وُلِد أعمى؟»، وقد امتد خيالها إلى وجوه وأماكن حياة والدها الأولى. حياته الثانية تبدأ مع أمها.

قال لها الأب: «لا، لا. كان وجيه عضوًا في أوركسترا ملكية بريطانية في القدس. فقد بصره في انفجار مروع في أثناء أعمال شغب». يقبّل رأس عفاف. «لكنه لم يتوقف عن العزف، ما شاء الله».

حتى لا يُحبط من كل الرفض الذي واجهه في شيكاغو، شكَّل الأب فرقة مع اثنين من زملائه المهاجرين الذين عملوا في مصنع بلاستيك داير Dyer Plastic -زياد، فلسطيني من قرية مجاورة صغيرة يمكنه العزف على الناي الذي يدغدغ شغاف القلب. وأمجد، عازف إيقاع مصري يمكنه التنقل بسلاسة بين الطبلة والدُف. شكلوا فرقة «بلدنا»، وعزفوا في أعراس عربية في أرجاء المدينة. خلال الأسبوع، رفعوا ونقلوا ألواح الراتنج في مصنع البلاستيك، سعيًا وراء تأسيس حياة جديدة لزوجاتهم الشابات وأطفالهم الأمريكيين الجدد.

طاب لعفاف النظر إلى الصور بالأبيض والأسود الموجودة في صندوق أحذية كانت والدتها تحتفظ به في خزانة الصالون، معاطفهم الشتوية تلامس غطاءه. صور تعتقد أنها تعرفها عن ظهر قلب، ولكن بعد ذلك تتبدى تفاصيل جديدة مثل الطريقة التي تحجب بها الغيوم الريشية الشكل الشمس، أو كيف تنقلب

ياقة معطف الأب على جانب واحد. الصورة المفضلة لديها صورة للأب وهو يقف على شاطئ البحر الميت. يرتدي بنطلونًا مكويًا وقميصًا أبيض، زر ياقته مقفول. كانت يداه مدسوسة بعمق في جيوبه وهو يحدق في الكاميرا، وابتسامة تتراقص على شفتيه.

«التقط صديقي باسم تلك الصورة»، قال لعفاف في كل مرة ترفعها ليراها كلاهما. «مات الصبي المسكين بسرطان الدم. مسكين».

بالعودة إلى ما حدث في البلد القديم، فلسطين، صقل الأب الشاب موسيقاه في أثناء عمله في محمصة في مدينة البيرة، حيث كان يُحمِّص بذور البطيخ واليقطين التي كانت تباع بالكيلو.

تسحب عفاف صورة أخرى مطوية الزوايا. في الصورة، تقف والدتها مع زمرة من الفتيات، أذرعهن متشابكات، وأعينهن مؤطرة بالكُحل. الأم هي الأطول، وتقف في المنتصف.

قال الأب لعفاف وهو ينقر على الصورة بإصبعه: «أحببت فستان والدتك. لا يمكنك أن تميزي ذلك من الصورة، لكنه كان فستانًا من المخمل الأخضر الجميل - مخمل مع الدانتيل أسفل ظهرها. كانت المرة الأولى التي أرى أمكِ فيها».

لكن لا توجد صورة في كومة الصور غير المرتبة في صندوق الأحذية يمكن أن تكشف عن المدد المضطربة المبكرة في زواج والديها. بعد ولادة ندى، رفضت الأم إنجاب مزيد من الأطفال حتى يستقر الأب في وظيفة ثابتة، ويمكنهم الانتقال من منزل ابن عمه في شارع ثلاثة وخمسين بضاحية فيرفيلد. تشاجرا باستمرار وهددت الأم بالعودة عبر البِحار إلى فلسطين. كان

تهديدًا فارغًا -فبالكاد كان بإمكانهم دفع الإيجار، ناهيك بدفع ثمن تذكرة طائرة.

عندما تمكنوا من شراء شقة تمليك، حملت الأم بعفاف، بعد سبع سنوات من إنجاب ندى. كثيرًا ما تتساءل عفاف أي نوع من الأطفال كان ليأتي بعد ندى. لو واصل والداها إنجاب الأطفال مباشرة بعد ندى، من كان ليوجد بين شقيقتها الكبرى وعفاف؟ وهل كانت لتولد أصلًا في تلك الحالة؟ بدا ذلك مستبعد لعفاف فيما تشاهد الأم تتحرك في أرجاء الشقة، تشع منها طاقة عصبية تدفعها إلى سكب أكواب الحليب وإسقاط الأطباق التي يسري صوتها على طول عمود عفاف الفقري في أثناء ارتطامها بالأرض.

مكتبة سُر مَن قرأ

قلما تبتسم الأم لعفاف ومجيد، مع أن عينيها تلمعان كلما كانت ندى في المنزل. كانتا، الأم وندى وحدهما مدة طويلة، لذا كانت عفاف ومجيد مثل المتطفلين. كانت الأم وندى من الوافدين الجدد إلى هذا البلد رغم أن ندى لا تمتلك أي أثر للكنة في نبرة كلامها، ولا تتذكر بساتين الزيتون وقطعان الأغنام في فلسطين. لمدة سبع سنوات، ملأت ابنتها الوحيدة فراغ الوحدة في بلد جديد. وجدت عفاف في صندوق الأحذية صورة فورية لندى، طفلة صغيرة ممتلئة الخدين، زيتونية البشرة، عارية الصدر، وتقعد على بطانية فوق العشب، مع أطفال ابن عم الأب الذي عاشوا معه. وتُظهر صورة أخرى الأم وهي تحمل ندى، وتقف بجانب الأب في حفلة عيد ميلاد أحدهم، يده ملفوفة حول كتفيها بتكاسل، والبالونات تطفو في الخلفية. ثمة شيء معين يعلو وجه

والدتها أشبه بفرحة لحظية -ليست ابتسامة كاملة، ولكن تلمع عيناها الخضراوان بالبهجة. عندما أتت عفاف إلى الدنيا، وتبعها مجيد بعد ثلاث سنوات، كانا مجرد فمين أكثر يحتاجان إلى الإطعام.

يلف الأب سلك الهاتف حول يده، ويتجنب النظر إلى الأم: «هل يمكنني التحدث إلى ندى من فضلك؟» وقفة صمت بدت لا نهائية. «متى؟ قبل ساعتين؟»

تلهث الأم، وتضع منشفة الجلي فوق شفتيها. يسكتها الأب بإشارة من يده. مجيد يتشبث ببيجامة عفاف مرة أخرى، لكنه لا يشدها. يتشبث بها فحسب.

«لا لا. لهذا السبب أتصل بك». لغة أبيها الإنجليزية الركيكة تزيد من خوف عفاف - كيف يمكنهم الحصول على إجابات إنْ كان الآخرون لا يستطيعون فهم كلام الأب؟ ومع ذلك، فهو أكثر طلاقة من الأم التي تبدو تائهة ومرتبكة عند ارتكاب أدنى خطأ في الأماكن العامة.

تتذكر عفاف، في زيارة لمنزل ابن عمها، عندما استقلت الأم الحافلة الخطأ طوال الطريق إلى الجانب الشمالي. مع أنها كانت تبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات فقط، كان لا يزال بإمكان عفاف أن تلمح أشعة الشمس الساطعة على بحيرة ميشيغان، فيما تمضي الحافلة بمحاذاتها. وجه والدتها مشدود وعيناها تلمعان. طلبت الأم من ندى أن تسأل راكبًا آخر عن كيفية الرجوع إلى المنزل. بكى مجيد، الذي كان رضيعًا، في حِجر أمها التي راحت تهدهده. استمر في مدِّ يده إلى زجاجة حليب فارغة في يدها.

كان الأب من يسجلهم في المدرسة كل خريف، حيث كان أحد الآباء القلائل في اجتماعات أولياء الأمور، والأمهات البيض تبتسم إليه بغنج؛ هذا الرجل الوسيم الداكن البشرة والبشوش. وكانت عفاف تمسك بيده بفخر.

وكان الأب أيضًا من يترجم أسئلة الأم حول التطعيمات والحمى في عيادة الصحة العامة في ضاحية آشلاند، في حين حقنة الطبيب موضوعة بجوار ذراع عفاف العارية. وكان الأب من يضغط برفق على يد عفاف عندما تشعر بلدغة الحقنة الأولى.

في المقابل كانت الأم مسؤولة عن جميع الأوراق المهمة - شهادات الميلاد والبطاقات الطبية وعقد الإيجار. مع أنها لا تستطيع دائمًا استيعاب فحواها إلا أنها احتفظت بها بأمان في ملف بلاستيكي ذي مشبك من شريط مطاطي.

تسأل الأم حالما ينتهي الأب من الاتصال بقائمة الأسماء المختصرة. «هل نتصل بالشرطة؟ يا ربي! أين هي؟»

كان الأب هادئًا لبعض الوقت. ينظر إلى عفاف ومجيد، عيناه غائمتان كأنه يدير شيئًا في رأسه. رائحة يخنة الفول عالقة في الجو.

«ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟» يرفع سماعة الهاتف عن حاملها، ويجري الاتصال.

* * *

بعد أربع وعشرين ساعة، وصل ضابطا شرطة، رجل وامرأة، ببشرة بيضاء، إلى الشقة، ترددت كلمة واحدة: هروب. قال لهم ضابط الشرطة: «في معظم الحالات المشابهة، يختفي المراهقون

بضعة أيام عندما يكونون غاضبين من أهلهم». ينتظر الشرطيان والدي عفاف لتقديم أي تفاصيل عن الخلاف الذي تسبب في هروب ندى.

قالت الأم: «ندى سعيدة» والدموع تنهمر على وجهها. يقودها الأب إلى كرسي المطبخ.

عفاف غير متأكدة من صحة ذلك. تتصور ندى وصديقاتها البيض في غرفة نومهن- يظل مشغل الأسطوانات يدور في حلقة لا نهائية، تنبعث منه أغنية «صُنِع في الظل» لفرقة رولينج ستونز. كانت ندى تطرد عفاف وتهدد بضربها إذا استمرت في طرق الباب. كم مرة أمسكت بندى وهي توجّه نظراتها إلى الفتيات الأخريات عندما تقاطعهن الأم لتسألهن إنْ كن سيمكثن لتناول العشاء، قِدر من المقلوبة تنبعث منه الرائحة اللاذعة للقرنبيط والباذنجان المقلي؟ كم مرة لاحظت تورد خدي أختها من الحرج عندما تفتح الأم الباب في ثوب النوم ومنتعلة خفَّ المنزل الرث في منتصف ظهيرة يوم سبتٍ، لإحدى زميلات ندى، أتت للعمل معها على مشروع مدرسي؟

لم يسمح والداها لأختها ندى بالمبيت في منزل إحدى صديقاتها، رغم أن ندى كانت تتوسل إلى الأم في كل مرة تتلقى فيها دعوة بذلك.

«عيب! فتاة صغيرة لا تنام أبدًا خارج منزل والدها! عار!» اتقدت النيران في عيني الأم الخضراوين المحدقتين إلى ندى. كانت هذه المناسبات الوحيدة التي استاءت فيها الأم من بكريتها.

حدثت مواجهة في المطبخ ذات مرة بشأن رحلة تخييم. لندى

والأم الطول نفسه، لكنهما متناقضتان في الجوانب الأخرى كلها. شعر الأم الناعم يمكن جمعه في ضفيرة مسترسلة أسفل ظهرها، فيما المشابك بالكاد تستطيع احتواء تموجات شعر ندى الكثيفة والجامحة. بشرة الأم أشبه بكاسترد شاحب. بشرة ندى زيتونية اللون - مثل لون بشرة عفاف. لكن هذا لم يشغل بال الأم. كانت ندى عالمها.

بعد انتهاء الشجار، أغلقت ندى باب غرفة نومهما، ما أذهل عفاف، التي استلقت على الأرض تقرأ رواية بينبول Pinballs[1] لبيتسي بيرس، كتابًا استعارته من المكتبة. كانت ندى من رافقتها إلى المكتبة للحصول على بطاقة عضوية، وهي من أوضحت لها أيضًا مكان طباعة اسمها على البطاقة، وأرشدتها إلى أرفف الكتب الخيالية ورشحت لها كتبًا أحبتها عفاف من فورها قبل أن تقرأها حتى.

ألقت أختها بنفسها فوق سريرها. «لا أستطيع تحمل الوضع هنا! أنا أكرهها! أكره كليهما!»

لم تتكلم عفاف، في حين تغلي شقيقتها غضبًا، خوفًا من أن تنقض عليها ندى.

سألتها ندى: «ألا تكرهين العيش هنا؟ نحن أمريكيون لكنهما لا يريدوننا أن نتصرف على هذا النحو».

---

(1) بينبول: رواية لليافعين من إصدار عام 1976 للكاتب بيتسي بيرس عن ثلاثة أطفال بالتبني، كارلي وهارفي وتوماس ج. استقبلتهم عائلة ماسون في بيتهما، وهما زوجان اهتما برعاية كثير من الأطفال بالتبني الآخرين، ولديهما بعض المشكلات الشخصية أيضًا. يقارن كارلي الأطفال بلعبة البينبول إذ تتحكم في كل منهما قوى خارجية وكلاهما تحت رحمة القدر. (المترجم).

فكرت عفاف بصمت في ذلك. لم تشعر قط أنها تنتمي إلى هنا بنفس الطريقة التي تتلاءم بها جولي مكنولتي وأمبر ريفز مع العالم مثل قطع بَزِّل مثالية. علاوة على الأم، التي بدا أنها تحب ندى أكثر منها. تحشر عفاف نفسها داخل وخارج المساحات المتاحة لها، في محاولة لعدم إثارة ضجة حولها في الشقة وفي المدرسة. لكن ندى جريئة وشجاعة. مختلفة جدًّا عنها. مختلفة جدًّا عن أمهما.

بينما يستجوب الضابطان والديها، فكرت عفاف: *ربما يدفع مثل هذا العبء أي طفل إلى الهرب. ربما تحملت ندى ما يكفي من المرات التي استلزمت منها أن تسأل الغرباء عن الاتجاهات في الحافلات لأن والدتها لم تستطع استدعاء الكلمات المناسبة أو استحضار الشجاعة اللازمة.*

قال الأب للضابطين: «أرجوكما، ندى فتاة صالحة. لن تهرب قطعًا».

«هل اختفت متعلقاتها أو أي من حاجياتها الشخصية؟» جسد الضابطة العريض يتشنج في مقابل زيها، زي مصمم خصيصًى للرجال. شعرها الأشقر المائل إلى الرمادي معقوص على هيئة كعكة عند قاعدة قبعتها. صوت طقطقة ثابتة ينبعث من خلال جهازها اللاسلكي.

تحققت عفاف من ذلك بالفعل. معظم ملابس ندى لا تزال في الخزانة الخشبية التي أحضرها الأب إلى المنزل من «جيش

الإنقاذ»[1]- خُصّص درج واحد لعفاف مقابل درجين لندى. الدرج السفلي مكسور، وفيه وجدت عفاف يوميات أختها. كانت ندى تكتبها كل ليلة. كانت تطرد عفاف من غرفتهما قبل أن تُخرج اليوميات، ثم تخبئها لاحقًا. بناء على حدسٍ، حركَت عفاف بعناية الدرج غير المستوي لتفتحه. عثرت على يوميات ندى ملفوفة في منديل قماشي أحمر. لكنها لا تخبر أحدًا أنها عثرت عليها. دستها تحت مرتبتها في الوقت الراهن.

يسأل الضابط: «هل لابنتك عشيق؟» الضابط أطول من الأب بمقدار رأس، مع سوالف طويلة. يمضغ علكة ويفرقعها بين الجمل. «حبيب قد نتحدث معه؟»

«عشيق؟ يبدو الأب مرتبكًا. «ليس لندى عشيق».

«ربما شخص لا تعرفه يا سيدي». تدوّن الضابطة شيئًا في دفتر ملاحظاتها. تقول لشريكها: «قد تساعد صديقاتها في هذه النقطة».

أومأ الضابط. فرقع علكته. «أذلك مخالف لدينكم يا سيدي؟»

«حسنًا، إنه...» يتلعثم الأب.

تنكمش عفاف. إحساس والديها بالمذلة وخوفهما يقلّصان الشقة. يحوم ضابطا الشرطة حولهما، ويتبادلان الابتسامات المستهجنة. يتكوم مجيد بجانبها في مدخل غرفة نوم والديهما.

تقول الضابطة: «سنتحدث مع صديقاتها».

ترى عفاف شيئًا ينطفئ في الأب. يهز رأسه للضابطين.

---

(1) جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء. (المترجم).

لا يوجد شيء آخر يمكن قوله. هذا يُرعب عفاف. الأب، الشخص القوي الذي لا يرضخ للهستيريين مثل الأم. نظرة اليأس على وجهه تستثير معدة عفاف.

عندما ترى الأم ضابطي الشرطة يغلقان مفكرتيهما، تبدأ النحيب. «لا.. لا! عليكما إعادتها! لو سمحتما! إنها فتاتي الصغيرة! ندى ابنتي!»

يجرها الأب بعيدًا ويجلسها بالقوة على كرسي المطبخ. يسير خلف الضابطين اللذين يخرجان بالفعل من الباب الخلفي.

تتبعهم عفاف، وتتوقف في أعلى الدرج. تقف السيدة بلاكلي، مالكة المنزل، في منتصف الطريق داخل بابها الشبكي الذي تبقيه مفتوحًا بيدها فيما تتحدث إلى الشرطة.

تسمع عفاف المرأة العجوز تقول: «لا أريد أي مشكلات».

أكد لها الضابط: «لن يحدث شيء من هذا القبيل، يا سيدتي».

3

بعد مضي ثلاثة أيام، لا يمتلكون أي أدلة بعد. استجوبوا شابًا يدّعي أنه عشيقها السابق، لكن برّؤوه.

قال الضابط للأب: «هو طفل مأمون الجانب. لن يؤذي حتى ذبابة».

يظل أبوها صامتًا للحظة، ثم يترجم للأم التي راحت تقذف رأسها للأمام والخلف، وتنفي هذه المعلومة قبل أن ينتهي الأب من الحديث. تتحول ابنتهما تدريجيًا إلى إنسانة غريبة، مثل مشكال يتحول إلى صورة جديدة، نفس الألوان تأخذ شكلًا مختلفًا. فقد والدا عفاف شخصًا بدا أنهما لم يعرفاه من قبل.

أكد لهم ضابط الشرطة: «سنكون على اتصال بكما فور ورود أي أخبار».

تلك الليلة، تُخرِج عفاف يوميات ندى، وتفتحها لأول مرة. مطر خفيف ينهمر على النافذة. مع اقتراب أكتوبر، بدأت الأوراق على أشجار القيقب المحاذية للبناية تتحول إلى اللون الأحمر الناري.

غلاف اليوميات مليء بملصقات قوس قزح وصور مقصوصة لفرقة آبا ABBA الموسيقية. الصفحة الداخلية مكتوب عليها: *خاص! لعيني ندى فقط!*

تفتح عفاف اليوميات على أول يومية مؤرخة العام الماضي:

مذكراتي العزيزة،

7 سبتمبر 1975

تقودني إلى الجنون. تريليون سؤال! إلى أين تذهبين؟ مع من كنتِ؟ فضولية جدًا. لا أستطيع تحمل ذلك بعد الآن.

على أي حال، أعطاني ج. قلادة بديعة اليوم، مثل قلادة أجنيثا فلتسكوغ *Agnetha Fältskog* من فرقة آبا.

أعجبتني ❤!!!

هو شديد اللطف معي. قال لي إنني جميلة رغم أن الفتيات في المدرسة أجمل مني بمئة مرة. لا أشعر بالغُربة أو الاختلاف من حوله. لا يضايقني مثل المقرفين الآخرين الذين يتسكع معهم (أصدقاؤه = زائفون). بدأت أعجب به.

عليَّ الذهاب! تناديني مرة أخرى.

المخلصة

ندى

تقلب عفاف الصفحات وصولًا إلى يومية أخرى:

21 نوفمبر 1975

يومياتي العزيزة،

أكره حياتي. أكره ج. هجرني من أجل ستيفاني برايتون. كذب عليَّ.

كل شيء يتعلق بي خاطئ، وصولًا إلى اسمي الغبي. «لا شيء هنا! لا شيء هنا!». يضايقني الأولاد.

قائمة بكل ما أكرهه:

1. شعري الغبي.
2. بشرتي المقززة.
3. أنفي الضخم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أتمنى لو لم أكن قد وُلِدت.

أريد الصراخ في وجهها حتى تتركني وشأني. لا تفهم أي شيء. كل ما تفعله هو-

تنتزع الأم اليوميات من بين يدي عفاف. لم تسمع عفاف والدتها تدخل غرفتها. تظل يدا عفاف مفتوحتين، معلقتين في الهواء بضع ثوانٍ كأنها تنتظر سقوط شيء بداخلهما. تطويهما في حِجرها، وتبتلع خوفها.

تسأل الأم: «ما هذا؟» تقلب الصفحات، رغم أنها لا تستطيع قراءة خط ابنتها. «هل تخص ندى؟»

أومأت عفاف برأسها.

«من أين حصلتِ عليها يا عفاف؟»

تلتزم الصمت، وخفقان قلبها يتردد في أذنيها.

«أين؟» تجبرها الأم على النهوض عن الأرض. عيناها بحر أخضر هائج.

تجفل عفاف من جراء دفقة ألم حادة تسري في كتفها. «في الدرج» تقول بتذمر. «وجدتها للتو».

«محمود! تعال! تعال!» تنادي الأم الأب.

تنسى عفاف على الفور وجع ذراعها، قلقة من أن يُصاب الأب بخيبة أمل عندما يكتشف أنها كانت تخفي يوميات ندى.

يظهر الأب عند المدخل، وحاجباه مقطبان. «خير.. خير! ماذا حدث؟»

تريه الأم اليوميات. «تخص ندى».

يمد الأب يده ببطء نحو اليوميات كأنه نص قديم مشؤوم ينذر بالهلاك.

«ما المكتوب فيها؟» تسأل الأم، وهي تجلس بجانب الأب، ممسكة بذراعه.

يهز رأسه. «عفاف، اقرئي لنا». يمدّ الأب المذكرات إليها. يجلس هو والأم على سرير ندى.

عندما كانت ندى خارج المنزل مع صديقاتها، طلبت الأم دائمًا من عفاف قراءة التعليمات الخاصة بجهاز جديد أو إشعار متأخر وصل من شركة الكهرباء. شعرت عفاف بالتفوق، لامتلاكها شيئًا لم ترثه، شيئًا لم تكن والدتها مسؤولة عنه. لكن قراءة يوميات أختها بصوت عالٍ لوالديها أمر مروع، كما لو أن عفاف تقرأ مجلة قذرة، مثل تلك التي أحضرها بوبي جاميسون إلى المدرسة ذات يوم وخبأها في منضدة دراسته. وشى أحدهم به، ولف المعلم المجلة برباط مطاطي وأرسل بوبي إلى مكتب الناظر معها.

تنظر عفاف من فوق اليوميات إلى والديها. يتراءيان لها متعبين كأنهما يكافحان أنفلونزا، قوتهما تتبخر. لاحظت عفاف وجود خط عميق في جبين الأب لم يكن موجودًا من قبل. التوى فم الأم بطريقة تبدو أزلية لعفاف.

يأمر الأب: «يلا (هيا)!»

عفاف تتحشرج في أثناء قراءة كل يومية، ووجهها يتورد كأن كلمات أختها كلماتها هي. يتدفق شعور ندى بالاغتراب وكراهيتها لذاتها من بين الصفحات، كل جملة تخرج بصعوبة من شفاه عفاف مثل سيناريو كانت تلقيه، دور لم تبلغ من العمر ما يكفي

لأدائه. آخر يومية مؤرخة بتاريخ سابق من ذلك الصيف: 22 يونيو 1976. عيد ميلاد ندى السابع عشر. لكن أختها تركت باقي الصفحة فارغة.

«من تقصد بـ «هي»؟» تستدير الأم إلى الأب. «هل تتحدث عني؟» تتهمر عينا والدتها بالدموع، وترتعش شفتاها.

عندما عثرت عفاف على يوميات أختها لأول مرة، تشرَّبت بغضب ندى تجاه والدتها. ولكن الآن، وبعد رؤية الإحساس العميق بالخيانة يغمر وجه الأم، تشعر عفاف بأنها جوفاء من الداخل. كلمات ندى مثل الخناجر الصغيرة تطعن قلب أمهم.

***

مرت عشرة أيام أخرى، وما رجعت ندى إلى المنزل. عفاف تملأ المربع في تقويمها بقلم ماركر برائحة الفراولة حصلت عليه في المدرسة عن طريق مبادلته بإحدى قصاصات الملصقات المنفوشة. تشم رائحة سن القلم قبل إغلاق الغطاء.

في ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم الخميس - يوم الغسيل- تسير عفاف ومجيد وراء أمهما على الرصيف وهي تدفع سلة سلكية ملأى بملابسهم القذرة على بعد خمسة شوارع من ضاحية كيدزي. جرَّة زاخرة بالعملات المعدنية تخشخش فوق حمولة الثياب. في مغسلة صابون & رغاوي Soap N 'Suds، تنهار والدتها عندما تخرج بنطلون جينز أزرق يخص ندى، وقد اهترأ عند الأرداف. تطلب عفاف بسرعة من مجيد مساعدتها في فرز الملابس الملونة من البيضاء كما ترى والدتها تفعل ذلك كل أسبوع، ويواصلان الغسيل في حين تريح الأم رأسها على الطاولة القابلة

للطي. تمسك عفاف جرة العملات المعدنية التي تحتفظ بها الأم في المنزل أسفل حوض المطبخ وتسمح لمجيد بإدخال العملات في الماكينة. الأم تبكي، تصدر عنها تأوهات منخفضة مكتومة بذراعها المطوية. يتركها الزبائن الآخرون بمفردها، وأعينهم مثبتة على صفحات كلمات متقاطعة، أو يحدقون مباشرة إلى الأمام في المجففات الآلية حيث تتقلب أكوام الملابس وتدور داخلها.

تسبب اتصال الأب بناظرة مدرسة نايتنجيل الابتدائية في كثير من الإحراج لعفاف. السيدة بلمونت، معلمتها، توليها مزيدًا من الاهتمام الآن- أكثر من مجرد منحها وقتًا إضافيًّا للقراءة مع أن عفاف لا تحتاج إلى ذلك. تتوق عفاف إلى أن تكون كردينالًا من الكرادلة؛ مجموعة قراءة من الدرجة الأولى. يتجمع الطلاب الكرادلة بالقرب من النوافذ المزينة بالفراشات المقصوصة من ورق البناء، ويقرؤون بصمت من كتب مثل جزيرة الكنز Treasure Island وصيف الإوز The Summer of the Swans، كتب يمكن لعفاف أن تقرأها بسهولة إنْ أتيحت لها الفرصة. عندما لا يراقبها أحد، تذهب إلى رف كتب قائم بذاته مقابل الجدار الخلفي لحجرة الفصل، وتطلع على كومة من الكتب مخصصة للكرادلة - توجد ملصقات حمراء منقَّطة على ظهور هاتيك الكتب - وتمرر أصابعها فوق ظهورها الصلبة. كانت عفاف لتسعد أيضًا لو كانت عضوة في مجموعة «بلو جاي»، لكن السيدة بلمونت تُبقيها في مجموعة «البوم»، وهي مجموعة القراءة الأقل درجة. لا يوجد سوى ثلاثة طلاب في هذه المجموعة؛ صبي أبيض بنظارات سميكة ويعاني لعثمة في الكلام، والطفل العربي الآخر الوحيد

في فصلها، وسام الذي تشك عفاف أيضًا في أنه يمكن أن يكون كردينالا إنّ منحته معلمتهم فرصة.

توقِف السيدة بلمونت عفاف فيما كان الجميع يخرجون من باب حجرة الفصل في نهاية اليوم الدراسي، وتُخبرها ألا تقلق بشأن *الوضع في المنزل*. عفاف منزعجة من الاهتمام المفاجئ الذي تُظهره معلمتها لها. الأطفال الآخرون ينظرون إليها، أفواههم فاغرة بفضول. ترفض النطق بكلمة واحدة عن اختفاء ندى.

توقفها مالكة المنزل كل يوم ترجع فيه من المدرسة. يتفقد الأب أحوال السيدة بلاكلي كل مساء، وأحيانًا يجلب لها الفاكهة الطازجة أو جالونًا من الحليب عندما ترسله الأم لشراء البقالة.

«أي أخبار يا عزيزتي؟» صوت المرأة العجوز أجش، مثل أظافر تخدش ورق صنفرة. تعتمر السيدة بلاكلي شعرًا مستعارًا يشبه الخوذة على رأسها الصغير. تمسك يدها العظمية بمقبض بابها الشبكي من الداخل؛ لم تفتحه قط، ولم تدع عفاف للدخول أبدًا. كثيرًا ما تتساءل عفاف كيف تبدو شقة المرأة العجوز من الداخل. من المنحدر الخلفي، يمكن لعفاف أن ترى مطبخًا مضاء جيدًا وردهة ضيقة تماثل الردهة في شقتهم.

تردّ عفاف على السيدة بلاكلي بهز رأسها، وإحدى قدميها تتدلى من بئر السلم وهي تتأهب للركض حتى شقتهم.

قالت لها السيدة بلاكلي: «أنقلي تحياتي إلى والدتك». لانت العجوز في تعاملها مع عفاف ومجيد بعد اختفاء ندى، ولم تعد تؤنبهما على صعود السلم مهرولين، أو صفق الباب الخلفي بقوة.

* * *

تأتـي الخالـة نسـرين للمكوث معهـم. الخالـة نسـرين متزوجـة حديثًـا، وليسـت بجمـال والـدة عفـاف، رغـم أنهـا لطيفـة. شـعرها المصبوغ بالأسـود مفـروق عنـد الجبهـة، ومشـدود علـى شـكل ضفيـرة عاليـة. ترتـدي فسـتانًا مـن البوليسـتر ذي نقـوش زاهيـة، يتدلـى باسـتقامة فـوق ركبتيهـا. تخلـع فردتـي حذائهـا المصنـوع مـن الجلد المدبـوغ عنـد البـاب الخلفـي للشـقة، حيث تبقيـان هنـاك مـدة أسـبوع فـي حيـن تطهـو الخالـة نسـرين، وتنظـف المـكان. تتجـول الخالـة نسـرين داخـل الشـقة فـي نعلـي الأم كبيـري الحجـم جـدًا بالنسـبة إلـى قدميهـا الصغيرتيـن. ترتـدي زوجًـا مـن الجـوارب السـميكة لمـلء الفـراغ فيهمـا. فـي الليـل، تنـام الخالـة نسـرين فـي سـرير نـدى. فـي البدايـة تغضـب عفـاف لأن شـخصًا آخـر قـد احتـل مـكان أختهـا. لكـن فـي منتصـف الليـل، عندمـا يوقظهـا بـوق سـيارة أو تسـقط حاويـة قمامـة معدنيـة فـي الزقـاق، تنظـر عفـاف إلـى جسـد خالتهـا النائمـة، وتتنفـس الصعـداء لأن السـرير ليـس شـاغرًا.

حتـى مـع وجـود أختهـا الصغـرى، لا يمكـن مواسـاة الأم. تنـام حتـى سـاعة متأخـرة مـن الصبـاح، وتجلـس فـي السـرير فقـط لترتشـف حسـاء العـدس مـن صحـن متقشـر علـى صينيـة تضعـه الخالـة نسـرين فـي حجرهـا. حسـاء العـدس الأخضـر يشـبه القـيء، وترفـض عفـاف ومجيـد تناولـه عندمـا يعـودان إلـى المنـزل مـن المدرسـة. تسـمح لهمـا خالتهمـا بصـب طبقيـن مـن حبـوب الفاكهـة. تقـول الخالـة نسـرين بنبـرة ودودة: «لا تقلقـا يـا عزيـزيَّ». تـدس يدهـا فـي علبـة الحبـوب، وتغـرف حفنـة منهـا، وتمضـغ وهـي تراقبهمـا. «سـتعود نـدى إلـى المنـزل وسـترجع أمكمـا إلـى ذاتهـا القديمـة مـرة أخـرى». يومئـان

برأسيهما، وهما يشربان اللبن باستخدام ملعقتيهما، رقائق الأرز الملونة تتحول إلى سائل في صحنيهما. تريد عفاف أن تخبر الخالة نسرين بأنها لا تريد رجوع أمهما القديمة، وأنها مرعوبة من تلك المرأة، وربما تحوِّل عودة ندى الأم أخيرًا إلى إنسانة تبتسم لها ومجيد بتلقائية. أكد غياب ندى شكوك عفاف: *أمها امرأة تعيسة جدًا*. تفكر عفاف أنه من المستحيل أن الأمر كان على هذا النحو دائمًا. ألم تكن أمها مختلفة قطّ -سعيدة- أول مرة رآها أبوها فيها في حفل خطوبة؟ كان كل منهما صديقًا للمخطوبين. وفق القصة التي سمعتها عشرات المرات من الأب، تلقى دعوة للعزف على عوده ضمن الثلاثي الذي شكَّله حديثًا: عازف كمان اسمه هشام وعازف طبلة اسمه وليد. كانوا عزابًا سعداء، يؤدون الأغاني في الأعراس والتجمعات الصغيرة. حاول لفت أذن والدتها بعزفه الراقي لكنها كانت غافلة. لم يكن لدى الأم أي نية في الزواج ناهيك بالزواج من موسيقي.

قبل نهاية الأمسية ألقى كلمة قصيرة:

«أتمنى للزوجين أن يغدق كل منهما على الآخر بالحب، وأن يظل كل منهما صادقًا مع الآخر. ولبقيتنا، أتمنى أن نتشمس في عِز أخضر».

سعادة وافرة الخضرة.

التفت كل ضيف نحو الأم في فستانها المخملي الأخضر، وخداها متوردين بإطراء يشوبه الإحراج. شرع الأب في غناء نجوم *الليل* لفريد الأطرش، خاتمًا عرضه المُبطَّن بالزواج.

«*نجوم الليل، دموع تحكي على حبي وآمالي...*» يدندن الأب بكلمات الأغنية فيما يروي القصة لعفاف، ويدغدغ بطنها.

ضحكت صديقات والدتها ولكزنها في ذراعها، متمنيات لو كنَّ موضوعَ مثل هذا الغناء الغزلي الحماسي. رغم تصميمها على عدم الزواج، ابتسمت الأم، وأومأت بموافقتها على الأب عبر الغرفة المزدحمة.

مما جمعته عفاف معًا من بقية قصص الأب -لم تشارك الأم أي تفاصيل معهم قط- كان والداها سعيدين في البداية. استأجر الأب شقة صغيرة في رام الله. تحاول عفاف جاهدة تصوير هذا المنزل الأول في مخيلتها، في مكان بعيد أشبه بتلك الأماكن التي قرأت عنها في الكتب، مثل كتاب نيفرلاند Neverland. أسفل شقتهما في رام الله، كان يوجد مخبز يبيع أفضل أنواع الخبز في المدينة.

يخبر الأب عفاف: «كل صباح كنتُ أُحضِر الخبز لأمك، طازجًا وساخنًا جدًّا، وكان عليّ أن أحمله بمنشفة!»

وافقت الأم على خطته حينذاك: سيواصل الأب سعيه وراء موسيقاه مدة عامين آخرين قبل أن يكوّنا أسرة. لم يحتاجا إلى الكثير كونهما ثنائيًّا حديث الزواج؛ يمكنهما العيش على أجر فقرات الأب الغنائية بعض الوقت. لكن إنجاب الأطفال كان مسألة أخرى.

قالت الخالة نسرين لعفاف بصوت خافت: «بيني وبينك، لطالما ظننت أن أمكِ لن تتزوج أبدًا. لاحقها كل فتى في أنحاء القرية، ولم تُظهر قط أي اهتمام». تمد أصابع يدها، وتمشط غرة عفاف الطويلة وتبعدها عن جبهتها. تعيدها عفاف كما كانت مرة أخرى

-تريد أن تشبه ديفي جونز من فرقة المونكيز Monkees. «لكن والدك نجح في إقناعها».

إذًا لماذا هي حزينة جدًا؟ تريد عفاف أن تسأل خالتها.

بينما يترقبون أخبارًا عن ندى، يعود الأب إلى المنزل من العمل في الساعة المحددة كل ليلة. توقف عن تمرين الموسيقى مع فرقته. يرفع مجيد ويؤرجحه فوق رأسه، ويهبط به مرة أخرى على سرير الأريكة، حيث يشاهدون التلفاز، درجة الصوت منخفضة. يقبّل رأس عفاف، وتبرم هي أطراف شاربه الكثّ الذي يدغدغ خدها. يجلسون مع الخالة نسرين في المطبخ حتى يحين وقت النوم، يحتسون الشاي مع أوراق النعناع الطافية على أسطح فناجينهم الزجاجية. يتحدثون بأصوات خفيضة ووقورة كما لو أن شخصًا يحتضر بالقرب منهم.

في بعض الأمسيات، يندس الأب بينها وبين مجيد، ويعزف على عوده، ويغني بهدوء باللغة العربية:

لو فقط عندما أغمض عيني وأفتحهما،

سأجدكم عائدين..

عائدين يا أحبائي.

مع أن عفاف لا تفهم كل كلمة، فإن هذه الأغنية أصبحت مألوفة، مثل الوجبات التي أعدتها لهم الأم طوال حياتها.

4

ينقضي اثنان وعشرون يومًا. عادت الخالة نسرين إلى زوجها مع وعد بالرجوع خلال أيام قليلة. جاء العم يحيى حتى باب الشقة ليأخذها. لم يدخل الشقة، وهو يعتذر للأب بشكل مُربِك.

يمر زياد وأمجد عضوا الفرقة الموسيقية بهم مساءً عندما يكون الأب في المنزل، حاملين أطباقًا بلاستيكية عامرة بالمحشي والكفتة التي أعدتها زوجتاهما. كما أن قليلًا من النساء العربيات في أرجاء الحي يأتين أيضًا لمواساة الأم، حيث يحضرن معهن ترمسًا ماركة سانكا كأنما الأم أصبحت غير قادرة حتى على تخمير القهوة. يسحبن من السلة السلكية فوق الحوض الفناجين التي تغسلها عفاف عندما ترجع من المدرسة، وبين رشفات القهوة تهز النساء رؤوسهن ويلعقن أسنانهن. *ندعو الله أن يردها إليكِ بسلام يا أم مجيد.*

تأتي سميرة صديقة عفاف برفقة والدتها للزيارة، ويلعبان في الخارج فيما تغسل والدة سميرة الأواني والأكواب، وتجلس الأم إلى مائدة المطبخ تبكي حزنها.

تسأل سميرة عفاف: «أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟». شعر صديقتها الداكن مقصوص قصَّة مستقيمة قصيرة حتى مستوى الفك. في الصيف الماضي، اصطدمت دراجتها بسياج صدئ، ومزقت حلقة سلسلة مكسورة طرف إصبع خنصرها. لا تسأم عفاف من تأمله، وتتوسل إلى صديقتها حتى تدعها تلمس النسيج

الندبي الناعم. يبدو كأن أحدهم عضَّه. منذ ذلك الحين، لم يعد مسموحًا لسميرة بركوب الدراجة.

سمعت عفاف والدة سميرة تخبر أمها عن ذلك: «شايفه، شايفه؟! (أترين؟!) ماذا يحدث عندما تعطين الفتاة كثيرًا من الحرية في هذا البلد؟ تفقد إصبعها».

لحسن الحظ، لم يغيّر ذلك رأي الأم بشأن ركوب عفاف دراجتها.

تدير عفاف مقابض لوح الرسم المغناطيسي الخاص بصديقتها، وتهز كتفيها. «لا أعرف أين ذهبت». يتناوبان الرسم على لوح الرسم، تتجمع النقاط السوداء مثل النمل أسفل شاشة لوح الرسم. تسحب عفاف رافعة الممحاة، فيختفي قوس قزح والزهور التي رسمتها سميرة. ترسم قطة بشوارب طويلة. لا تزال عفاف تتمنى بشدة اقتناء حيوان أليف، لكن الأم ترفض وجود أي مخلوق ذي أربع أرجل في منزلها. يمتلكون حوض أسماك، ولكن سرعان ما تلاشت متعته. تريد عفاف حيوانًا يمكنها مسكه ومعانقته. إطعام الأسماك اللا مبالية يشبه أي عمل روتيني آخر من المتوقع أن تقوم به في أرجاء الشقة.

تخمن سميرة وهي تريح ذقنها على كتف عفاف فيما ترسم: «أعتقد أن الشرطة كانت لتعثر عليها لو كانت مختبئة».

«لماذا تختبئ يا غبية؟!» لا تقصد عفاف أن تكون قاسية، لكنها تريد التملص من أي حديث عن ندى، على الأقل لبعض الوقت. تدير أحد مقابض لوح الرسم، في محاولة لربط قوسين معًا حتى تُشكِّل قلبًا، لكنه في النهاية يبدو كأنه مثلث مقلوب غير متساوٍ.

أتـى محقـق شـاب يعمـل فـي القضيـة إلـى الشـقة فـي إحـدى الليالـي. يقـدم الأب للمحقـق كرسـيًا فـي المطبـخ. عفـاف ومجيـد يراقبـان مـن أمـام بـاب غرفـة نـوم والديهمـا. المحقـق صغيـر جـدًا فـي العمـر -خـداه قرمزيـان وعينـاه زرقـاوان. شـعره الأشـقر الكثيـف مفـروق علـى الجانـب، مـا يعطيـه مظهـر تلميـذ وليـس محقـق فـي جرائـم قتـل.

«المحقـق هارولـد جونـز». يُظهـر لوالدهـا شـارته، ويدسـها مـرة أخـرى فـي جيـب سـترته القطنيـة. «اتصـل أحدهـم بشـأن رجـل مشـتبه فيـه بالقـرب مـن حـي يونيـون سـتوكيارد القديـم». تنتقـل عينـاه بيـن والديهـا. «حققنـا، و...». يسـتدير نحـو عفـاف ومجيـد.

قال الأب بهدوء: «يا أولاد، اذهبا وشاهدا التلفاز».

ينسـحبان إلـى الغرفـة الأماميـة، ويجلسـان علـى سـرير الأريكـة. عفـاف تسـتمع باهتمـام وتلتقـط أجـزاء مـن جمـل المحقـق:

«حققنا و... جثة.. هذه الصور... أيمكنكما التعرف إنْ كانت..»

صوت كرسي يُدفع إلى الخلف. أنين الأم يصل إليهما منخفضًا.

«هـل أنـت متأكـد مـن أنهـا ليسـت هـي، يـا سـيد رحمـن... هـل لديهـا أي علامـات مميـزة؟»

يعلـو صـوت الأنيـن. ثـم جرجـرة نعلٍ علـى الأرضيـة. بـاب الحمـام ينغلـق. يصبـح قـيء الأم الصـوت الوحيـد فـي الشـقة. تركـض عفـاف إلـى المطبـخ.

يقـف المحقـق ويلملـم الصـور. قبـل أن يغلـق ملفـه، تلمـح عفـاف صـورة ذراع مكدومـة بشـدة، وأظافـر ملطخـة بالطيـن. قـال لـلأب: «أنـا آسـف علـى كل هـذا. يجـب أن تشـعر بالارتيـاح مـن حقيقـة أنهـا

ما زالت على قيد الحياة في الخارج هناك. سنبذل قصارى جهدنا للعثور عليها».

تبين أن الفتاة الميتة في الصور «بيانكا لوبيز» البالغة من العمر ستة عشر عامًا، التي اختفت قبل يوم واحد من اختفاء ندى.

تعرف عفاف أن الأمر يكاد يكون أسوأ بالنسبة إلى والديها -حقيقة أن الجثة ليست جثة ندى، تلك الجثة المضروبة والمشوَّهة- لأنه يعني مزيدًا من الانتظار، ومزيدًا من عدم المعرفة.

الهالوين بارد وممطر. توافق الخالة نسرين على أخذ الأطفال في نزهة «خدعة أم حلوى» مدة ساعة. لفَّت نفسها بمعطف مطر أبيض لامع، ممسكة طرفي ياقته بإحدى يديها لتبقيها مغلقة، وباليد الأخرى تحمل مظلة. تنتظر على الرصيف في كل مرة يركض فيها عفاف ومجيد إلى أحد المنازل، ويقرعان جرس الباب. يجوبون منطقة دائرية نصف قطرها ثلاثة شوارع من المنازل ذات الطابق الواحد، أكياسهم البلاستيكية منتفخة بحلوى Bottle Caps، وكرات الفشار محلية الصنع، وعلكة بازوكا.

عفاف سعيدة بالتنقل في الحي متنكرة. قناع وجهها، قناع المرأة المعجزة Wonder Woman، يحميها من الأسئلة حول ندى.

في الشهر الماضي، لم تتمكن من ركوب دراجتها دون أن يُوقفها أحدهم:

ألم تعثر الشرطة على خيوط جديدة في القضية؟

أي أخبار عن أختكِ؟

كيف حال أهلك، يا صغيرتي؟

أصبحت *أخت الفتاة التي اختفت*. تكره نظرات الجيران وهزات رؤوسهم. في بعض الأحيان يوقفونها مع مجيد وهما يقودان دراجتيهما، ويلوحون إليهما بالمذراة من مكانهم في أفنية بيوتهم الأمامية في أثناء قيامهم بأعمال البستنة.

كفَّت سميرة عن القدوم لزيارتها بالوتيرة نفسها كأنَّ اختفاء ندى مُعدٍ للأطفال العرب الآخرين في الحي. تلوم عفاف أمها التي بدورها تلوم الأب: «أنت تركتها تخرج مع هؤلاء الأمريكان، والله أعلم بالبقية». عفاف تتخيل ما تتهامس به والدة سميرة مع الأمهات العربيات الأخريات: «*شايفه، شايفه*، أترين ماذا يحدث عندما تمنحين ابنتكِ كثيرًا من الحرية. هذه البلد سوف يختطفها».

أصبحت الفتيات البيضاوات البشرة مفتونات بعفاف. سابقًا، كن يتجاهلنها أو يسخرن منها. الآن يجتمعن حولها في العطلة، ويتوسلن إليها أن تخبرهن عن ندى. كانت هذه المناسبة الوحيدة التي لا تمانع في التحدث عن أختها – حتى تتودد إلى جولي مكنولتي وأمبر ريفز. تبالغ في التفاصيل في كل مرة تعيد فيها سرد القصة وتنتهي بـ «بوف! اختفت». في كل رواية، لا تزال ندى على قيد الحياة – فقط ليست في أي مكان يمكن لبقيتهم رؤيتها فيه.

تسألها جولي مكنولتي: «هل تفتقدينها؟» تستمع أمبر ريفز إلى إجابة عفاف، شفتها السفلية ترتعش دون انقطاع.

تفتقد عفاف شقيقتها، لكن ليس بالطريقة التي يتوقعنها زميلاتها في الفصل منها. يشبه غياب ندى الزلزال الذي

ضرب منزلهم؛ لا شيء يبدو تالفًا مع أن كل شيء يبدو كأنه قد تزعزع قليلًا من مكانه الأصلي. تتشاجر الأم والأب بشكل متكرر -ضوضاء مألوفة مثل نقيق الطيور على أسلاك الهاتف خارج نافذة الشقة- لكن الصمت بينهما يشبه القبر. دموع مفاجئة تتساقط على خدي الأب غير الحليقتين عندما يحتضن عفاف ومجيد، ويتمنى لهما ليلة سعيدة. بعد المدرسة، تجد عفاف أمها واقفة في المطبخ، والماء يجري فوق طبق كانت تُمسك به، بلا وعي، منذ مدة طويلة.

على الرصيف، يمشيان أمام طفلين: بنت ترتدي زي بامبي وصبي طويل القامة يرتدي زيًّا يعود لـ«كوكب القرود». أبواهما يرتديان معطفي مطر ويدخنان السجائر، يومئان برأسيهما إلى الخالة نسرين. تقود إحدى الأمهات سيارتها ببطء بمحاذاة أطفالها، ماسحات زجاج سيارتها الأمامي تصرُّ في أثناء حركتها ذهابًا وإيابًا.

تتوقف عفاف أمام منزل السيد كليفرسون. مجيد متنكر في شخصية «بيج فوت»، حاشية سرواله البلاستيكي تحتك بالرصيف الأسمنتي. يهرول متقدمًا عليهما.

تنادي عفاف: «انتظر يا مَج!»

استدار وعاد إليها. «ما الخطب؟» صوته مكتوم خلف قناعه.

تتحسس عفاف حافة العشب الرطب بطرف حذائها الرياضي. «دعنا نتخطى هذا المنزل».

السيد كليفرسون عجوز لئيم. يجلس على شرفة منزله في الصيف عابسًا في وجه أطفال الحي الذين يمرون بالقرب من

منزله. يسميهم *الأشقياء الصغار الذين لا يأبه آباؤهم بهم*. ينحني لالتقاط علب الصودا وأغلفة الحلوى المتناثرة في فنائه.

قبل أن يتمكنا من الالتفاف، والتوجه إلى المنزل التالي، يفتح السيد كليفرسون بابه ويتقدم إلى الخارج، حاملًا وعاء من الحلوى تحت إبطه.

تقول الخالة نسرين: «يلا يا أولاد. لا تتركا المسكين ينتظر».

في الصيف الماضي، رش السيد كليفرسون عفاف بخرطوم المياه عندما مرت بمنزله. لم يكن يقصد أن يمزح معها. عندما نظرت من فوق كتفها، كان يلوح إليها بإصبعه الوسطى، وهي إشارة كادت تُلقي بها من فوق دراجتها، إشارة كان الأولاد الأكبر سنًّا في الحي يلوحون بها أحيانًا بتباهٍ تجاهها عندما تقود هي ومجيد دراجتيهما. كان من الصعب تخيل شخص بالغ يتصرف بهذه الطريقة. منذ ذلك الحين، تجنبت المرور بمنزله.

يلقي مجيد نظرة إلى عفاف. لا تتوافق الشقوق الموجودة في القناع بشكل صحيح مع عينيه ومنخاره.

قالت أخيرًا: «هيا بنا». اليوم هي المرأة المعجزة. لا شيء يمكن أن يخيفها. ومع ذلك، فهي تأمل أن لا يتعرف عليها الرجل العجوز.

يقول السيد كليفرسون: «حسنًا.. حسنًا. ألا تبدوان مثيري شغب». يرتدي بنطلونًا خفيفًا منقوشًا، وقميصًا حراريًّا بأكمام طويلة. لم تقترب عفاف منه إلى هذه الدرجة قط. يبدو أصغر سنًّا بكثير، كتفاه محدودبتان، وجلد رقبته مترهل مثل لغد ديك رومي.

تنظر عبر البهو، إلى داخل غرفة المعيشة خلفه. امرأة عجوز تجلس على كرسي متحرك. ينخفض رأسها جانبًا، وفمها مفتوح قليلًا. أصابعها ترتعش على مسندي ذراعي الكرسي. رغم انبهار عفاف ببيوت الأشخاص البيض، إلا أنه يوجد شيء مقلق بشأن هذا المنزل. لا تريد أي حلوى —تُبقي كيسها مغلقًا. تريد الابتعاد عن هذا المنزل بأسرع ما يمكن.

السيد كليفرسون يهز رأسه نحو الخالة نسرين. يقول موضحًا: «هذه ليست والدتكما». يتعرف عليهما بعد كل شيء.

قالت عفاف على عجل: «أمي مريضة».

«أراهن أنها كذلك». غرف بيده حفنة من الحلوى الملفوفة بالسلوفان، ووضعها في كيس مجيد. «ماذا عنكِ يا آنسة؟» عيناه بيضاوان كالحليب بسبب الكاتاراكت (إعتام عدستي العين).

تفتح عفاف كيسها على مضض، وتشاهد الحلوى وهي تتساقط داخله. «شكرًا لك».

يمسك الوعاء أمامه. «أي أخبار عن أختكِ؟»

تهز عفاف رأسها، ومعدتها تغوص في أحشائها. لم تكن النغمة نفسها التي يستخدمها الكبار الآخرون عندما يسألون عن ندى، النغمة التي تبدو كأنهم يهتمون حقًا. المرأة العجوز تسعل والسيد كليفرسون يلقي نظرة من فوق كتفه، قبل أن يركز عينيه عليها مرة أخرى. «أشك في أنها ستعود. تلك الفتاة رحلت إلى الأبد».

قبل أن ترد عفاف، أغلق السيد كليفرسون الباب، وعادا إلى الرصيف متخلفين عن الخالة نسرين.

أنفاس عفاف ساخنة تحت قناعها. لم تعد تشعر بالبرد يلفح مؤخرة رقبتها. تصارع الدموع، لكنها تسيل على خديها، وتتساقط على زيها البلاستيكي، وتختلط برذاذ المطر.

عندما يصلون إلى المنزل، تتوجه عفاف مباشرة إلى غرفتها، متحدية تقاليدهم المتمثلة في سكب غنيمتهما على مائدة المطبخ. تنزع قناعها، وتلقيه جانبًا.

مجيد يتبعها كظلها: «هل تريدين إحصاءها هنا؟»

تهز كتفيها، وتتجنب النظر إلى سرير ندى الفارغ. يقلب شقيقها كيسه رأسًا على عقب، في حين تراقب عفاف شلال الحلوى الساقط على السجادة. تشغل مشغل الأسطوانات، وتنتقل إلى قائمة أغاني فرقة آبا، وتستمع إلى أغنية ندى المفضلة، مضى وقت طويل So Long.

يفرز مجيد الشوكولاتة وحلوى النوجا من الحلوى الصلبة والعلكة. في المطبخ، تحضِّر الخالة نسرين إبريق شاي، وتخرج الوالدة من غرفة نومها. تخشى عفاف اليومَ الذي ستتركهم فيه الخالة نسرين إلى الأبد، وترجع إلى حياتها.

يسأل مجيد: «هل تريدين المبادلة؟»

تهز عفاف كتفيها مرة أخرى. لا تهتم إنْ أخذ شقيقها كل شيء. فسدت عطلتها المفضلة. هل هذا ما ستكون عليه الحال من الآن فصاعدًا، غياب ندى يلقي بظلاله على كل ما تستمتع به عفاف، على الأيام التي تتطلع إليها؟ تستلقي على السجادة، وتثني ساقيها فوق المرتبة. تنقر بأصابعها بالتناغم مع لحن أغنية «كنت في انتظارك».

يقضم مجيد لفافة حلوى توتسي. «هل رحلت ندى حقًا؟ كما قال السيد كليفرسون؟»

بينما لا تزال على ظهرها، تمد يدها لتلتقط علكة بازوكا من الكومة، وتفض قصاصة النكتة الملتصقة بها:

ما مقدار التراب في حفرة 6 أقدام X 6 أقدام؟

لا أدري...

لا تراب يا غبي! قلت إنها حفرة.

يسأل مجيد عفاف مرة أخرى: «هل رحلت ندى؟»

تقول له: «نعم»، وهي تكور الغلاف وتلقيه باتجاه السقف. «رحلت».

5

تمر أربعة وخمسون يومًا. سقطت الأوراق من أشجار القيقب التي تصطف على جانبي الشارع. لم يعد بإمكان عفاف ومجيد الخروج من دون معطف وقبعة. قريبًا ستحيط أضواء الكريسماس بنوافذ وأسطح منازل الجيران. مع أن أسرتها لا تحتفل بالكريسماس، إلا أنه الوقت المفضل لعفاف من العام. يأخذها الوالد ومجيد في نزهات طويلة حول تجمعات من المنازل المزينة بمشاهد ميلاد المسيح، ورجال ثلج ببطون مستديرة تتوهج بضوء أصفر دافئ.

تأتي الخالة نسرين للزيارة في نهاية كل أسبوع. تستأنف الأم الطهي، وعفاف ممتنة لذلك - والدتها طاهية أفضل بكثير من خالتها. ترجع من المدرسة كل يوم، وتستقبل رائحة لحم الضأن المشوي ويخنة الطماطم مع البهارات. يبدو الأمر كأن الحياة تعود إلى طبيعتها.

بدأ الأب الانعزال مرة أخرى. يقضي نصف وقته في التدريب مع فرقته الموسيقية، والنصف الآخر بصحبة امرأة أخرى. تسمع عفاف والدتها تتحدث عنها إلى الخالة نسرين.

«كم من الوقت سأتحمَّل أكثر مما تحمَّلت يا نسرين؟» الأم تنتحب لأختها الصغرى. «يا ربي! أي نوع من الحياة هذه؟»

يقطفان سيقان الملوخية على أوراق الجرائد المفرودة فوق مائدة المطبخ. عثرت خالتها على حزمة ملوخية طازجة في محل بقالة في ميلووكي. يوجد وعاء كبير بين الشقيقتين، تتراكم فيه تدريجيًا كومة صغيرة من الأوراق الخضراء.

تجلس عفاف على أرضية غرفة نومها، الباب موارب. كل ما يمكنها التقاطه من حديث أمها وخالتها أن المرأة الأخرى عربية أيضًا - إهانة بحد ذاتها لأمها وخالتها. تتساءل عفاف إنْ كان الأمر ليغدو مستساغًا أكثر لو سرقت امرأة بيضاء أباها من أمها.

في أحد أيام الأسبوع، تستجمع عفاف شجاعتها بعد تناول الغداء، وتسأل الخالة نسرين، «هل بابا مغرم بامرأة أخرى؟»

تقف عفاف فوق مقعد متدرج بجانب خالتها عند حوض المطبخ. تجفف الخالة نسرين الأطباق التي تسلمها بعناية لعفاف. كسرت عفاف طبق حلوى صغيرًا في المرة الأخيرة التي توسلت فيها إلى خالتها حتى تدعها تساعدها. تحلق طائرة محمولة من دون طيار، مزودة بشاشة، في غرفة نوم والديها. اشتراها الأب من زميلة في العمل، وقبلت ماما بوجودها دون أن تنبس بكلمة. تمكن من إصلاح هوائي الطائرة حتى صارت الشاشة خالية من التشويش، أخيرًا، بدأت صور الأشخاص التي تلتقطها كاميرا الطائرة بالظهور.

تتوقف الخالة نسرين عن غسل الأطباق وتنظر بجدية إلى عفاف. «ماذا سمعتِ؟»

عفاف تهز كتفيها وتحاول أن تبدو غير مكترثة.

تتراءى خالتها شاردة في أفكارها لحظة. «يجب ألا تكرري كلمة عن هذا لأي شخص».

تومئ عفاف برأسها بجدية وهي تدعك صحنًا حتى يجف. تتفهم أن إخبار طفل يشبه عدم إخبار أحد على الإطلاق.

تبدأ الخالة نسرين الحديث بصوت منخفض، وهي تلقي نظرة وراءها حتى تتأكد من باب حجرة الأم المغلق، «إنها في الواقع قصة حزينة عندما تنظرين إلى الأمر بحيادية ومن كل الجوانب. قُتِل زوجها -رحمة الله عليه- في حادث سيارة. هي شابة في الرابعة والعشرين فقط. كان نصيبًا على ما أظن. لربنا طرائق غامضة في جمع الناس معًا».

«هل يساعدها بابا على النسيان؟» تجفف عفاف الطبق بقوة.

تسلمها خالتها طبقًا آخر يقطر بالماء. «نعم. أعتقد أنه يحبها. لكن هذا ليس عدلًا لأمكِ. حتى لو كانت المرأة الأخرى حزينة».

«ماما حزينة حتى عندما يكون بابا في الجوار».

«الأمر معقد يا حبيبتي. ستفهمين الكبار أفضل عندما تصبحين بالغة».

ليس احتمالًا جذابًا لفتاة تبلغ من العمر عشر سنوات. شهور من مراقبة والديها وبؤسهما أوصلتها إلى قرار حاسم: لن تتزوج عفاف أبدًا. لا يزال عليها أن تكبر أولًا، لكنها ستعيش بمفردها في مزرعة مثل شخصية فيرن في شبكة شارلوت. بالطبع، لن تستطع تربية الخنازير -ذلك حرام- لكنها ستربي الدجاج والأبقار. ربما سمحت لمجيد بالانضمام إليها أيضًا.

* * *

عشية عيد الشكر يكون نصف يوم دراسي فقط. تركض هي ومجيد إلى المنزل، يقفزان فوق برك المطر، ويحرص شقيقها على عدم إتلاف الديك الرومي الملون الذي صنعه عن طريق خطوط رسمها على الورق بأقلام ألوان مرَّرها حول أصابع يده. الشكل

نفسه الذي صنعته عفاف في سنّه، واحد من عديد الإبداعات الطفولية التي قدمتها إلى الأم بعد ما بدا أنه ساعات من التلوين بعناية داخل الخطوط، أو لصق القطع المقصوصة بدقة على ورق مقوى بني. بالنسبة إلى مجيد، كانت هدية للوالدة، وصفة قد تكسر نوبة الكآبة - يمكن لعفاف أن ترى الأمل يعلو وجه شقيقها. خزانة ثياب أمهم مزينة بفن المعكرونة، فانوس جاك (يقطينة مضيئة) من الورق المعجن، وباقة زهور ملونة حسب الرقم. تتصور عفاف الأم تبتسم على الهدية، وتطلب من مجيد أن يشرح لها كيف صنعها، قبل أن تنسحب إلى عالمها الداخلي مجددًا. لكن، لبضع لحظات، ستُسحَب الستارة عن وجهها، وسيستطيع مجيد وعفاف رؤية شخص مألوف على نحو غامض.

حالما تفتح عفاف الباب الخلفي، تشعر بوجود خطأ ما. مائدة المطبخ ملأى بخضراوات نصف مقشرة ونصف مقطّعة، وأطباق العشاء مهشمة على الأرض.

يهتف مجيد: «ماما؟» يمسك بيده الديك الرومي، وعيناه جاحظتان وخائفتان.

داخل غرفة نوم والديها، ملابس الأب مبعثرة في كل مكان. حقيبة الأم مفتوحة، قليل من فساتينها مجعدة بالداخل. يبدو كأن أحدهم كان يحاول الهروب لكن خطته أُحبِطت بطريقة أو بأخرى. قلب عفاف ينبض بسرعة.

«يا أطفال؟»

كانت السيدة بلاكلي، مالكة المنزل. تُمسك عفاف بيد مجيد، وتقوده إلى المطبخ.

«مرحبًا!» تلوح السيدة العجوز بيد، ويدها الأخرى تتشبث بظهر كرسي. تلهث من صعود الدرج، ولا تعتمر شعرها المستعار. تتدلى خصلات شعرها الرمادية النحيلة من فروة رأسها. بطن عفاف يموج بالخوف. «والدتكما- إنها ليست على ما يرام».

تسأل عفاف: «أين هي؟» تشعر بكفها زلقة في مقابل كف أخيها، لكنها لن تتركه. مجيد يشهق مقاومًا تدفق دموعه.

«والدكما معها». السيدة بلاكلي تمسح أنفها بمنديل تسحبه من جيب سترتها.

«أين؟»

«سيتحدث معكما فور عودته». السيدة بلاكلي تمسك بيد مجيد. «احترس من هذا الزجاج المكسور. يا إلهي! ما هذه الفوضى!» تربت على خده. «تعالا إلى الطابق السفلي لتتناولا بعض الشوكولاتة الساخنة والمارشميلو. ألا تود ذلك يا صغيري؟»

ينظر مجيد إلى عفاف، غير متأكد إنْ كان عليه الانصياع وسط هذه الفوضى. أومأت عفاف برأسها. يمسح أنفه بكُم معطفه. يضع تصميم الديك الرومي على مائدة المطبخ، ويهز رأسه للسيدة بلاكلي.

ترفع تصميمه بيدين ملطختين بالبقع الكبدية. «كم هذا لطيف! هل صنعته لأمك؟ أنا متأكدة من أنها ستحبه يا عزيزي».

شقة السيدة بلاكلي مرتَّبة ومطلية بطلاء أزرق فاتح في كل مكان تنظر عفاف إليه. تلتقط رائحة غريبة -نفتالين. يوجد بيانو صغير في الغرفة الأمامية، وتعلو غطاءه المغلق صور مؤطرة. معظمها بالأبيض والأسود، مشاهد في مزرعة، وأمام كنيسة

بيضاء. كانت السيدة بلاكلي ذات يوم امرأة بهية.

تجلسهما إلى مائدة المطبخ مع كوبين من الكاكاو الساخن. يُسقِطان المارشميلو في كوبيهما. تشاهد عفاف سحابة منفوشة تدور في السائل البني.

في غرفة نومها، تتحدث السيدة بلاكلي عبر الهاتف بصوت تعتقد أنه هامس. عفاف تضع إصبعها على شفتيها لإيقاف ثرثرة مجيد القلِقة وتستمع إلى المرأة العجوز وهي تصف الدراما التي اندلعت في شقتها. سمعت السيدة بلاكلي صراخًا - ليس صراخ اعتداء، بل كان غضبًا صرفًا، كما تخبر المستمع عبر الهاتف. «مثل شبح قادم من الجحيم! ثم تحطمت الأطباق. اتصلت بما-مود[1] في المصنع الذي عاد فورًا إلى المنزل، الرجل المسكين. أخذها مباشرة إلى غرفة الطوارئ».

ثم يظهر مصطلح غير مألوف في محادثة السيدة بلاكلي أحادية الجانب: *انهيار عصبي*.

بعد ساعتين، يقرع الأب باب الشقة. تركض عفاف ومجيد للرد، والسيدة بلاكلي في إثرهما. يشكر الأب المرأة العجوز. قال لهما: «يلا (هيا) يا أولاد».

يسأل مجيد وهو يمسك بيد الأب: «متى ستعود ماما إلى المنزل؟ هل سنزورها؟»

في شقتهما بالطابق العلوي، يعطي الأب لكل منهما حقيبة بقالة ورقية بنية اللون من كومة مطوية بعناية، تحتفظ الأم بها

(1) محمود بلكنة أمريكية (المترجم).

مخبأة أسفل حوض المطبخ. نادرًا ما ترمي والدتها أي شيء. يوجد درج مليء بأكياس الكاتشب والخردل، وشرائط ملفوفة من حقائب القمامة الإضافية، وحزمة مطاطية من إعلانات الخصم الأسبوعية التي تُلقى خارج باب شقتهم.

يقول لهم أن يملآ حقيبتي البقالة بالملابس -ما يكفي أسبوعًا. تساعد عفاف مجيد وتمسك بأسطوانة أغنية «شَعر»، ولا تفكر إنْ كانت الخالة نسرين تمتلك مشغل أسطوانات أم لا. هذا كل ما قاله لهما الأب؛ *سيقضيان عيد الشكر مع خالتهما*. هذه المرة الأولى التي يذهبان فيها إلى منزلها.

زياد، زميل الأب في الفرقة الموسيقية، يقلّهم بسيارته إلى كينوشا. ينفث الرجلان دخان السجائر من خلال فتحة في نافذة سيارة زياد. يتدلى مصباح من مرآة الرؤية الخلفية. عبر مشغل الكاسيت في السيارة، تتدفق نغمات أغنية عربية، تكسر الصمت المخيم. يتحدث الأب بصوت خفيض ويومئ زياد برأسه ويقول بين الحين والآخر: «خير إن شاء الله. يجب أن تتحلى بالصبر يا أخي».

يغمز زياد لعفاف في مرآة الرؤية الخلفية، وتحاول الابتسامة له لكنها تشعر بكآبة شديدة.

6

بيت الخالة نسرين منزل من إبان الحقبة الاستعمارية، أبيض، مصاريع نوافذه خضراء. يقود زياد السيارة في ممر طويل، متجاوزًا صندوق بريد منقوش عليه ورود. يبدو أقرب منزل منه على بعد ميل. توجد بركة صغيرة في الفناء الخلفي وحديقة واسعة. في المنتصف توجد شجرة بلوط معلقة عليها أرجوحة خشبية. على الجانب الغربي من المنزل توجد مصطبة أنيقة مع مقعد من الحديد المطاوع. بيت الطيور المطلي باللون الأحمر في نهاية الممر يسحر مجيد على الفور.

يسحب مجيد كُمَّ معطف عفاف. «هل تعيش طيور بداخله؟»

عفاف تهز كتفيها وقد تملكها الفضول أيضًا. هذه الإطلالة الجديدة على الطبيعة تستحوذ عليها. اعتادت عفاف الصفوف المستقيمة في شيكاغو، مبنى سكني تلو الآخر من منازل ذات طابق واحد، ومنازل من طابقين تدعمها سلالم طويلة. يتلوى حي خالتها وينخفض، ويحتوي على أشجار أكثر مما رأته من قبل في مكان واحد.

رافقهما الأب حتى الباب، حاملًا حقائبهما الورقية المحشوة بملابسهما الأشبه بحقائب البقالة. يرفض بأدب دعوة الخالة نسرين بالدخول، ويومئ برأسه إلى صديقه المنتظر في السيارة.

«أريد أن أعود إلى منتهى». يبدو الأب منهكًا ومهمومًا. تسللت بعض الخصلات البيضاء إلى شاربه.

يركع على ركبتيه، ويضم عفاف ومجيد بين ذراعيه.

تهمس عفاف في أذنه: «ماذا حدث لأمي؟»

تلمع عينا الأب بالدموع فيرمش حتى يحبسها: «أمكِ بحاجة إلى الراحة مدة من الوقت، يا حبيبتي». يبتسم ويربت على خد عفاف. يدغدغ بطن مجيد. «هيا، ادخلا الآن، ولا تسببا أي مشكلة لخالتكما».

بعد أن أغلقت الباب خلف الأب، تقرِّب الخالة نسرين الطفلين منها وتقبّلهما على جبهتيهما وأنفيهما. «مرحبًا يا أولاد!»

يتحرر مجيد من قبضتها ويقول: «خالتي! هل تعيش الطيور في ذلك البيت؟»

«أي بيت يا حبيبي؟»

«بيت الطيور!»

«لا أعرف يا حبيبي. عليك أن تسأل عمك».

تسأل عفاف: «متى سترجع ماما إلى المنزل؟»

قالت خالتها: «إنها في مشوار» وهي تزيل غرة عفاف عن عينيها. «رحلة صغيرة. للاسترخاء والتحسن».

تقول عفاف: «لكن حقيبتها ما زالت في المنزل».

«لن تحتاج إلى الكثير في هذه الرحلة، يا حبيبتي. الرحلة قصيرة. سترجع قبل أن تدركي ذلك. تعالي الآن وساعديني في إعداد هذه التبولة». تقود الخالة نسرين الطريق إلى المطبخ.

يتردد على نحو مخيف صدى كلمات خالتها في ذلك اليوم الذي أكدت فيه لعفاف ومجيد أن ندى سترجع أيضًا.

تُلقي عفاف جسدها فوق كرسي وتعصر أنصاف ليمون في إناء.

تقول خالتها «عفاف» وهي ترفع ذقنها. أصابعها عطرة برائحة البقدونس. «كل شيء سيصبح على ما يرام». تغمز إلى عفاف وتستأنف التقطيع. أم كلثوم تغني من راديو ترانزستور مزود بمشغل كاسيت. دأبت الأم على دندنة كلمات الأغاني فيما تنظف المنزل.

على العشاء، ينظر زوج الخالة نسرين إليهما بلباقة ممزوجة بشيء من عدم الاكتراث في حين يقدم لهما عصير برتقال من إبريق زجاجي بدلًا من الكوكاكولا كما تفعل الأم في المنزل. العم يحيى والخالة نسرين يتحدثان عن المستشفى ومرضاه.

يشكو العم يحيى قائلًا: «هؤلاء الأمريكان لا يطاقون. يطرحون مئة سؤال حول كل إجراء طبي بسيط».

تقول خالتها: «أنت تعمل بجدٍ يا حبيبي». تضع مزيدًا من التبولة في طبقه، وتتحقق من حالة أطباق عفاف ومجيد. «صحتين! هيا تناولا طعامكما!»

يسأل مجيد العم يحيي: «هل تعيش طيور في هذا البيت؟»

يقول: «ليس بعد الآن. هاجرت جنوبًا مع قدوم الشتاء. ستعود في الربيع إن شاء الله».

تضحك الخالة نسرين ضحكة مكتومة. «أتذكر عندما كنا أطفالًا. كان في قريتنا حاج عجوز يمتلك أكثر من اثني عشر قفص طيور. يمكنه إصابة هدف من مسافة كيلومتر واحد بمقلاعه...».

تمضغ عفاف نصف شريحة خبز، حوافها محمَّصة. تنجرف أفكارها إلى أمها، وتنقبض معدتها. كيف يمكن أن تشتاق إلى أمها ومع ذلك تشعر بالارتياح للابتعاد عنها؟

بعد العشاء، تقتاد الخالة عفاف ومجيد إلى غرفة نوم الضيوف في أحد نهايتي الطابق الثاني. توجد نافذة كبيرة مع مقعد مدمَج مبطن يطل على الممر. يذهب مجيد إليه فورًا حتى يراقب بيت الطيور، جاثيًا وجبهته مضغوطة على الزجاج.

يقول لعفاف من فوق كتفه: «الجو معتم جدًّا ولا يمكن رؤيته».

تجلس على سرير صغير مرتب في وسط الغرفة، مغطى بلحاف زهري اللون من نوعية الستائر نفسها.

تقول الخالة نسرين: «سأحضر لكم وسادة إضافية، يا عزيزيّ».

تحت البطانية، تمسك عفاف يد مجيد، الشيء الوحيد المألوف لها في هذا المكان. لم تنم قط في أي مكان آخر غير شقتهم. كلمات أمها يتردد صداها في الظلام: عيب! *يجب ألا تنام الفتاة خارج منزل والدها*. هنا في منزل خالتها يلوح في الأفق غياب ندى بطريقة غريبة مثل مروحة السقف المعلقة فوق عفاف، في غرفة لم يشغلها أي منهما معًا من قبل.

تحدق إلى مروحة السقف. أين كانت ندى تنام كل هذا الوقت؟ لا تزال على قيد الحياة في وعي عفاف، وتعيش بالقرب من عائلتها، ولكن في مكان لم يكن أي منهم فيه. تغمض عينيها وتتذكر جميع المنازل والمباني السكنية في ضاحية فيرفيلد، تلك التي تقع في طريقها إلى مدرسة نايتنجيل الابتدائية. ثم تجول بعينيها في متاجر الشارع الرئيسِ التي تعرفها- أرض البقالة Grocery Land، مغسلة صابون ورغاوي Soap N 'Suds – ومتاجر أخرى لم تدخلها من قبل. هل كانت ندى موجودة في أي منها؟ هل يمكن أن تكون في أحدها الآن؟

يا لها من فكرة غريبة جدًا- موت ندى. لا تعرف عفاف أي شخص قريب منها، قد مات. غابت صديقتها سميرة عن المدرسة مدة أسبوع حتى تسافر إلى ديترويت عندما توفي جدها. هذا ما فعله كبار السن. تراءى لها الموت حِكرًا على الكبار.

في الخارج، السكون مخيم - لا أبواق سيارات، أو أحد يضحك في أحد الأزقة. يعلو صرير على الأرض في حين تغلق خالتها وعمها باب غرفة نومهما في الطرف الآخر من الممر. تسمع عفاف صيحة غريبة - هل يمكن أن تكون بومة؟ صوت تعتقد أن ندى، أيضًا، ربما لم تسمعه من قبل.

***

ستستضيف الخالة نسرين حفل عيد الشكر. توجد جالية صغيرة من المغتربين من مصر والعراق، يعيشون في كينوشا، من بينهم عدد قليل من الأطباء وعائلاتهم الذين دعاهم العم يحيى زوج الخالة نسرين. تستطيع عفاف ملاحظة أن الخالة نسرين متوترة جدًا، ولا ترغب في أن تخيب ظن زوجها.

تطهي الديك الرومي بالمرق، بكرات بحجم علب الصودا تتناثر في شعرها، ومئزر مكشكش ملفوف حول فستانها المحبوك ذي الياقة المدورة. مجلة ماري كلير مفتوحة على منضدة المطبخ أمامها، صورة ديك رومي محمص ذهبي اللون يحتل المركز. قليل من الطحين يلطخ زاوية صفحة وصفة «*يوم ديك رومي (عيد شكر) سهل*». تقرأ خالتها كل خطوة بصوت عالٍ في أثناء تطبيقها، هي أكثر إجادة للإنجليزية من أمها. لا تتذكر عفاف أن الأم استعانت في أي وقت مضى بمجلة أو كتاب طبخ. لم تحتج

إلى ذلك. تشك عفاف في أن وجبات العشاء التي كانوا يأكلونها عادة -المقلوبة وورق الدوالي- يمكن العثور عليه في أي صفحة داخل كتاب وصفات طبخ.

يرمق الكبار عفاف ومجيد بنظرات مُشفِقة، ويرسمون ابتسامات زائفة على وجوههم كما لو أن كل شيء على ما يرام. وجع يمور داخل بطنها. مجيد غافل، مدهوش من المفرش الزاهي الذي فردته الخالة نسرين على المائدة.

مع أن الديك الرومي يبدو مثيرًا للشفقة -جلده لا يزال شاحبًا، ولم يكتسب لونًا ذهبيًا على الإطلاق مثل صورة مجلة الطبخ- توجد أطباق شرق أوسطية لتشتيت الانتباه عن استيعاب عمتها الفاشل للوصفة. محشي كوسا مطبوخ في صوص الزبادي، وأرز أوزي مع لحم البقر المفروم الحار والجزر والبازلاء، ومسخَّن الدجاج مع السماق. يحظى لحم الضأن المشوي باستحسان الجميع. لا تزال الدهون المتفحمة تصدر أزيزًا في المقلاة المبطنة بورق الألمنيوم. يشرق وجه الخالة نسرين فخرًا.

يجلس الأطفال إلى مائدة صغيرة قابلة للطي فوق كراسي معدنية صلبة. ما تنفك إحدى الفتيات تركل قصبة عفاف، ثم تعتذر بصدق.

تريد عفاف أكثر من أي وقت مضى العودة إلى المنزل – تريد عودة أمها- الاحتفال بعيد الشكر في شقتهم الصغيرة رغم مشاحنات والديها. لطالما حضَّرت الأم الدجاج المحشي والبطاطا الحلوة وكان الديك الرومي الذي تطهيه مشويًا على نحو مثالي. ويبرز قِدر ورق الدوالي اللذيذ الخاص بوالدتها وسط الأطباق

الأخـرى. غنّـى الأب وعـزف علـى عـوده بعـد أن تمتلـئ بطونهـم بالطعـام. كانـت هـذه المناسـبة الوحيـدة فـي العـام التـي اجتمعـوا فيـه جميعًـا حـول المائـدة –الأب والأم ونـدى ومجيـد وعفـاف– مـن أجل تنـاول الطعـام فـي الوقـت نفسـه بالضبـط. كان ذلـك أقـرب مـا شـعرت بـه علـى الإطـلاق بأنهـا أمريكيـة.

تتسـاءل عفـاف إنْ كانـت الأم تتنـاول الديـك الرومـي والمـرق أينمـا كانـت. هـل تعـرف حتـى أنـه عيـد الشـكر؟ هـل تفتقدهمـا؟

تجـد عفـاف نفسـها مـرة أخـرى تفكـر فـي نـدى. تحـارب بشـدة للحفـاظ علـى وجـه نـدى حـادًّا وواضحًـا فـي ذهنهـا مـع أنـه يتلاشـى عندمـا تكـون عفـاف بعيـدة عـن المنـزل، حيـث صـور نـدى المدرسـية معلَّقـة فـي الردهـة بجـوار صورتهـا ومجيـد خـارج غرفـة نومهمـا. فـي منـزل خالتهـا، وجـه نـدى مشـوش فـي ذهنهـا، كأنـه خـارج عـن بـؤرة الاهتمـام. فـي شـقتهم فـي عيـد الشـكر العـام الماضـي، تنافسـت هـي ونـدى علـى كسـر عظـم ترقـوة الديـك الرومـي، وكانـت أختهـا تنتصـر عليهـا كمـا تفعـل كل عـام. علـى مائـدة الخالـة نسـرين، لا أحـد يحـاول الظفـر بعظـم الترقـوة مـن ديـك رومـي غيـر صالـح لـلأكل.

تحمـل عفـاف عشـاءها نصـف المأكـول إلـى المطبـخ، وتقضـي وقتًـا طويـلًا فـي الحمـام فـي الطابـق الثانـي. تشـم رائحـة أصيـص مـن ورق زهـر مجفـف فـوق الحـوض الخزفـي، وتمـرر أصابعهـا علـى الصابـون المعطـر الـذي يتخـذ شـكل أزهـار.

يقـرع مجيـد البـاب. «مـاذا تفعليـن فـي الداخـل؟»

عفـاف تظهـر أخيـرًا. «أنـا أكـره الحيـاة هنـا يـا مـج». تضغـط علـى طـرف حذائهـا فـي الردهـة المكسـوة بسـجاد بيـج.

يهز كتفيه. «الأمر ليس بهذا السوء. أنا أيضًا أفتقد ماما».

تمسك عفاف بيده وينزلان الدرج معًا.

في الصالون الرئيسِ، رأت عفاف العم يحيى وهو يصب سائلًا بلون العسل في كؤوس لامعة للرجال. يشعلون السيجار ويتكئون بظهورهم على الكراسي الجلدية. تساعد النساء الخالة نسرين في تنظيف المائدة، وتحضير إبريق من القهوة، فناجين القهوة الصغيرة مرصوصة بالفعل فوق صينية فضية.

تقول الخالة نسرين: «عفاف، لماذا لا تأخذين الأطفال إلى غرفة الجلوس؟ جلبت لعبة تويستر هناك».

«لا ألعب لعبة تويستر أبدًا»، تعلن الفتاة الأكبر سنًّا حالما يبتعدون عن مجال سمع الخالة نسرين. «لا أريد أن يلمس صبي أي جزء من جسمي». تجلس الأختان جنبًا إلى جنب على أريكة من الخوص، ذقناهما بارزان للخارج بما يعكس ما يبدو أنه صوابية أخلاقية. جواربهما الناصعة البياض تلتصق بقوة بساقيهما حتى أسفل ركبهما.

عفاف ومجيد يتبادلان النظرات. يهز مجيد كتفيه. يجلسان أمام الفتيات على كرسيين متطابقين من الخيزران، ويحدقان إليهما. الفتاة الأكبر سنًّا تتكلم بلهجة عربية لا تستطيع عفاف أن تتبعها قبل أن ترفع حاجبيها نحوهما.

تقول بالإنجليزية: «هل تفهمان ما أقول». عفاف لا تجيب.

تقول الفتاة ساخرة: «الأحمقان لا يعرفان كيف يتكلمان العربية!»

تمسك عفاف بمسندي ذراعي كرسيها فيما تتجمع دموعها الغاضبة في مقلتيها. «أغلقي فمكِ الغبي القبيح!» أذهلتها هاتيك

الكلمات البغيضة. تنبثق من مكان عميق في حلقها وتخرج من فمها مثل صاروخ. «فقط اخرسي!» تلفظ الكلمات مرة أخرى.

يفاجئ هذا الفتاة أيضًا إذ تشد ذراع أختها، التي تبدو مذهولة، وتغادران الغرفة، واحدة تلحق بالأخرى عن قرب. يبتسم مجيد إلى عفاف، مبهورًا، ثم يقفز من فوق الأريكة ويتجه إلى مشغل الأسطوانات.

بحلول الوقت الذي تُعزف فيه أغنية «صباح الخير يا بريق النجوم Good Morning Starshine»، تنضم عفاف إلى مجيد الذي راح يحرِّك وركيه الهزيلين، وذراعاه تتمايلان فوق رأسه. تهز عفاف جسمها، وتصفق برفق. تطل الخالة نسرين برأسها داخل الحجرة. تبدو كأنها على وشك أن تقول شيئًا لكنها تبتسم فقط قبل أن تتركهما بمفردهما.

صباح الخير يا بريق النجوم، الأرض تقول لك مرحبًا.

يستمعان إلى الألبوم بالكامل حتى يكفّا عن سماع الكلمات.

الجزء الثاني

مدرسة نور الدين للبنات

كان الأمر أسهل مما كان يتصور. توقف عند رصيف التحميل خلف المدرسة، واثقًا من أن شاحنته البيضاء لن تثير أي ريبة. كانت تشبه تلك التي تحمل شحنات الطعام أو تخدم المبنى. كان يرتدي بذلته لشركة Excel القديمة تحت سترة شتوية بنية واسعة، ويخفي مسدس روجر 22 في غمده. كان صندوق الأدوات المعدني الطويل الذي يحمله يحتوي على بندقية Armalite M-15، مفككة، أجزاؤها تتلاءم تمامًا مع الحيز بالداخل بعد أن أخرج الأدراج التي كانت تحمل لقم المسدس ومساميره. سابقًا في صباح اليوم ألقى بها جميعًا في حاوية القمامة الكبيرة خلف بناية شقته. لن تفيده بعد اليوم. يمشي بخطوات متثاقلة عبر الأرض الرطبة منتعلًا أحذية العمل طويلة الرقبة، التي تسحق بلورات الملح الزرقاء وتذيب ما تبقى من تهاطل الثلوج في ساعة مبكرة من الصباح

استيقظ على هطول الثلج، مقتنعًا أنه يمكنه سماع ندف الثلج تستقر على زجاج النافذة. كانت إيلين تشخر بخفوت، وظهرها له. يتدحرج بعناية مغادرًا السرير. أنهضت كلبته العجوز نفسها بصعوبة، التهاب المفاصل يبطئ من حركتها. خدشت مخالبها الأرض وهي تجاهد من أجل الوقوف. انتظر بصبر الكلبة جيني قبل أن يغلق باب غرفة النوم خلفهما. تبعت الكلبة سيدها في

الردهـة الضيقـة، متشـوقة إلـى احتمـال نزهـة أبكـر بكثيـر مـن روتينهمـا المعتـاد.

تدلـى القمـر منخفضًـا عبـر نافـذة المطبـخ، وأضـاء الثلـج الـذي استمر فـي التسـاقط. كان الجـو شـديد الهـدوء حيـث غطـت رقاقـات الثلـج الممشـى خـارج شـقته، ودثَّـرت أسـقف وأغطيـة السـيارات المصطفـة فـي المـرأب المشـترك. لـم تخـرج المحاريـث بعـد وكان ممتنًـا لذلـك. كان الصمـت مطمئنًـا حيـث لـفَّ الثلـج العالـم الخارجـي –أبيـض ونقـي ونظيـف.

لـم يعـد النـوم يسـتهويه. يكفيـه أن يحظـى بلمسـة إيليـن بجـواره. يحـاول امتصـاص دفئهـا الدائـم، مـع أنهـا تحـرك ذراعـه فـي بعـض الأحيـان، نصـف مسـتيقظة ومنزعجـة. تركهـا تنـام هـذا الصبـاح، وجمـع ثيابـه فـي يديـه وارتداهـا فـي الحمـام. قـرر عـدم تـرك رسـالة - لـم يسـتطع اسـتدعاء أي كلمـات بليغـة للتعبيـر بشـكل صحيـح عمّـا كان علـى وشـك القيـام بـه. *أفعالـه تتحـدث عنـه.*

اصطحـب جينـي فـي نزهـة علـى الأقـدام، متجـاوزًا المنعطـف حيـث عـادة مـا ينتظـر الأطفـال القاطنـون فـي البنايـة السـكنية وصـول حافلـة المدرسـة، والحقائـب تهتـز صعـودًا وهبوطًـا علـى ظهورهـم. فـي أي صبـاح آخـر، كان يراقـب الأطفـال مـن الدرابزيـن خـارج شـقته فـي الطابـق الثانـي، ويتعـرف علـى معظمهـم، لأنـه كان داخـل شـققهم، يصلـح مـزلاج نافـذة مكسـورًا أو يحكـم سـدّ تسـرب تحـت حـوض حمـام. كان يحتسـي قهوتـه، ويوجـه انتباهـه إلـى مجموعـة الأطفـال، وينصـب تركيـزه بالتحديـد علـى الصبييـن التوأميـن ببشـرتهما البنيـة اللذيـن وقفـا بشـكل رسـمي بعيـدًا عـن أقرانهـم. فـي السـاعة السـابعة

والنصف صباحًا، كانت الحافلة المدرسية تتوقف بمحاذاة الرصيف، ويمتد درجها إلى الشارع. كان الأطفال يصطفون في طابور واحد، متناثرين وصاخبين، قبل أن يختفوا داخل الحافلة. ولطالما كان التوأم آخر من يصعد على متن الحافلة.

في هذا الصباح الباكر بدا أنه الشخص الوحيد المستيقظ. تباطأت مشية جيني بعد أن قطعا مسافة كبيرة، وكانت مخالبها تلطم الثلج. شعر بالحزن على كلبته، كلبة هجينة بين سلالتي الشيبرد الألماني واللابرادور، مع حلقات سوداء وبيضاء ورمادية من الفراء حول رقبتها. كانت جيني تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا تقريبًا. بدا الأمر كأنه تدهور بطيء وملتوٍ والآن يندم لأنه لم يرحم جيني من بؤسها ويقتلها قتلًا رحيمًا. كان يجدر به القيادة شمالًا، والعثور على قطعة أرض نائية في الغابة، وتركها تجري بين الأشجار المتجمدة اللحاء مدة قصيرة. ثم كان ليدعوها إليه ويجثو على ركبة واحدة ليفرك خِطمها مرة أخيرة قبل أن يضغط فوهة مسدسه بين عينيها في حين تنظر إليه. هكذا كان يريد أن يرحل عن الدنيا بدوره -بسرعة ودون ألم، متجنبًا المعاناة والشفقة المصاحبة للمرض والشيخوخة. لو سار اليوم كما هو مخطط له، فربما يكون هذا مصيره.

خطا داخل الشقة بهدوء وأمضى وقتًا طويلًا جاثيًا على ركبة واحدة، وهو يفرك أذني كلبته العجوز وخطمها. أثرت عينا جيني المتعبة والمخلصة فيه بعمق. لم ينظر إليه إنسان من قبل بهذا القدر من التقديس. كان يتمنى أن تكون إيلين رحيمة وتضع نهاية لحياة كلبته، وتحافظ على شيء من كرامة جيني.

داخل المدرسة الإسلامية، تجمهرت بضع موظفات في الممر القصير الذي دخل منه إلى الرصيف. كان بوسعه رؤية حارس الأمن على مكتب، وقبعة البيسبول التي يعتمرها تحجب جزءًا من وجهه. كان الحارس يقرأ جريدة «صن-تايمز». يبعد الحارس عينيه عن الجريدة مع وقع صوت خطواته. يرفع صندوق أدواته في بادرة ترحيب، ويلوح الحارس إليه في المقابل. لا أسئلة أو طلبات لرؤية بطاقة هوية أو تصريح عمل. ومع ذلك، كان خوف جليدي يسري بطول عموده الفقري وهو يدور حول الزاوية بجوار الكافيتريا. يمكنه أن يستدير، ويتظاهر بأنه نسي أحد الأدوات في شاحنته، ويقود السيارة، ويعود أدراجه إلى إيلين وجيني. لكنه يواصل المشي.

شُحنت البندقية إليه الأسبوع الماضي. فتحها وحبيبات العرق تتصبب على جبهته. كانت إيلين في العمل. جلس على حافة سريرهما يجمع أجزاء البندقية، وحركة التقاء الأجزاء بعضها ببعض تبعث فيه نوعًا غريبًا من الراحة. اختبر شعورًا مماثلًا لذلك حين كان صبيًّا عندما اصطحبهما أبوه هو وأخاه جو في رحلة صيد. كانت هذه المرة الوحيدة التي تمكن فيها من تحمُّل أن يكون قريبًا من والده دون أن يرغب في قتله.

كان شقيقه جو شجاعًا؛ التحق بالجيش وتركه وحده مع والديهما. بدأ بالنوم في غرفة جو، ودفن وجهه في وسادة أخيه، محاولًا إسكات الصوت المنخفض والمرعب لوالده، وأنين والدته المتألِّم، الواصل إليه من فتحة التهوية. في صباح اليوم التالي، كانت والدته تقف أمام الموقد، تطبخ دقيق الشوفان من أجلهم

كالمعتاد، وذراعها ملتوية في جبيرة صنعتها من قماش قطني عتيق. في الصباحات الأخرى، كانت شفتها مثل حبة الكرز المهروسة، وعينها منتفخة مثل ثمرة برقوق.

اليوم لن يهرب. تبخرت أي أفكار في ذهنه عن التراجع إلى شاحنته. تحرك بسرعة بطول الممر، وعيناه تبحثان عن خزانة أدوات.

كانت هذه المدرسة مثل أي مدرسة أخرى كان بداخلها من قبل. توجد لوحات إعلانية عليها ملصقات دعائية للجامعات، وإعلانات عن منح دراسية. تلمع الأرضيات تحت ألواح السقف الفلورسنت.

تتناقض واجهة المبنى الخارجية العتيقة المشيدة من الطوب البني مع التجديدات الداخلية الحديثة التي شك في حدوثها على مدار عقود. باستثناء صور الطالبات المعروضة على جدران الممر- كل فتاة ترتدي الحجاب وتبتسم من الأذن إلى الأذن - لم تكن مختلفة عن المدارس الأخرى. اجتاز الصالة الرياضية، وكان يسمع الفتيات يركضن عبر أرض الملعب، يلعبن بكرة سلة، وتحمس كل منهما الأخرى.

بجانب نافورة شرب، لمح بابًا عليه لافتة *للموظفين فقط*. كان على وشك الدخول عندما انفتح باب صالة الألعاب الرياضية فجأة. خرجت فتاة تلهث. كانت ترتدي سروالاً رياضيًا وقميصًا بأكمام طويلة، وشعار مدرسة نور الدين مطبوع على صدرها المسطح، ودوائر رطبة من العرق تحت ذراعيها. لم يستطع معرفة إنْ كان حجابها الأبيض مبتلًا، مع أن وجهها كان يتلألأ بالعرق.

تسمر متجمدًا في مكانه، وعيناه تتنقلان من الفتاة الصغيرة إلى الباب الذي أغلقته وراءها. هذا الشعور القديم المألوف بالنبذ، بعدم الانتماء، جثم على صدره. حتى هذه الفتاة -حاجباها السوداوان الرفيعان ارتفعا في حين كانت تأخذ أنفاسًا مرهَقة من الجري- بدت كأنها تنضح بثقة أكبر من ثقته بنفسه، هو الرجل البالغ. لوحت له بيدها تلويحة مقتضبة قبل أن تتوجه إلى نافورة المياه. عاد أدراجه إلى الباب وسرعان ما اختبأ داخل خزانة ملأى بأدوات التنظيف.

مقت المدرسة عندما كان طفلًا، رغم أنه حقق علامات جيدة. كان يخشى استدعاءه لحل معادلة على السبورة أو قراءة قصيدة للشاعر ويليام وردزورث بصوت عالٍ فيما يتابعه زملاؤه في الفصل في كتبهم المدرسية. كان المعلم الوحيد الذي يمكنه تحمله هو السيد هيلوكس، مدرس التاريخ الذي ترددت شائعات بأنه جاسوس لصالح الروس، ويمتلك أدوات فضية نازية. احتوى الفصل الدراسي للسيد هيلوكس على خرائط العالم وصور خرائط عتيقة مؤطرة. كان يتتبع بإصبعه الخريطة على طول المسافة بين بلدان مثل بيرو وغينيا الجديدة ويحدد موقعها - جعلته الخرائط يبدو أقرب إلى الأماكن التي لا يستطيع نطق اسمها حتى.

في البداية منحه هذا الأمل في الحياة في مكان أكثر براحًا من ويسكونسن، خاصة بعد رحيل شقيقه جو. تخيل شقيقه يعيش في بلد أجنبي بعد انتهاء مدة خدمته العسكرية، وكان يأمل أن تأتيه بطاقة بريدية يومًا ما من جو تُظهر مدينة غريبة أو شاطئًا بديعًا. لكن لم تأتِ بطاقة بريدية أو حتى رسالة.

ربما احتاج جو إلى وقت من أجل نسيان ما تركه وراءه من ذكريات في فيتنام. ذات يوم، وصلت أوراق حكومية تعلن أن جو قد سُرح من الجيش بطريقة مُشرِّفة. مسكت والدته الأوراق، واطلعت عليها مرارًا، رغم أنها لا تستطيع قراءة اللغة الإنجليزية. تتبعت الختم الرسمي بأطراف أصابعها. كان يريد الهرب أيضًا، الهرب من شقاء والدته، ووحدته الشديدة.

قبل تجنيده، لم يذكر جو فيتنام قط. حتى وهم يشاهدون الصور المعروضة على تلفازهم لم يعرب شقيقه عن رأي بشأن الحرب الجارية هناك. جلسا فوق بساط منسوج في الردهة بينما أبلغ والتر كرونكايت عبر التلفاز عن الأحداث التي لم يتمكنا من رؤيتها وسماعها. شظايا من مراوح الطائرات المروحية تنهال فوق القرى الصغيرة؛ الدخان الرمادي والأسود يتصاعد من غابات الأشجار المورقة. لم يستطع قط تخيل الرائحة المريعة للقرى المحترقة، أو الجثث المتفحمة إلى كتل لا يمكن التعرف عليها، أو الرائحة الشبيهة بالديزل للعامل البرتقالي[1] الذي رشَّ على آلاف الأفدنة من الغطاء النباتي. ولم يقدر أن يتصور شعور المرء عندما يحترق لحمه، وتتغذى المواد الكيميائية على بشرته؟ تلك الحقائق الدقيقة المروعة لم تخترق قط شاشة التلفاز. ربما كان جو قد فهمها بعمق أكثر، وشعر بشيء معين أجبره على

(1) العامل البرتقالي أو عامل أورانج: الاسم الرمزي لمبيد أعشاب كيميائي ونازع ورق شجر من مبيدات قوس قزح المعروفة على نطاقٍ واسع ليستخدمها الجيش الأمريكي خاصة بوصفها جزءًا من برنامج «حرب مبيدات الأعشاب»، أو عملية «رانش هاند»، في أثناء حرب فيتنام ما بين العامين 1962 و1971 (المترجم).

تلبية نداء الواجب. كان التجنيد قد أعطى جو على الأقل غاية لا يستطيع والدهما انتقاده عليها.

لكن جو تركه أيضًا دون رسالة. الشيء الوحيد الذي تركه تحت سريره صندوق آمن من خشب الجوز بداخله مسدس روجر عيار 22، مسدس تحتوي خزانته على تسع طلقات، ادخر جو مصروف صيفين لشرائه. اكتشف المسدس، وتظاهر بأنه هدية وداع من أخيه.

استمر والده في حياته كما لو أنه ما كان لديه ابن أكبر من قبل. أدرك حينها، وحيدًا في الخامسة عشرة من عمره، مدى سهولة نبذ أحدهم مثل بطانية قديمة. كان الناس أشياء يمكن للمرء التخلص منها- حتى أولئك الذين أحببتهم. في يوم من الأيام، سيرحلون أيضًا.

رن الجرس، ما دفعه إلى الرجوع إلى اللحظة الراهنة. كان يسمع الفتيات يضحكن ويتحدثن خارج الباب، مزيج من الإنجليزية والعربية. انتظر حتى رن الجرس الثاني، إيذانًا ببدء حصة جديدة. حشا خزانة المسدس بالرصاص، وخبأ الذخيرة الإضافية في جيوب سترته. أغلق صندوق الأدوات، ووضعه على رف بالقرب من كومة من المناديل الورقية، وخلع سترته. تحسس المسدس في غمده قبل أن يخرج من الخزانة، البندقية قريبة من جنبه.

كان مدخل المدرسة فارغًا. مر على جدارية من البلاط الهندسي الشكل باللونين الأزرق والأخضر، ثم وصل إلى بئر السلم حيث انجرف صوت موسيقى إليه. صعد الدرج.

كان مـن الممكـن أن يبـدأ تنفيـذ مخططـه فـي الكافيتريـا، لكـن صـوت الجوقـة الخافـت دفعـه إلـى اتجـاه آخـر. تباطـأت حركاتـه وهـو يتقفـى أصـوات الغنـاء. سـرعان مـا أبصـر وجوههـن عـن قـرب، وأمكنـه استشـفاف رعبهـن، وتوسـلاتهن مـن أجـل حياتهـن. وأرادهـن أن يرونـه أيضًـا. ليـس مـن مسـافة بعيـدة - رجـل مجنـون يحمـل سـلاحًا كمـا هـو الحـال فـي جميـع القصـص الأخـرى التـي سـمعنها فـي الأخبـار، ولـم يتخيلـن قـط حـدوث ذلـك لهـن حقًـا، بـل أراد أن يكـون قريبًـا بمـا فيـه الكفايـة حتـى يتمكّـن مـن التقـاط تلـك القـوة المروعـة اليائسـة الكامنـة فـي عينيـه.

***

يهمس مايكل ويلسون في أذنها، «لا تقلقي يا أ-فاف. يمكنني أن أفعل ذلك بطريقة لا تُعرِّضك للأذى. أنا أعرف كيف الحال مع عائلتك».

عفاف داخل غرفة نومه، ووالداه غادرا لقضاء الأمسية في الخارج. يخلع مايكل ثيابه ما عدا ملابسه الداخلية، ثم يجلس خلف ظهرها فوق سريره. يجردها من قميصها، ويفك حمالة صدرها. تترك عفاف الأولاد البيض يلمسونها فقط من فوق ملابسها. سمحت لمايكل ويلسون فقط بالذهاب إلى أبعد من ذلك فيما كانت تحدق في صورة له وعشيقته كيلي ماكفرسون -وهما في متنزه «الرايات الست»، يحملان حيوانات محشوة فاز بها من أجلها- معلقة على لوحة من الفلّين. في حين يقبل مايكل كتفيها، ويرفع خصلات شعرها الكثيفة، تتساءل عفاف إنْ كان لمسُ جسد كيلي يمنحه الإحساس نفسه. ربما يكون الاختلاف الوحيد بينهما هو الشعر: تتهادى خصلات كيلي الشقراء في تموجات متلألئة أسفل ظهرها، لا تقطع تجعيدة واحدة استرساله، في حين أن شعر عفاف أصبح متطايرًا من كثرة استخدام كريمات فرد الشعر، وتنقسم نهاياته إلى خصلات قصيرة هشة.

مايكل ويلسون لاعب هجوم خلفي في فريق كرة سلة مدرسة هوفر الثانوية، ويأتي إلى متجر «ديري كوين» حيث تعمل عفاف بعد انتهاء اليوم الدراسي، وفي عطلات نهاية الأسبوع. يعطي شلّته أوامر صاخبة ليشتروا له البيرغر والعصائر المخفوقة. لم

تكن تعتقد أن مايكل قد لاحظ وجودها حتى الأسبوع الماضي. أتى إلى كاونتر الحساب للمرة الثانية، وسألها إن كانت ترغب في الخروج معه في وقت ما.

يمكننا مشاهدة فيلم أو شيء آخر في منزلي.

تعرف عفاف أنه لا يقصد ذلك حقًّا عندما يطلب منها الخروج معه -لا أحد من الأولاد البيض يقصد ذلك. لا يصطحبونها إلى الأماكن العامة، ولا يريدون مشاهدة الأفلام معها في منازلهم على أجهزة الفيديو المترِّبة في غرف الجلوس. تعرف ما يقولونه عنها في مدرسة هوفر الثانوية: *ستسمح لك أ-فاف بتقبيلها*. *حتى أنها قد تفعل لكَ ما تشاء منها*.

وهي تعرف أن كيلي ماكفرسون عشيقة مايكل، لكن عفاف لا تبالي. أمسكت بالمنديل الذي كتب عليه مايكل عنوانه، ومرَّره إليها خلسة من فوق صندوق عرض الآيس كريم في المتجر. أومأت إليه، ووضعته في جيب مئزرها.

تجول عفاف بعينيها في غرفة مايكل وهو يلثم رقبتها. من المؤكد أنه سيترك بضع علامات تقبيل فوقها. تعلمت إخفاءها خلف تموجات شعرها، مع أن والديها لا ينظران إليها من كثب. لاحظت ذات مرة مجيد وهو يحدق في إحداها تحت أذنها عندما كانت تجمع شعرها بلا مبالاة في ضفيرة على هيئة ذيل حصان. كانا يشاهدان التلفاز وكان ينظر إليها كما ينظر إلى أمهما- بمزيج من الشفقة والقلق والعجز. تحاول أن لا تفكر في ما يسمعه عنها، في غرفة خلع ملابس الأولاد، وفي أنحاء المدرسة. هل رأى اسمها مكتوبًا بقلم ماركر على جدار مرحاض الحمام: *اتصل بأ-فاف إن كنت ترغب في المتعة؟*

على أحد جدران غرفة مايكل ويلسون أرفف مثبتة فوقها كؤوس بطولة الولاية ولوحات تذكارية لفريق نجوم المدارس الثانوية لكرة السلة. تتخيل عفاف مدى فخر والدي مايكل بابنهما. هل عرفا بمجرد ولادته أنه سيكون نجمًا رياضيًّا؟ هل تخيلا يومًا أنه سيتسكع مع فتاة عربية؟ كيف سيفكران فيه الآن، شبه عارٍ، يُقبّل فتاة في غرفته؟ هل سيشغلهما الأمر أقل لو كانت كيلي ماكفرسون عوضًا عنها؟

يمتلك مجيد عدد الجوائز نفسه تقريبًا في رياضة البيسبول. جوائز مكدسة فوق خزانة الملابس في غرفة نومه، بعضها موضوع على الأرض بالقرب من سريره. يحضر الأب والأم مبارياته الرسمية، ويصفقان باعتزاز عندما يأخذ مجيد موقعه عند القاعدة، ويدير ذراعيه، ويغرس قدمه اليسرى في العشب. تمسك الأم بذراع الأب، وتحبس أنفاسها حتى يلامس مضرب مجيد الكرة بسرعة وسلاسة. في مدرسة هوفر، يقابل مجيد مستشاره التربوي، بحثًا عن الكليات والمنح الدراسية المناسبة. ستكون لديه مسيرة مهنية واعدة، طموح يبدو غريبًا جدًّا على عفاف، ومتفائلًا بصورة مبالغ فيها قليلًا. عفاف ليست بارعة في أي مجال دراسي. حصلت دائمًا على درجات مقبولة بأقل قدر من الجهد، ولكن لا شيء يثير اهتمامها بخلاف القراءة - لحسن الحظ لم يغتل معلمو مدرستها الابتدائية هذه الفرحة بداخلها. في غضون يومين يمكنها أن تلتهم رواية لسيدني شيلدون -قرأت رواياتها جميعًا- وإنْ أحبت كتابًا مخصصًا لمادة القراءة في المدرسة، تبحث عن المؤلف في المكتبة العامة، وتتطلع على

كتبه الأخرى. تتذكر عندما أخذتها ندى إلى المكتبة حتى تحصل على بطاقة عضوية. كم كانت فخورة بكتابة اسمها بدقة في المكان الذي أشارت إليه المرأة، وكم كانت سعيدة بالاطلاع على الكتب بمفردها أخيرًا.

مايكل ويلسون لا يمتلك أي كتب في غرفته، فقط كتاب مادة حساب التفاضل والتكامل ملقى على الأرض، ومجلة مصارعة مطوية على منضدة بجانب سريره. يتحسس حمالة صدرها. هل يمكن لمجيد أن يكون جريئًا هكذا مع فتاة؟ هل قبَّل فتاة من قبل؟ تشعر عفاف فجأة بشيء يتقلب في معدتها، وتبتعد عن مايكل، وتنتزع ملابسها، وتهبط الدرج مهرولة.

يصرخ مايكل ويلسون مناديًا إياها: «هاي! إلى أين أنت ذاهبة يا أ-فاف؟»

تكره الطريقة التي يبدو بها اسمها عندما ينطقه، مثل الآخرين الذين سمعتهم يختزلونها في قالب محدد: *أفاف.. عاهرة.. عذراء.. فتاة تائهة*.

هذا ما تنعتها به أمها عندما تحادث الخالة نسرين عبر الهاتف. *بنت ضايعة*[1]. فتاة تائهة.

لا يعرفان إلى أي مدى تتمادى في علاقتها مع الأولاد البيض، وأن قوة غير مرئية بالكاد تمنعها من عبور وادي الجنس المحفوف بالمخاطر. تتظاهر بأن السبب في ذلك أنها لا تريد ممارسة الجنس، ولكن الحقيقة -مغروسة بعمق في بطنها، في المكان

(1) بالعربية في الأصل (المترجم).

الذي تشعر فيه دائمًا بالخزي والذنب الكامنين في جسدها– تخشى خيانة أبيها وأمها بهذه الطريقة. عذريتها آخر بقايا طفولتها، براءتها. تمنحها والديها مثل حجر كريم.

قال مايكل لعفاف عندما أغلق باب غرفته عليهما لأول مرة: «أنتِ مختلفة». لكنها تدرك أنه لا يقصد ذلك بمعناها الحَسن، لأن الاختلاف ليس حسنًا أبدًا.

ربما هذا ما كانت تتحدث عنه أختها ندى في يومياتها كل هاتيك السنوات الماضية. هل يمكن أن يكون هذا سبب رحيلها؟ هذا ما قاله المحقق الشاب لوالديها أخيرًا؛ صُنِّفت قضية ندى على أنها هاربة.

«لا يوجد دليل على وقوع جريمة هنا. أنا آسف، يا سيد وسيدة رحمن». كان ذلك عام 1980، أي بعد أربع سنوات من رؤية عفاف المحقق لأول مرة. خفتت عيناه الزرقاوان منذ ذلك المساء في شقتهم القديمة في ضاحية فيرفيلد.

صاحت الأم: «مستحيل!» وهي تكفكف دموعها بكم ثوبها المنزلي. «مستحيل! لن تهرب مني أبدًا».

أمسك الأب كتفي الأم برقة، وهمس بشيء في أذنها. هزَّت رأسها بعنف لكنها التزمت الهدوء. خفض المحقق عينيه إلى مفكرته. جلست عفاف ومجيد إلى مائدة المطبخ.، وكان المحشي يبرد في طبقيهما. كانت تحب أن تفتح الكوسا المحشوة، وتتناول الأرز أولًا ثم القشرة. كانوا في منتصف تناول الوجبة عندما وصل المحقق.

منذ تلك الليلة، كانت الأم تطفو عبر السنين مثل شبح، وتتحرك حول أسرَّتهم، وتحوم في هامش حياتهم. اختفى الأب متقوقعًا داخل نفسه؛ كان يرجع إلى المنزل متأخرًا، تفوح منه رائحة الكحول.

تركض عفاف خارجة من الباب الخلفي، وتقفز فوق دراجتها ذات السرعات العشر التي تركتها في الفناء الخلفي المسيَّج لبيت مايكل ويلسون.

أيتها العاهرة!، ترن الكلمات في أذنيها وهي تقود دراجتها إلى المنزل عبر الزقاق.

2

في حجرتها، تحاول عفاف كتم ضجيج صياح والديها بجهاز الووكمان. الشجار نفسه يتكرر بينهما. الأم ترغب في الرجوع إلى بلادها فلسطين إلى الأبد. لا تزال الكلمات الغاضبة تعلو فوق كلمات الأغاني المتدفقة عبر سماعات عفاف.

«لا نستطيع تحمل تكاليف ذلك يا منتهى...»

هل تشعر بالخوف؟ أنا خائفة..

«أنت تثمل..».

لكنني لن أتوقف وأتردد...

«فكِّري في طفليكِ...».

لو تخلصنا من كل شيء..

«ليس لدي حياة هنا يا محمود..».

لا يمكن للأشياء إلا أن تتحسن.

تغمض عفاف عينيها بقوة، وترفع من حدة الصوت.

يوجد جزء من عفاف يتمنى رحيل الأم. الجزء بداخلها الذي ينطوي على نفسه مرارًا، ويقاوم الألم في كل مرة تنظر فيها أمها من خلالها، ولا ترى عفاف أبدًا، بل ترى دائمًا مولودتها الأولى. ترجع عفاف من المدرسة كل يوم لتجد الأم أمام الموقد، تطبخ وجبات لن تأكلها بنفسها. تبدو أشبه بشجرة ذابلة، ذراعاها الهزيلتان مثل أغصان بلا أوراق، يداها تبدوان عاجزتين عن حمل أكثر من مقشة تمسح بها الأرضية الخشبية الباهتة لشقتهم.

يوجد جزء آخر من عفاف يريد محو حزن والدتها مع كل

ذكريـات نـدى وبلادهـا فلسـطين حتـى تصبـح مثـل ذرات الغبـار.

لكـن عائلتهـا غيَّـرت منزلهـا ثـلاث مـرات منـذ اختفـاء نـدى، ولا يـزال غيابهـا يشـغل المسـاحة الأكبـر فـي كل شـقة صغيـرة يقطنونهـا، طـاردًا عفـاف ومجيـد إلـى الخـارج.

***

فـي كافتيريـا المدرسـة فـي اليـوم التالـي، يزحـف شـيء بـارد فـوق فـروة رأس عفـاف، وينـزلـق فـوق وجههـا. عفـاف تمسـك بكـرات مـن الجيلـي الأخضـر فـي يدهـا.

تهمـس كيلـي ماكفرسـون فـي أذنهـا: «عاهـرة». تقـف خلـف عفـاف فـي طابـور الغـداء. صديقـة كيلـي، أنجيـلا مالـون، تعتـرض طريقهـا. وجـوه مـلأى بالنمـش وأسـنان بيضـاء متوحشـة. أنجيـلا تهـز طبقًـا بلاسـتيكيًا، وتلقـي مزيـدًا مـن كـرات الجيلـي الخضـراء فـوق أحذيـة عفـاف الرياضيـة.

أنفاس كيلي ساخنة على رقبتها. «ابقي بعيدة عن عشيقي».

رغـم الخـوف الـذي يدغـدغ بشـرتها، تصفـع عفـاف صينيتهـا فـوق المنضـدة، وتدفـع كيلـي بقـوة لدرجـة أنهـا تصطـدم بطالبتيـن أخرييـن خلفهـا. تتشـكل نصـف دائـرة مـن الطـالبـات حولهـن، ينـدفعـن ويصـرخـن. لا تسـتطيع عفـاف سـماع مـا تصـرخ بـه كيلـي المرميـة علـى الأرض. يتجمـع الحليـب المتسـرب مـن عبـوة مسـحوقة بالقـرب مـن مؤخـرة كيلـي. تمسـك أنجيـلا بحفنـة مـن شـعر عفـاف، وتشـدهـا إلـى الخلـف. تـدور عفـاف حـول نفسـهـا وتُمسـك ذقـن أنجيـلا بقبضتهـا. ثـم يكبـل أحدهـم ذراعـي عفـاف علـى جنبيهـا، ويحملهـا خـارج الكافيتريـا. سـندوتش مـن زبـدة الفـول السـوداني والمربـى يلطـم وجههـا وسـط

جوقة من الضحك. في مكتبه، يمنح كوتش فيليبس، أحد عمداء المدرسة، عفاف مناديل ورقية لمسح الجيلي عن شعرها. تلتصق المناديل ببقايا الجيلي اللزجة. تغوص في الكرسي المقابل له في حجرة مكتبه. تقع عينا عفاف على رف يعج بالجوائز والأشرطة. صور مؤطرة لفريق المصارعة في مدرسة هوفر الثانوية على الجدران، مصفوفة بعناية من عام 1972 إلى عام 1984. في كل صورة منها، يظهر كوتش فيليبس في وضع مماثل؛ الذراعان خلف ظهره، والكتفان مستديرتان، والبطن مشدودة. في الصورة الأولى، شعره كثيف وطويل يمتد فوق جبهته. مع تقدم السنوات، يغدو شعره أخف وأقصر، وفي آخر صورة -العام الماضي- اختفى كل شعره، وقد حلق حتى فروة رأسه. وهو الآن أكثر بدانة. لكن لا شيء يتغير في وقفته – نظرة جامدة وعابسة نحو الكاميرا.

يتفحص أحد الملفات، ويتصل برقم عبر هاتف مكتبه. «السّيدة رحمن؟ معكِ العميد فيليبس من مدرسة هوفر الثانوية». توقف هنيهة، ونقر قلمه الرصاص على حافة المكتب. «هل تتكلمين الإنجليزية؟» أومأ برأسه لعفاف. «جيد، جيد. لدي هنا ابنتك أ-فاف في مكتبي. ضربت طالبة أخرى، يا سيدتي. ضربت فتاة. نعم...» يتجاهل إخبار الأم بأن أنجيلا مالون هي من أمسكت بشعرها أولاً. شعرت عفاف ببعض الرضا عن الطريقة التي فرقعت بها مفاصل أصابعها عند ارتطامها بعظام وجنتي أنجيلا. لكن هل يلومها على الحادثة بأكملها؟! يرن جرس المدرسة، والممر خارج مكتب العميد يمتلئ بالصخب مدة قصيرة. أُغلِقت خزائن الطلاب بدوي، واندفعت خطوات الأقدام إلى داخل

حجرات الفصل. تحاول عفاف ألا تتململ في كرسيها. يقول كوتش فيليبس عبر الهاتف، «ستحتاجين إلى القدوم واصطحابها. ستُعاقب بالإيقاف لمدة ثلاثة أيام، يا سيدتي». هنيهة صمْت. «نعم. سوف تكون في انتظارِك. شكرًا يا سيدتي». يغلق الخط، ويدوّن شيئًا في ملفها ثم يغلقه. يميل إلى الخلف في كرسيه الدوار، ويداه مطويتان فوق بطنه. «هل تخططين لعدم التخرج يا آنسة رحمن؟»

تطوي عفاف المنديل الورقي المتسخ عدة مرات، متجاهلة سؤاله، متظاهرة بعدم الاكتراث. لكنها المرة الثانية هذا الفصل الدراسي الذي تكون فيها داخل مكتبه. في الشهر الماضي، شتمت صبيًّا في فصل الفيزياء. طرح الأستاذ بيجز مسألة تتعلق بالسرعة حين ذكر زميل في الفصل بسخرية شيء عن سرعة الجِمال. لكن شتم أحد زملائها في الفصل شيء وضربه شيء آخر. يتقاطر العرق على ظهر عفاف. تلاشى الأدرينالين الذي سرى في جسمها من جراء لكم أنجيلا، وافتقار العميد إلى التعاطف يُشعِرها بالفراغ والوحدة.

«هذه المرة الثانية. ستُفصلين من المدرسة نهائيًّا أيتها الشابة لو تكرر ذلك مرة ثالثة».

تحدق عفاف بنظرات باردة في كوتش فيليبس. مهما حدث، لن تُظهِر له أبدًا أنها مذعورة. لن تكشف أبدًا عن مدى ضعفها حقًّا. في كل عام، تستدعيها الاختصاصية الاجتماعية إلى مكتبها، وتستمع عفاف إلى المحاضرة نفسها: «لديك خيارات، يا أ-فاف. لا يمكننا التحكم إلا في ما نملك زمامه في حياتنا».

أرادت الاختصاصية الاجتماعية أن تعرف: *هل والداك صارمان يا أ-فاف؟ هل تواجهين مشكلة في المنزل؟*

قمعت عفاف ضحكة. *صارمان؟* يعتقد البيض أنها تُحبَس في اللحظة التي تصل فيها إلى المنزل، أنها مقموعة ومنزوعة الحرية. بالكاد يعترف أبوها وأمها بوجودها، ناهيك بالاهتمام بما تفعله خارج المدرسة. ربما لو فعلا، ما جلست في مكتب العميد مرة أخرى.

«أنتِ بحاجة إلى شهادتك، أيتها الشابة. لا تريدين من والدك أن يبيعك إلى حرملك[1]، أليس كذلك؟» يضحك كوتش فيليبس، ويحك حافة أنفه بإصبع ثخينة. تحارب عفاف بشدة للسيطرة على تورد خديها. تريد انتزاع إحدى جوائزه وتحطيم وجهه بها. كانت تلك مزحة سمعته يقولها من قبل للفتيات العربيات الأجمل في هوفر. يبتسمن له بتأدب ردًا على مزحته السمجة. لديه مجموعة متنوعة من الإهانات المخصصة للأولاد العرب أيضًا: *لا صفقات نفط خلال اليوم الدراسي، يا رفاق*. نبرته مرحة دائمًا، ولا تخفي تمامًا كراهيته للوجود غير الأبيض في مدرسة هوفر الثانوية. هو من ضمن البالغين الخطرين. ابتسامتهم تحجب مشاعرهم الحقيقية تجاهك. مثل السيدة كاس، معلمة اللغة الإنجليزية التي تتجاهل وجود الطالبين السود الوحيدين في فصل عفاف ما لم يطرحا أي أسئلة، حينذاك فقط تبتسم لهما ابتسامة زائفة. أو السيد أبوت مشرف قاعة الدراسة الذي يغض

(1) ارتبط مفهوم حرملك/ قصر الحريم بالدولة العثمانية للدلالة على الجناح الضخم الملحق بقصر السلطان الذي يضم والدته وزوجاته وجواريه (المترجم).

الطرف عن الأطفال البيض المتأخرين، لكنه لا يتردد في كتابة اسم أي شخص آخر يتأخر.

كوتش فيليبس يمنح عفاف إذنًا بالانصراف قبل انقضاء اليوم الدراسي «انتظري والدتك في الخارج. أتمنى أن تبقي بعيدة عن مكتبي». يستدير نحو خزانة الملفات إلى يساره.

تغادر عفاف مكتبه دون أن تنطق بكلمة واحدة.

3

بينما تنتظر أمها في المكتب الرئيس، تلقي نظرة متحدية إلى الطلاب الذين يمرون في الردهة، ويتباطؤون حتى ينظروا عبر النافذة الزجاجية كما لو أنها حيوان معروض في حديقة حيوان. تمر سميرة وعدد قليل من الطالبات العربيات وتلتقي نظراتهما. انهارت صداقتهما في المدرسة الابتدائية، والآن تبتعد سميرة والفتيات الأخريات عن عفاف كأنها مصابة بالطاعون. يبدو أن سميرة تنسى عندما كانتا في العاشرة من عمرها واعتادتا لعب لعبة «Miss Mary Mack»[1] مرارًا حتى ينفجرا في الضحك. لطالما كانت عفاف على الجانب الخطأ من النافذة، غير قادرة على التوافق مع القالب الذي انسجمت فيه سميرة والعربيات الأخريات بسهولة. يغازلن ويضحكن مع الأولاد العرب، ولا يعبرن أبدًا هذا الخط من العفة. يمتلك آباؤهم مطاعم ومحطات وقود، يشترون لهن ما تشتهيه قلوبهن. تتألق تجاعيد شعرهن من قصّات الشعر باهظة الثمن وأعينهن محددة بكحل كثيف. يرتدين تمائم ذهبية عيار 24 قيراط نُقش عليها «الله» باللغة العربية. هن جميلات ومدللات - لا يختلفن عن معظم الفتيات البيض في المدرسة باستثناء بشرتهن الزيتونية. تشيح سميرة بعينيها بسرعة في حين تغوص عفاف في كرسيها أكثر.

بعد ساعة، تأتي الأم إلى المكتب، وهي تمسك حقيبتها بعصبية كأنها في المكان الخطأ، وعلى أهبة الاستعداد للهرولة

(1) إحدى أشهر ألعاب التصفيق (المترجم).

خارجًا في أي لحظة إلى أن تلمح عفاف. ترتدي معطفها الشتوي الرمادي الطويل بأزراره كبيرة الحجم، مع أنهم في بداية شهر أبريل. شعرها الطويل مسترسل، وخصلات شعرها الرمادية تضفي عليها مظهرًا جامحًا. يطل بنطلون البيجامة الوردي المنقّط من خارج أحذية المطر. تتكمش عفاف في مكانها، متمنية لو أنها عادت إلى المنزل بنفسها. صبيان من السنة الأولى ينتظران بجانب عفاف، يضحكان ضحكات مكتومة. تحدق إليهما بنظرات متحدية.

«السّيدة رحمن؟» تمنح السكرتيرة الأم ابتسامة مشدودة. «من فضلك وقعي هنا».

تمسك الأم بالقلم فيما تنظر المرأة البيضاء إلى البقعة التي ينقصها زر فوق معطف والدتها. تهز السكرتيرة ذقنها تجاه عفاف. «يمكنها العودة إلى المدرسة في اليوم الخامس من الشهر.. هل يستطيع أحدهم إحضار واجباتها المدرسية؟ يمكننا استلامها هنا في نهاية اليوم الدراسي».

«نعم. شقيقها». صوت الأم هامس، وبالكاد يمكن سماع كلماتها.

«ما اسمه؟» قلم السكرتيرة يلامس الاستمارة القانونية الصفراء. فجأة تشتت حقيقة الموقف الأمَ. تنظر إلى عفاف كأنها لا تتعرف على ابنتها - ربما لم تتعرف عليها من قبل. عفاف تقف وتقول للسكرتيرة: «مجيد. إنه في السنة التاسعة». تختفي ابتسامة المرأة المصطنعة عندما تلتفت وتنظر إلى عفاف، بلا أي جهد للتظاهر باللطف. «آمل ألا يسبب لك أي مشكلة مثل

هـذه». تشـير بقلمهـا إلـى عفـاف، وهـي تخاطـب الأم مـرة أخـرى.

تـرد عفـاف قائلـة: «إنـه الطفـل المثالـي. حلـم كل أب وأم». مـا قالتـه ليس بعيـدًا كثيـرًا عـن الحقيقـة. قبـل أن تتمكـن السـكرتيرة مـن الـرد، تخـرج عفـاف مـن البـاب بالفعـل. لـم تُسـتدعَ الأم إلـى المدرسـة قـط بسـبب شـجار مجيـد مـع زميـل آخـر فـي الفصـل. المـرة الوحيـدة التـي اقتـرب فيهـا مـن ذلـك كان فـي مبـاراة بطولـة الولايـة الربيـع الماضـي. حقـق مجيـد دورة كاملـة (Home Run) قـرب نهايـة الشـوط الثامـن. صـاح الرامـي فـي الفريـق الآخـر بسـخرية، «انظـروا إلـى السـائس وهـو يركـض!» فـي حيـن كان مجيـد يـدور حـول القواعـد. كادا يشـتبكان بالأيـدي، وأوشـكت المبـاراة أن تُلغـى.

تسـير خلـف أمهـا فـي الردهـة. عفـاف ممتنـة لأن الحصـة السادسـة قـد بـدأت بالفعـل. لا يوجـد سـوى عـدد قليـل مـن الطلبـة المتأخريـن حولهمـا، يشـربون مـن نافـورة الميـاه، ويجـرون أجسـادهم إلـى الفصـل. فـي موقـف السـيارات، تتحـدث الأم مـع عفـاف لأول مـرة. تقـول بالعربيـة: «ضربـتِ فتـاة!». تلجـأ الأم إلـى الحديـث بلغـة عربيـة جـادة عندمـا تكـون فـي ورطـة.

تنزلـق عفـاف فـوق مقعـد الراكـب فـي سـيارة الوالـد البويـك ريفييـرا الزرقـاء 79. الوسـائد المهترئـة المصنوعـة مـن جلـد الغـزال، التـي كانـت ذات يـوم باللـون الأزرق الفضـي اللامـع، أصبحـت الآن رماديـة باهتـة. لا يمكنهـا تذكـر شـيء واحـد جديـد اشـتروه مـن قبـل -باسـتثناء المراتـب- حتـى عندمـا انتقلـوا إلـى الشـقق الجديـدة. تقريبًـا كل قطعـة أثـاث يمتلكونهـا كانـت تخـص شـخصًا آخـر سـابقًا، وتحمـل قصـة عائلـة أخـرى— تتخيـل عفـاف أنهـا لا بـد عائلـة أسـعد

من عائلتهم. كانت هذه سيارتهم الأولى. اشتراها الأب من زميله في الفرقة الموسيقية أمجد، ومع أنها مستعملة إلا أنها بدت جديدة بالنسبة إليهم. يرن جرس المدرسة للإشارة إلى بداية آخر حصص اليوم. من الخارج، يبدو الأمر كأنه جرس إنذار، وتفزع الأم للحظة. تجول بعينيها الخضراوين في أرجاء موقف السيارات، وترتجف أصابعها وهي تفتح باب سيارتها. ازدادت عصبيتها سوءًا منذ اختفاء ندى. عندما يرن جرس الباب في الشقة، أو يدوي بوق سيارة في الشارع، تقفز الأم، وتضغط على يديها. لن ترد على رنين الباب إنْ كانت في المنزل وحدها.

تركب الأم في مقعد السائق، وترمي حقيبة يدها فوق المقعد الخلفي، وتدير مفتاح السيارة. يهتز المحرك لبضع ثوانٍ قبل أن تدب الحياة فيه. في المرة الأولى التي قاد الأب السيارة إلى المنزل، تلوت عفاف ومجيد من الفرحة. نجح في إقناع الأم بالذهاب في جولة بالسيارة، وصعدوا جميعًا على متنها تملؤهم الإثارة، مبهورين من مساحة السيارة الداخلية الفسيحة. استنشقت عفاف رائحة جوز الهند التي تفوح من مزيل الرائحة الذي كان يتدلى من مرآة الرؤية الخلفية. لا يمكن لأي شيء أن يخفي الرائحة الكريهة لسجائر والدها.

علَّم الأب الأم القيادة بعد أشهر قليلة من شراء البويك. قال لها الأب: *في هذا البلد تتخلين عن حريتك إن لم تعرفي كيف تقودين سيارة.* منح عفاف وشقيقها إيماءة حازمة، وتأكد من أنهما سمعا كلماته الحكيمة. تتذكر عفاف جلوسها في المقعد الخلفي مع مجيد، هادئين تمامًا فيما أعطى أبوهما تعليمات

القيادة للأم. كانت الأم تفرمل بقوة فيرتد جسداهما الصغيران للأمام. في المرة الأولى التي ضحكت فيها عفاف وشقيقها، استدار الأب، ورمقهما بنظرات قاسية. *لا يُفترض أن نضحك على شخص يحاول. نضحك فقط على الحمقى الذين لا يمنحون أنفسهم فرصة*. يسكتهما ذلك لبقية مدة تعلُّم أمهما القيادة. كان الأب رجلًا صبورًا. كل خطأ ارتكبته الأم، قابله بالتشجيع. كان *ذلك منعطفًا صعبًا. سوف تتقنين الأمر في المرة القادمة*. أو *عظيم! يا منتهى! أُوقفت السيارة بطريقة ممتازة- وهذه ثالث محاولة فقط!*

في السيارة، تعلو قرقعة الزجاجات فوق أرضية المقعد الخلفي عندما تخرج الأم من موقف سيارات المدرسة. تتدحرج زجاجات الكحول الفارغة وتصطدم كل منها بالأخرى وراء مقعد عفاف. في البداية كانت رائحة غريبة تنبعث من أنفاس الأب عندما يجلس القرفصاء لتقبيل عفاف بعد العمل - مثل رائحة الكولونيا التي يرشها على خديه في العيد، لكن أحلى. بعد انهيار الأم العصبي، في المدة التي مكثت عفاف ومجيد مع الخالة نسرين لمدة أسبوعين، كان الأب يعود إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل، حيث تكون عفاف ومجيد نائمين بالفعل، ويصطدم بمنضدة صغيرة، ويتعثر في الردهة. كان مجيد لا يزال ينام على سرير الأريكة، ورغم أنهم حملوا سرير ندى القديم معهم إلى كل شقة جديدة لأن والدتها رفضت التخلي عن أي شيء يخص ندى. لكن ما إن تبدأ الأم بكاءها الغاضب على ثمالة الأب، يندفع مجيد من الغرفة الأمامية ويقفز إلى داخل سرير ندى. في

بعض الليالي، يلقي الأب بنفسه بجانب مجيد على سرير الأريكة، وينتحب، متشبثًا بأخيها حتى يفقد وعيه.

بمرور الوقت، أصبحت الرائحة ملازمة للأب، مثل طبقة جديدة من الجلد. عندما كانت عفاف في الثانية عشرة من عمرها، وكانوا في طريقهم إلى منزل الخالة نسرين في عطلة نهاية الأسبوع، ركلت عفاف بالخطأ شيئًا تحت مقعد الراكب. أخرجت زجاجة شبه فارغة من مشروب «جاك دانيال» استقرت هناك. سائل كهرماني يدور حول القاع. كانت قد نزعت الغطاء بهدوء وشمته. رائحة حلوة نفاذة. تركت مجيد يشم أيضًا. تجعد أنفه. بينما كان الأب والأم يجلسان في مقعدي السيارة الأماميين دون أن يتحدث أي منهما إلى الآخر، اختطف مجيد الزجاجة من يد عفاف، وأخذ جرعة كبيرة منها. سعل بعنف.

رفعت الأم جسدها فوق المقعد. *خيرًا خيرًا*

أوقف الأب السيارة بجانب الطريق ونزل. أخرج مجيد من السيارة، ودلك ظهر شقيقها الذي انهار على الأسفلت متألمًا. كانت الأم بجانبه أيضًا، تهز ذراع مجيد.

لا، لا، كان كل ما قاله الأب عندما سلمته عفاف الزجاجة المفتوحة. انسكب ما تبقى من السائل على سجادة أرضية السيارة، وشاهدت عفاف الألياف الفضية تمتصه، وتكتسي باللون الرمادي الداكن، مثل البقع الناتجة عن ذوبان أقماع الثلج أو الأحذية الموحلة في المطر.

لا يكفي أنك تدمر صحتك، عليك أن تدمر أطفالنا أيضًا بشُربِك. صرخت الأم في حين تمسح فم مجيد بكف يدها،

وتفحص عينيه كأن مجيد قد تسمم. عانق شقيقها أمهما التي راحت تحدج أباهما بنظرات قاسية. أدار الأب محرك السيارة وانطلقوا عائدين إلى المنزل. أفسد ما حدث يومهم.

* * *

4

تتشبث الأم بقوة بعجلة القيادة المغطاة بجلد صناعي أزرق، بعض دروزه مفكوكة، مفاصل أصابعها تتلون بالأبيض. أظافرها مقضومة بشدة. الجلد المتآكل في نهاية الأظافر مغطى بالبثور. لا تتفوه بأي كلمة. ولا تسأل عفاف عن الشيء الذي ربما استفزها حتى تضرب طالبة أخرى. ولا تتساءل لماذا عفاف بائسة في المدرسة. يحترق صدر عفاف. رغبة في إلحاق الأذى تتدفق عبر قلبها. تود عفاف أن تخبر أمها لماذا تلك الفتيات يطاردنها. تريد أن تذكر أسماءهم -كل الأولاد البيض الذين سمحت لهم بتحسس جسدها- مثل قائمة البقالة التي تناولها أمها لأبيها كل أسبوع. ربما سيكون لدى الأم المزيد لتقوله لها عندئذ.

في السنة الثانية من المدرسة الثانوية، بدأ الأمر مع تيم ماكي في سيارته. الحقيقة أن عفاف لم تُعجب بتيم – لا يعجبها أيًا من الأولاد البيض، ولو حتى قليلًا. لا أحد منهم يجعلها تشعر بأي تحسن، بأنها موجودة، وأن أحدهم يلاحظها. بعد سنوات في المدرسة الابتدائية، لم تكن قادرة على معرفة من هي، وكيف تريد أن يراها الآخرون. يبدو أن فتيات مثل كيلي وأنجيلا وسميرة قد اكتشفن ذلك سلفا. قاد تيم عفاف إلى حديقة ماركيت، وأبقى عينيه مغمضتين طوال الوقت وهو يقبل رقبتها ووجهها ويلمس صدرها من فوق قميصها. استمعت بتركيز إلى أغنية فرقة عقول بسيطة Simple Minds التي تنبعث من راديو السيارة، حتى تحجب صوت همهماته الناعمة: *لا تنسيني...*

بعد ذلك شربوا مبردات نبيذ[1] بنكهة الفراولة اشتراها شقيق تيم الأكبر من أجله. مع الزجاجة الثالثة، شعرت بإثارة طفيفة خدَّرتها مدة قصيرة؛ ما سمح لها بنسيان أين كانت. ضغطت بجبينها على الزجاج البارد للنافذة بجانب مقعد الراكب، متجاهلة يد تيم فوق فخذها، غير مبالية بوعده بالحفاظ على سرية الأمر.

في البداية شعرت بامتلاكها سلطة على هؤلاء الأولاد.

مثل السنة الأولى مع جوناثان ديوك الذي كان يجلس خلفها في حصة تاريخ الولايات المتحدة، وينقر كتفها بقلمه الرصاص. كان يقول لها *شعرك غامق جدًا مثل الخفاش*. كانت تقابله في المكتبة، في قسم الميكروفيش[2] الذي لم يستخدمه أحد من قبل. قبلها بشفاه متشققة، ولمس جسمها بأصابع خشنة.

قبل بضعة أشهر، بدأت العمل في متجر دايري كوين. مديرها الأول هناك، شاب في الثالثة والعشرين من العمر ترك الدراسة بالكلية كان يفرك كتفيها في أثناء مسحها كل وعاء من الآيس كريم في صندوق عرض الفريزر في نهاية مناوبتها. *هل سيطلق عليك والدك النار لو رآني أفعل هذا؟*

يعتقدون أنها غريبة -ليست جميلة. بدا أن حجم أنفها قد تضاعف بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى سن البلوغ؛ وكانت

---

(1) مشروب كحولي مصنوع من النبيذ وعصير الفاكهة، وكثيرًا ما يُدمج مع المشروبات الغازية والسكر. (المترجم).

(2) الميكروفيش عن شريحة فيلمية مستطيلة الشكل مسطحة تحتوي على صفوف من الصور المصغرة المرتبة عموديًا أو أفقيًا. ويعدّ الميكروفيش من الوسائط المهمة في التصوير المصغر، وهو يستخدم غالبًا في المؤسسات التي تحتاج إلى حفظ ملفات الأفراد مثل الهيئات الحكومية المختلفة والشركات والمكتبات الكبرى. (المترجم).

بشرتها داكنة مثل قشر الفول السوداني. بالنسبة إلى الأولاد البيض، فهي شيء يجب اجتياحه واستكشافه، وليس الاحتفاظ به. وهي لا تتمسك بهم أيضًا. قبل أن ينتهوا منها، تكون قد انتقلت بالفعل إلى الشخص التالي.

تقود الأم السيارة في صمت تام عبر كتل من المنازل ذات الطابق الواحد، وأزهار الربيع تتفتح في أصص زرع مستطيلة. أزهار الزنبق الأصفر والأرجواني تبرز في شمس الظهيرة، أنيقة، غير مبالية. عفاف تقاوم دموعها الغاضبة وتضغط بقوة على شفتها السفلية. تسحب كتابًا من حقيبة ظهرها. أصبحت مؤخرًا مهووسة بجورج إليوت، روايته المفضلة عندها حتى الآن رواية سيلاس مارنر. تأسرها القصة؛ حكاية طفلة ذات شعر ذهبي تهيم في حياة منبوذة. ماذا لو تخلى والدا عفاف عنها وتركاها على عتبة باب أحدهم؟ هل كانت الحياة لتغدو أفضل؟ تتساءل إنْ كان يمكن لتغيير واحد في حياة الشخص أن يبطل كل ما حدث سابقًا، مثل سكب صبغة حمراء في دلو من الماء الصافي. ماذا لو لم تولد قط! هل كانت ندى لتختفي؟ هل كان أبوها ليخون أمها في هذه الحالة أيضًا؟ أو ربما يتعين العودة إلى الوراء أكثر، عندما رأى الأب الأم لأول مرة في ثوبها الأخضر المخمل، وهو يعزف على عوده بالتناغم مع التصفيق السيمفوني للضيوف الآخرين في حفل خطوبة. وبدلًا من قول نعم، رفضت الأم عرضه بالزواج ولم تطأ قدمها قط أرض هذا البلد مع ابنة صغيرة، وتفادت إحساس الوحدة والخسارة. ربما ما كانت الأم لتغدو أمًّا بل منتهى سليم، الابنة الكبرى التي لم ترغب في الزواج. *لكن لا*

أحد يهرب من نصيبه، كما اعتادت الخالة نسرين أن تقول لتفسر كثيرًا من القصص المأساوية. *إنه مكتوب بالفعل يا حبيبتي*.

يدخلان الشقة من الباب الخلفي. الأب يشخر على سرير الأريكة. على مدار العامين الماضيين، كان يعمل في المناوبة الليلية في المصنع. المرتبة تصر في أثناء تقلبه. هناك مجموعة من ورق العنب الملفوف فوق مائدة المطبخ. كانت الأم منخرطة في لف ورق الدوالي عندما تلقت المكالمة من كوتش فيليبس. تذهب إلى الثلاجة لإحضار وعاء من الأرز وحشوة اللحم التي أعدتها قبل إحضار عفاف. لا تزال ترتدي معطفها.

الهاتف يرن. كانت الخالة نسرين تتساءل أين كانت والدتها طوال الساعة الماضية، ولماذا لم يرد أحد على الهاتف. لم يتحرك الأب من مكانه في أثناء غياب الأم.

تبدأ الأم التذمر عبر الهاتف: «يا ربي يا نسرين! ضربت إحداهن! هل هكذا تتصرف الفتيات الطبيعيات؟»

تهرب عفاف إلى غرفتها، وتغلق الباب خلفها. ملابسها تغطي الأرض. تركل عفاف طريقها عبرها، وتلقي بنفسها فوق سريرها، وجهها لأسفل. صوت الأم يتسلل عبر الباب في مقاطع محتدة. تحاول قراءة كتابها مرة أخرى، لكنها لا تستطيع التركيز.

يتردد صدى كلمات أمها في أذنيها: *هل هكذا تتصرف الفتيات الطبيعيات*؟ تتساءل عفاف أيضًا كيف تتصرف الفتيات الطبيعيات. هل هن مثل كيلي وأنجيلا؟ فتيات بيضاوات البشرة جميلات لا تشوبهن شائبة؟ أم مثل ندى التي تظاهرت بأنها الابنة المثالية حتى اختفت ذات يوم؟ هل تركت ندى الأولاد يتحسسون جسدها أيضًا؟

عفـاف تقـذف الكتـاب جانبًـا. فـي زاويـة غرفتهـا، مشـغل الأسـطوانات القديم فوق حامـل ملطـخ، بجانبـه صنـدوق أسـطوانات. تسـحب أسـطوانة فرقـة «آبـا» وتضعهـا داخـل المشـغل. لا يـزال يعمـل، لكـن الـذراع تقفـز أحيانًـا فـي منتصـف أغنيـة. لا تمانـع -فكل خـدش وقطـع وتشـويش فـي الصـوت يواسـيها بغرابـة بطريقـة يعجـز عـن فعلهـا الاسـتماع عبـر جهازهـا الووكمـان. ترفـع درجـة الصـوت، وتسـتلقي علـى جنبهـا، ويداهـا متكورتـان تحـت خديهـا. تبـدأ أفكارهـا بالتشـتت والانجـراف تحـت جفـون مرفرفـة. يتلاشـى صـوت الأم علـى الهاتـف، ويتلاشـى جسـدها تدريجيًـا - هـي متعبـة جـدًا. قبـل نهايـة أغنيـة «الملكـة الراقصـة»، كانـت قـد اسـتغرقت فـي النـوم بالفعـل.

تتجسـد أحلامهـا عـن نـدى فـي صـورة رؤى ملتويـة وغريبـة، حقيقيـة جـدًا لدرجـة أن عفـاف تكـون مقتنعـة بأنهـا حدثـت بالفعـل عندمـا تسـتيقظ. تدخـل نـدى فـي الحلـم أحيانًـا إلـى متجـر دايـري كويـن، وتطلـب صنـف الآيـس كريـم المفضـل فـي القائمـة، ثـم تغـادر قبـل أن تدفـع، وتواجـه عفـاف مشـكلة مـن مديرهـا. فـي أحـلام أخـرى، تظهـر نـدى فـي مباريـات البيسـبول التـي يشـارك بهـا مجيـد، وتجلـس وحدهـا فـي المدرجـات المقابلـة. لا تقتـرب عفـاف مـن نـدى بمـا يكفـي لتلمسـها أو تشـم رائحتهـا. فـي حلـم اليـوم، تسـير عفـاف خلـف نـدى داخـل مدرسـة هوفـر الثانويـة، مرتديـة قميـص فرقـة تشـيب تريـك Cheap Trick المفضـل لديهـا - القميـص المخصـص لجولـة All Shook Up الغنائيـة عـام 1980. ترتـدي نـدى الملابـس ذاتهـا التـي كانـت ترتديهـا يـوم اختفائهـا: بنطلـون جينـز واسـعًا، وقميصًـا أصفـر باهتًـا. الممـر صامـت بشـكل غريـب، رغـم مـرور الطـلاب

بها، يفتحون أفواههم ويطبقونها في حديث صامت. وصلتا إلى الكافتيريا، وفتحت ندى كيسًا ورقيًا بني اللون. رائحة لاذعة من الطماطم والخل تنبعث منه- ورق دوالي أمهما. يأتي كوتش فيليبس إلى مائدتهما، ويسأل ندى عن بطاقة هوية مدرستها فتخبره عفاف أن ندى في زيارة فقط - ولن تمكث طويلًا. يمسك ندى من ذراعها ويخبرها بأنها لا تنتمي إلى المدرسة. ثم تدخل الأم الكافيتريا مرتدية معطفها الشتوي. تحمل طبقًا من أوراق العنب المحشوة، مكدسة مثل ألواح كوخ خشبي. تنادي عفاف.

«عفاف، يلا (هيا)!»

تستيقظ مفزوعة، مشوشة. ذراعها لزج بلعابها. تنظر في أرجاء غرفة نومها. «احملي القمامة إلى الخارج!» تنادي الأم من المطبخ.

لا يزال الضوء منتشرًا في الخارج. عفاف تُنهض نفسها عن الأرض، وتتعثر في طريقها إلى الحمام. تلتصق خصلات شعرها بعضها ببعض بفعل الجيلي الذي أُلقي عليها. تنفض ضفيرتها وتمسح تاج رأسها بمنشفة مبللة. ترش الماء البارد على وجهها. يغمرها شعور جيد.

لم يعد مجيد إلى المنزل بعد من تدريب البيسبول. الأب مستيقظ يشاهد التلفاز. عندما يسمع خرير مياه الصنبور، ينادي عفاف.

يجلس وأمامه طاولة متحركة، يحتسي من فنجان القهوة ذاته، خريطة للعالم منقوشة على امتداد محيط الفنجان. الفنجان الذي يشرب منه دائمًا. يوجد أمامه طبق من حساء البامية المتبقي من الأمس بالكاد لمسه.

«أسمع أنكِ واجهتِ مشكلة في المدرسة اليوم». لا تزال لغته الإنجليزية جافة إلى حد ما، مع أنه التقط مزيدًا من التعبيرات على مر السنين.

كان يقول لها ومجيد، يوم *آخر، دولار آخر*[1]، إذا أكملا مهامهما المنزلية بنجاح، ويذكر كيف أن *شيئًا يكلف ذراعًا ورجلًا*[2] عندما يتعطل أحد الأجهزة في الشقة. التعبير الدراج المفضل لديه هو، *«سأفحص المطر»*[3]، للتملص من مشادة محتدمة مع الأم عندما يعلم أنهما، هي ومجيد، ينصتان إليهما.

تلتزم عفاف الصمت، عيناها تجولان في كل مكان إلا وجهه. تستقر عيناها على عوده المثبت في زاوية الغرفة حيث يتركه أبوها دائمًا. لا يزال الأب يعزف الأغاني القديمة كلها، لكن الألحان تبدو متوترة وخالية من الفرحة.

عندما تنظر أخيرًا إلى أبيها، تندم على ذلك. وجهه متورم من الإرهاق، وعيناه دامعة ومصفرَّة.

«أنت فتاة طيبة يا عفاف. تمام؟» *فتاة طيبة*. هذا ما قاله الأب للضباط الذين حضروا في الليلة الأولى من اختفاء ندى. كم كانوا يعرفون القليل عن أختها حينها. كم كرهتهم ندى سرًا.

تومئ عفاف برأسها وتقضم خدها من الداخل.

---

(1) Another day, another dollar في الأصل، يعني ذلك التعبير أن كل شيء روتيني. (المترجم).
(2) Costs a leg and an arm في الأصل، يعني ذلك التعبير أنه باهظ الثمن. (المترجم).
(3) Take a rain check في الأصل، يعني ذلك التعبير أخذ استراحة أو تأجيل شيء ما. (المترجم).

يبدو أنه يريد أن يقول المزيد، الكلمات تتشكل صامتة على شفتيه. تسأله فجأة: «هل تفتقد العزف مع الفرقة؟»

يقول الأب، ابتسامة تزحف على وجهه: «أفتقد الأولاد».

انحلَّت فرقة بلدنا بعد مدة قصيرة من انهيار الأم العصبي. في البداية بدأ يتخطى البروفات، وسمعت عفاف أعذاره التي ساقها لزياد وأمجد حول الحاجة إلى المكوث في المنزل لإبقاء عينيه على منتهى. هل كان الأب خائفًا من حدوث شيء أسوأ للأم؟ هل كان يخشى أن تجد عفاف ومجيد نفسيهما وحيدين عندما يحدث ذلك؟ تعرف كم جرحت خسارة الفرقة أباها.

تنظر عفاف إلى عوده، وتومئ برأسها، وتستدير حتى تذهب.

«انتظري يا عفاف». يقف الأب ويسحبها نحوه ليعانقها. لا تستطيع أن تتذكر آخر مرة كانت فيها بين ذراعي والدها، وتشعر بالاسترخاء في أحضانه، جسده يمتص وزنها. تريد أن تسمعه يقول، *كل شيء سيكون على ما يرام يا حبيبتي*.

قبل أن تتساقط دموعها، تنزلق بعيدًا عنه. في المطبخ، تلف الأم آخر ورقة عنب. تلتفت إلى الباب الخلفي. توجد حقيبة قمامة سوداء ضخمة هناك في كومة غير متوازنة.

«أنا ذاهبة الى المكتبة». تقول عفاف لأمها وهي تغلق سحَّاب سترتها. تخطط فقط لقيادة دراجتها في أنحاء الحي، لكنها بحاجة إلى عذر للهروب من الشقة بضع ساعات.

تنظر الأم إليها بريبة، رغم أنها لا توقف عفاف. لم يعاقبها والداها هي أو مجيد قطّ بمنعهما من مغادرة البيت، ممارسة لم يتبناها والداها من الأمريكان. قد يصرخان في وجهيهما أو

يصفعانهما، ثم ينتهي الأمر. في المرة الأخيرة التي وضعت فيها أمها يديها عليها، كانت عفاف تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، وكانت هي ومجيد يجريان في الشقة، وأسقط أخوها الأكواريوم الصغير الذي شيده أبوها. ذهبت عفاف ومجيد برفقة الأب إلى متجر الحيوانات الأليفة، متوسلين إليه حتى يشتري لهما جروًا أو هرَّة، فيما يشرح عامل المتجر خيارات المياه العذبة التي يمكن استعمالها في حوض سمك للمبتدئين. عادوا إلى المنزل مع سمكة بيتا، وعدد قليل من أسماك الجوبي ذات الذيول المروحية، وأسماك الزينة الحمراء النَّارية. بعد أسبوع، طفت سمكة البيتا ميتة، ففقدت عفاف ومجيد الاهتمام بحوض السمك. جمع الأب الأكواريوم على المائدة الملاصقة للجدار تحت المرآة في حجرة الجلوس، بعد أن أزال من فوقها الهدايا التذكارية التي أحضرتها الخالة نسرين من بلادهم القديمة -فلسطين- نسخة طبق الأصل من مدينة القدس العتيقة، وصندوق جواهر مصنوع يدويًا ومرصع بالعاج الناعم.

كان الأب فخورًا جدًا بالأكواريوم، حيث كان ينظف الفلتر ويهز رقائق الطعام من خلال فتحة في الغطاء لإدخالها. في كل شهر، كان يضيف سمكة جديدة، مناديًا عفاف ومجيد لمشاهدتها فيما يمسك الأب الحقيبة مع السمكة الجديدة ويُفرغها داخل الخزان، وينتظر حتى تتأقلم السمكة مع درجة الحرارة قبل إطلاقها في منزلها الجديد.

هل تريان كم الأسماك سعيدة؟ كل سمكة لديها مساحة للسباحة، الجميع بأمان.

بعد ظهر أحد الأيام، كانت هي ومجيد يدوران حول مائدة القهوة وتعثر شقيقها، ويداه أمامه، وارتطم بالأكواريوم الذي تهشم ساقطًا على الأرض. اختبأا تحت سرير عفاف حتى أخرجتهما أمهما وضربتهما على مؤخرتيهما. تحدتهما أن يحركا عضلة واحدة قبل أن يعود الأب ويلقي نظرة إلى الأكواريوم الذي صار الآن شظايا في كيس قمامة مع نباتات سرخس جافة وأعشاب حشيشة الشعر والأسماك الميتة.

لا، لا، كان كل ما قاله الأب لعفاف ومجيد في ذلك اليوم. جلسا على سريرها، وركلا أقدامهما في إطاره متوترين وخائفين. غاص الأب في سرير ندى ووضع يديه في حِجره. يا للأسف، *كل تلك الأسماك. يا للأسف*. بعد أشهر، وجد مجيد زخرفة القلعة الزرقاء التي كانت تزين الأكواريوم، والتي تدحرجت تحت سرير الأريكة، واحتفظ بها في خزانة ملابسه مدة طويلة بعد ذلك.

كانت كلمات الأب كافية حتى تشعر بإحساس مريع استمر أسابيع. حاولت أن تتذكر كل سمكة بالضبط، لتكريم حياتها القصيرة. خيبا أمل الأب. كان ذلك أسوأ من أي صفعة تلقتها من الأم.

عفاف الآن أكبر من أن تُعاقب بالضرب. تلتقط كيس القمامة، وتتسل خارج الباب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

يحتاج الإطار الخلفي لدراجتها ذات السرعات العشر إلى النفخ، ولكن يُفترض أن ما به من هواء يكفي لإيصالها إلى ضاحية كاليفورنيا على مبعدة عشرة شوارع. تتمنى لو امتلكت سيارة مثل سميرة والعربيات الأخريات في مدرسة هوفر. حصلت على رخصة القيادة منذ الصيف الماضي. تقود دراجتها متجاوزة أكواخًا ومنازل من طابقين، لافتات الإيجار معلقة فوق النوافذ. تقريبًا في كل شارع عائلة عربية أو مكسيكية. أصبحت عائلة أو ماليز O'Malleys التي كانت تقيم في الجهة المقابلة من الشارع الآن عائلة هيرنانديز، وحل محل عائلة ريتشاردز عائلة صلاح الدين. تبقى عدد قليل من العائلات البوندية، الذين كانوا انطوائيين في أثناء تقليمهم شجيراتهم. ولم يلوحوا «مرحبًا» قط إليها.

على بعد خمسة شوارع من الشقة، ينكمش إطار دراجتها الخلفي تمامًا.

تتمتم عفاف: «اللعنة». تمشي بدراجتها عبر الشارع حتى محطة وقود.

تجلس القرفصاء بجانب مضخة الهواء المجانية، متجاهلة الدعابات التي يلقيها راكبو سيارة عابرة. تهسهس فوهة خرطوم الهواء. لا يبدو أنها تستطيع تثبيتها على نحو صحيح في صمام إطار الدراجة.

«هل يمكنني مساعدتك في ذلك؟»

ترفع عينيها. رامي عصفور يحدق بها، ابتسامة ترتسم على شفتيه. رامي في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية، وقائد ثلة من الأولاد العرب الذين يلعبون كرة السلة بعد المدرسة ولكنهم لم ينضموا قط إلى فريق مدرسة هوفر.

قالت له عفاف: «أستطيع فعل ذلك بمفردي». ظهرها متشنج. لم يتحدث معها من قبل في المدرسة.

«هنا». ينحني، ويلتقط خرطوم الهواء من يدها. «عندما تضغطين عليه بهذه الطريقة، يتسرب الهواء». يُدخل الفوهة في ساق الصمام وتنتفخ العجلة فجأة. «هل ترين؟»

«شكرًا». تنهض عفاف. يصطدم كعب حذائها بمسند الدراجة.

يشد رامي يده حول الجزء العلوي من إطار دراجتها ويدفعه إلى الأعلى والأسفل لفحص ضغط الإطار. ثم يتركه راضيًا. «هل يمكنني التحدث معكِ دقيقة؟»

تقبض عفاف بيدها على مقود دراجتها، وتدور بدراجتها حوله. «عن ماذا؟» مثل العربيات، يتجاهلها رامي وأصدقاؤه في المدرسة. شاهدت سميرة تضحك معه في الكافتيريا فيما تجلس عفاف إلى طاولة برفقة أشخاص وحيدين مثلها.

«أنا أعرف أخاكِ مَج». يبتسم، وعيناه البنيتان فاترتان، لكن لهجته ودية. «هيا. سنذهب في جولة بسيارتي. لا تقلقي. أنا قائد بارع».

مر وقت طويل منذ أن لم يتهمها أحدهم بشيء أو يطلق عليها أسماء فظيعة. تلين دفاعاتها. «ماذا عن دراجتي؟»

«اتركيها هنا. يمكنك أن تأتي وتأخذيها لاحقًا». يصعد مرة أخرى إلى سيارته، ويطل برأسه من خلال نافذة مقعد الراكب الأمامي. «يلا! اركبي».

تقفل عفاف دراجتها في السياج الدائري الذي يحيط بمحطة الوقود. بدأت الشمس تغرب في السماء. لا تعتقد أنها ستتمكن من الرجوع إلى المنزل قبل إضاءة مصابيح الشوارع، لكنها لا تهتم. هي موقوفة من المدرسة مدة ثلاثة أيام - ما مقدار المشكلات التي يمكن أن تتورط فيها أكثر من ذلك؟

مزيج من رائحة كريم ما بعد الحلاقة ودخان السجائر لا يزال عالقًا في الهواء داخل سيارة رامي. نسخة مصغرة من المصحف تتدلى من مرآة الرؤية الخلفية. رأت الشيء نفسه في سيارة أمجد، السيارة التي اشتراها الأب من صديقه. أزالتها الأم على الفور. ومع أن أيًّا من والديها لم يكن متدينًا، فقد تراءى لها الأمر أشبه بفقدان تميمة أو طلسم - شيء قد يحافظ على سلامتهم جميعًا. تتساءل عفاف في بعض الأحيان، لو كانوا يصلون بانتظام -بالطريقة التي يذهب بها الأمريكان إلى الكنيسة كل يوم أحد- هل كانت الأمور لتسير بشكل مختلف؟ لو كانوا مؤمنين ولو قليلًا، فربما لأمكنهم تجاوز أسوأ ما يمكن أن يحدث لأي عائلة. ربما استمع الله إليهم. ألم تُستجب دعوات الخالة نسرين بعد كل هذه الإجهاضات؟ استغرق الأمر سنوات، لكن ابنة خالتها أمل وصلت أخيرًا إلى الدنيا.

يرتدي رامي ساعة باهظة الثمن تهتز فوق معصمه، غير مناسبة وثقيلة. تتوقع عفاف أنه مثل كثير من الأولاد العرب

الآخرين، سيتولى إدارة متجر والده لبيع الخمور أو محطة وقود ذات يوم. رأت رامي في أرجاء المدرسة وهو يصفع قفا أحد أصدقائه بعبث قبل أن يهرول في الممر. العرب يأكلون وجبة الغداء على طاولتين منفصلتين: الأولاد فوق إحداهما، والبنات فوق الأخرى. لا تتذكر رؤية ماجد يتسكع برفقتهم. يلازم في الغالب زملاءه في فريق البيسبول، ويعود إلى المنزل مباشرة بعد التدريب. تتساءل عفاف ماذا يريد رامي منها وما الذي سمعه عنها؟

يقود رامي السيارة بها إلى حديقة ماركيت في ضاحية كيدزي. تتذكر عفاف أستاذ مادة التاريخ، السيد سليد، وهو يخبر فصلها عن الاحتجاج الشائن قبل عشرين عامًا في الحديقة حيث سار المتظاهرون حاملين لافتات تطالب بـ «*الحفاظ على أحياء بيض البشرة، بيضاء*». أُصيب مارتن لوثر كينج جونيور بحجر أجبره على الركوع على ركبته فوق الأرض. بعض الأشخاص الذين تراهم عفاف من خلال نوافذ السيارات المتوقفة المصطفة بمحاذاة البحيرة لون بشرتهم بني وأسود، لكن معظمهم لا يزالون بيض البشرة.

رامي يوقف السيارة بمحاذاة الرصيف في طريق فارغ. تتحرك عيناه عدة مرات إلى مرآته، كما لو أنه يتأكد من أن المنطقة خالية. تتقلص معدة عفاف وتبدأ بالندم على ركوب سيارته. يغلق الراديو ويقرع عجلة القيادة بإبهامه.

«هل تعرف أخي مجيد؟» تقول عفاف لتقطع الصمت المحرج بينهما.

«نعم، أعرف مَج. كل الفتيان يعرفونه. إنه لأمر مخز أن يكون لديه أخت عاهرة إلى هذه الدرجة».

قبل أن تستطيع حتى أن تطرف بعينيها مصدومة من إهانته، يصفعها رامي. ترتطم يده في الغالب بأذنها وجزء من خدها. تنكس عفاف رأسها غريزيًا، وتحمي وجهها بذراعيها.

يشد شعرها، ويجبرها على النظر إليه. «توقفي عن الفجور، واحترمي نفسك! احترمي أناسكِ! أتفهمين؟» يحرر شعرها. «الآن اخرجي من سيارتي!»

تتحسس عفاف مقبض الباب، ثم تسقط على الرصيف. رامي يبصق من نافذته قبل أن تعوي عجلات سيارته عندما ينطلق مبتعدًا.

ترفع نفسها عن الأرض، وتنظر حولها في ذهول.

يصرخ أحدهم من سيارة قريبة: «هل أنتِ بخير؟» ثم يوقف السيارة بجانبها.

صرخت ردًا عليه: «أنا بخير» دون أن تنظر إليه. ساقاها ترتعشان بشدة لدرجة أنها دست يديها في جيوبها فقط للحفاظ على جسدها ثابتًا. تنطلق السيارة بعيدًا. تتذكر دراجتها.

تشتم بصوت عال: «اللعنة!». تتنشق دموعها، وتتجه نحو محطة الوقود، على بعد ستة شوارع تقريبًا. غربت الشمس. الرياح المسائية تعوي في أذنيها وهي تهرول بأسرع ما يمكنها دون أن تركض. تقول لنفسها أن تبقى هادئة، أن تستمر في المشي. تتحسس وجهها. لا تزال صفعة رامي تصعقها، لكن ما نعتها به يجرحها أكثر.

عاهرة.

ما نعتت به أمها تلك المرأة الأخرى منذ سنوات. المرأة المجهولة الوجه والهوية التي أمضى معها الأب ساعات بعيدًا عنها وعن مجيد، التي خان والدتها معها. استمرت هذه العلاقة بضع سنوات بعد ذلك، رغم توقف أشياء أخرى بعد اختفاء ندى، مثلما يتوقف قطار فجأة، مكابحه تصدر عويلًا غاضبًا. فرقة بلدنا، ضحكة الأم النادرة. لا تزال الخسارة تحوم في الأجواء مثل آلام التهاب المفاصل، تتأجج مع هطول المطر، وتُنسى في ضوء الشمس.

السياج فارغ. اختفت دراجتها. تجري داخل محطة الوقود. ثمة طابور أمام ماكينة الصرف. رجل طويل يرتدي بذلة زرقاء داكنة وحذاء عمل طويل الرقبة يشتري تذاكر يانصيب. وخلفه امرأة عجوز خصلات شعرها البيضاء ملفوفة ببكرات، وتعتمر شبكة شعر، تحمل جالونًا من الحليب بكلتا يديها.

تنفعل عفاف: «أحدهم سرق دراجتي!» يواصل الصرَّاف ثقب الأرقام. «عمَّ تتحدثين؟» وجهه مليء بالبثور. يرتدي قميص فرقة أيرون مايدن Iron Maiden.

«ربطتُها بالسياج».

سلم الصراف الرجل الطويل ذا البدلة تذكرة اليانصيب. «من قال لكِ أن تتركيها هناك؟»

عفاف عاجزة عن الكلام. تبتسم المرأة العجوز ابتسامة حزينة وهي تهز رأسها. تندفع عفاف خارج المحطة ورأسها يموج بالأفكار. أمها على حق. *هي بنت ضايعة.. فتاة تائهة.*

6

يطرق مجيد باب حجرتها. «هل أنتِ بخير؟» يطل برأسه داخل الحجرة. شعره مبلل من الاستحمام. «أين كنتِ؟»

تتقلب عفاف في سريرها وتواجه الحائط. «اتركني وحدي». استغرقت نصف ساعة للوصول إلى المنزل. ذهبت مباشرة إلى غرفتها، الأم لا تزال في المطبخ كما كانت عندما غادرت عفاف قبل ساعات.

يتحدث شقيقها بلهجة صبورة كأنه الأكبر: «إذًا ماذا حدث في المدرسة».

تجأر قائلة: «ليس من شأنكَ».

يتنهد مجيد، متكئًا على إطار الباب. «لماذا عليك أن تتصرفي هكذا يا عفاف؟»

تستدير حتى تواجهه: «هل يجب أن أكون مثالية مثلكَ؟»

«أنا لست مثاليًّا». صوته ينخفض. «ليس عليك أن تجعلي الأمور أسوأ بالنسبة إلى ماما. هي...».

«أنت دائمًا تنحاز إليها. هل خطر على بالك يومًا أنها ربما تكون سبب بؤس بابا لهذه الدرجة؟ لماذا خانها؟!» صوتها ينخفض أيضًا، هامس بشكل خطِر، كلماتها سامة - تريد أن تسمم صورة أخيها المقدسة عن أمهما.

المرة الأولى التي تتحدث فيها عن علاقة أبيها الغرامية مع مجيد. مثل كل شيء آخر في حياتهما، تجنبا الحديث عن الأشياء التي لا سيطرة لهما عليها، أو أي رأي فيها.

«هذا ليس عدلًا يا عفاف، وأنت تعلمين ذلك».

«ماذا أعلم؟ هاه؟» كل الغضب والألم ينفجر فجأة في صدرها. دراجتها المسروقة، صفعة رامي، تحذير كوتش فيليبس، الجيلي العالق في شعرها، مايكل ويلسون وجميع الأولاد الآخرين.

تدفن وجهها في وسادتها وتبكي حتى تجف عيناها. يقف مجيد أمام سريرها، ثم يتجه إلى مشغل الأسطوانات، ويدس أسطوانة ألبوم «شعر» من حافظة بالية تتقشر ببطء من عند الأطراف. ينزلق بجانبها على السرير، ويلف ذراعه حول كتفيها. لا يتفوه بكلمة، لا يصدر عنه صوت إلا أنفاسه الناعمة بالقرب من أذنها. لا تدفعه عفاف بعيدًا.

من السهل أن تكون قاسيًا.

تنبعث كلمات الأغنية من خلال مكبرات الصوت في حين تستمع عفاف مع شقيقها، كما فعلا عندما كانا صغيرين.

الهاتف يرن. ذراع مشغل الأسطوانات يفوِّت بضع ثوانٍ من الأغنية.

تدعك عفاف عينيها المغبشتين بالدموع. «كم الساعة؟» صوتها أجش كأن فمها محشو بالقطن. رنين الهاتف القادم من المطبخ لا ينقطع. يندفع مجيد للرد على الهاتف، وعفاف تسمعه في المطبخ وهو يجيب. «مرحبًا؟ نعم. هذا ابنه».

تتعثر عفاف في أثناء مغادرة فراشها. «من هذا؟» يبدو صوتها أخنف وغير مألوف بالنسبة إليها.

بعد ثوان، تضع الأم يديها فوق كتف مجيد. «خيرا» عيناها شاحبتان من فرط الرعب.

يرفع إصبعه في إشارة إلى التزام الصمت. «نعم.. نعم. سنحضر حالاً. شكرًا يا سيدتي». يعيد السماعة إلى مكانها، ويفرك مؤخرة رأسه. «تعرض بابا لحادث».

تومض صورة جسد الأب المنسحق تحت حمولة من الألواح على أرضية المصنع في ذهن عفاف. تشعر بالدوار. «يا إلهي!»

تولول الأم: «يا ربي! ماذا حدث لك يا محمود؟»

يلتقط مجيد الهاتف مرة أخرى ويطلب رقمًا. الساعة الثانية صباحًا. «مرحبًا عمو زياد. أنا مجيد. لا.. لا. نحن بخير. الأمر يتعلق ببابا».

* * *

في المستشفى، يعلمون أن الأب لم يصل قط إلى المصنع هذا اليوم. صدم سيارته في مصباح الشارع على بعد عدة بنايات من الشقة. عينه اليمنى مغلقة بسبب التورم حولها، وأنفه مكسور. معصمه واثنتان من أصابع يده مكسورتان. أصيب كاحله الأيسر بالتواء. كان تصادمًا مروِّعًا.

تقف الأم فوق جسده الفاقد الوعي، وتمسِّد جبهته. «*ليش هيك (لماذا) يا محمود؟ كيف حدث هذا لك؟*»

تحبس عفاف دموعها وتغطي يده اليمنى بيدها.

بجانبها، يهمس مجيد في أذنها: «كان يمكن أن يموت يا عفاف». صوته متهدج.

قالت بصوت عالٍ: «سيكون على ما يرام». الأنابيب الوريدية تتلوى من معصمه الأيمن إلى حامل وريدي متحرك. جهاز مراقبة نشاط القلب يومِض فوق رأسه. رائحة الأمونيا ومعدن قوية. هذه

المرة الأولى التي تدخل فيها عفاف إلى مستشفى. عندما ذهبت الأم في «مشوارها الصغير» في الماضي، لم يُسمح لعفاف ومجيد بالزيارة. كانت تعرف حينها أنه ما كان مستشفى عاديًا.

تدخل ممرضة بيضاء البشرة مع مخطط، وتنظر إليهم. كانت ترتدي كنزة بنية قبيحة فوق رداء المستشفى الأخضر الفاتح. تسحب من جيبها قلمًا كبير الحجم. قالت لهم: «كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير.. أسوأ بكثير». تتحقق من الوصلة الوريدية. «أنا باتريشيا. ممرضة وردية الليل الأولى. سيحضر الطبيب قريبًا للتحدث معكم. أخبروني إن احتجتم إلى شيء». تتحدث إليهم بصوت عالٍ وببطء، كأنهم لا يستطيعون فهمها. عادة لاحظتها عفاف في تعامل الأشخاص البيض معهم.

ترفرف جفون الأب، وشفتاه ترتعشان، لكنه لا يستفيق. يأتي الجراح في رداء المستشفى الأزرق الشاحب لمحادثتهم. الطبيب شاب، وشعره مفروق إلى الجانب مثل شعر تلميذ. «أنا د. موريسون. الجراح المعالج». يصافح ثلاثتهم.

«كيف حدث هذا؟» تسأل ماما وهي تُمسِك حفنة من المناديل الورقية المتسخة.

«كان مخمورًا..». يلقي نظرة إلى مخطط الأب. «يا سيدة رحمن».

تحدق الأم بعينين متسعتين، غير مستوعبة.

«كان ثملًا. مستوى الكحول في دمه كان عند النقطة العاشرة عندما أُدخِل إلى المستشفى».

يدور عقل عفاف في ارتباك مذعور. ألم يكن يحضنها منذ مدة وجيزة اليوم في الشقة؟

أنتِ فتاة طيبة.

بعد بضع دقائق، يأتي ضابط شرطة ويقتادهم إلى الممر خارج الغرفة. زياد يقف بالقرب منهم في غرفة الانتظار. يُسمَح فقط للعائلة بالوجود في غرفة المريض. كان قد قاد بهم السيارة إلى المستشفى وهو يرتدي بنطلونًا قماشيًا وصندلًا. شعره الأشيب غير ممشط.

يسرد الضابط ببطء ملخص ما حدث. اتصل والدها برئيسه من هاتف عمومي في حانة في ضاحية أشلاند. أبلغ صاحب الحانة الشرطة أن رجلًا -عربيًا، أو من بورتوريكو ربما- كان يشرب طوال الليل.

قال الضابط: «هو محظوظ لأنه لم يقتل أحدًا. السيارة محطمة تمامًا».

يهز زياد رأسه بصمت، ويضع يده على كتف الأم. «لا حول ولا قوة إلا بالله».

يوجد أشخاص في جميع أنحاء الممر، وممرضات يندفعن بأكياس شفافة من المحلول الملحي، ومرضى على كراسي متحركة، وزوار يتعانقون ويتشبث بعضهم ببعض في حين يتلقون أخبارًا جيدة أو سيئة. هذا الطابق يعج بالضحايا؛ ضحايا حوادث سير، وأشخاص مصابين بطعنات وأعيرة نارية، وأطفال بأذرع وأرجل مكسورة. على الجانب المقابل من غرفة الأب، تستطيع عفاف رؤية ساقين حليقتين تتدلى من زي مستشفى. امرأة عجوز

تقرأ من الكتاب المقدس عند قدم السرير.

الأم تبكي، ومجيد يلف ذراعه حول كتفيها. نما مجيد حتى صار أطول من والدتهما - أطول من عفاف أيضًا.

بعد أن انتهى الضابط من أخذ إفادتهم، يتركان الأم وحدها مع أبيهما. بمجرد خروجه من المستشفى، سيُحتجز لقيادته تحت تأثير الكحول.

يعطيهم زياد نقودًا معدنية لاستخدامها في ماكينات البيع الآلي، ويرجع إلى غرفة الانتظار. عفاف ومجيد يتوجهان إلى كافيتريا المستشفى.

يقول مجيد وهو يشرب من علبة «دكتور پيپر» التي اشترها: «لا أصدق أن هذا يحدث».

تنتظر عفاف أن ينتهي صب الشوكولاتة الساخنة من الماكينة في كوبها. «قالت الممرضة إنه كان يمكن أن يكون أسوأ، يا مَج».

«سيذهب إلى السجن يا عفاف!» صوته حاد، عفاف تلمح طيف الطفل الصغير الذي لطالما تمسَّك بكمِّها عندما كانا صغيرين. لم تقل أي شيء آخر. مخالفة القيادة تحت تأثير الكحول. مشاهد من فصل تعلم القيادة تعبر في ذهنها: إعادة تمثيل مريعة للسائقين وهم يبحثون عن مفاتيحهم فيما كان زملاؤها في الفصل يضحكون؛ تظهر وجوه وأسماء الضحايا في نهاية مقطع فيديو، ورسالة من رابطة *الأمهات ضد القيادة تحت تأثير الكحول*. لا يمكنها تذكر عقوبة إلينوي على أول مخالفة. تنقر بأصابعها على حافة كوبها على أمل ألا يلاحظ مجيد أنها ترتجف.

يمكث الاثنان في الكافيتريا، وهما يشاهدان العاملين والممرضات في فترات الاستراحة وهم يتناولون الخبز المحمص ورقائق الحبوب. توجد عائلة مكونة من خمسة بالغين متجمعة حول الأكواب البلاستيكية، أكتافهم محنية، أعينهم مبللة بالدموع، يتنشقون بين رشفات القهوة. صدر عفاف ينتفخ بشيء لا تستطيع تسميته.

7

عندما سُرح الأب أخيرًا من المستشفى بعد أسبوع، اقتاده اثنان من ضباط شرطة شيكاغو إلى عربة شرطة مصفحة، جنبًا إلى جنب مع عدد قليل من الرجال الآخرين الذين تعافوا بما يكفي من إصاباتهم ليُنقَلوا إلى السجن. كبرياء الأم تمنعها من الاتصال بالخالة نسرين وطلب مساعدة زوجها في كفالة الأب. بدلًا من ذلك، أمرت مجيد بالاتصال بزياد مرة أخرى، وهو وزميل الأب الآخر في الفرقة، أمجد، يأخذان الأم إلى الشقة القديمة في ضاحية كاليفورنيا. تسحب رزمة صغيرة من الأوراق النقدية من فئة عشرين دولارًا، النقود التي كانت تحتفظ بها في خزانة ملابسها.

«هذا لن يكون كافيًا! يا ربي!» تقول متبرمة. ظلت تدخر هذا المبلغ لسنوات، من خلال الاحتفاظ بقليل من المال جانبًا بعيدًا عن حسابات الأب.

يؤكد لها مجيد: «لا تقلقي يا ماما. العم زياد وأمجد يعرفان ماذا سيفعلان».

اتضح أن أول جريمة في إلينوي تعدّ جنحة. ولعدم وجود سجل سابق للأب، حكم القاضي بتغريمه بخمسمئة دولار، وحكم عليه بثمانية عشر شهرًا في خدمة المجتمع، والخضوع للمراقبة. رخصته موقوفة لمدة تسعين يومًا.

يدفع رفيقا الأب الغرامة ويعيدونه إلى المنزل. حملاه عبر مجموعتين من السلالم إلى داخل الشقة. مثل والدها، تقدم

الرجلان في العمر، لكن وجهيهما مختلفان عن وجهه. خطوط من الحبور تحفر جباههم وتجاعيد دقيقة تختم بفخر زوايا أعينهما. وجه الأب في المقابل ساحة معركة، التجاعيد غائرة مثل الخنادق. ابنا زياد متزوجان -كانت ندى لتبلغ العمر نفسه الآن- وحفيده الأول في الطريق. ابنة أمجد الوسطى عُقِدت خطبتها مؤخرًا.

أجلساه في غرفة نوم والديها، مكان لا يدخله الأب إلا لاستعادة ملابسه النظيفة أو ترك بعض النقود لأمهما فوق خزانة الملابس. تضع الأم مجموعة من الوسائد خلفه، وتتأكد من أنه ليس دافئًا جدًّا تحت بطانية إضافية. تلاحظ عفاف نظرة طويلة يتبادلها والداها – نظرة غير مألوفة وعجيبة. الأم لا تشكو مما كان يمكن فعله بالخمسمئة دولار، وكم أنها لا بد أن تشعر بالإذلال لكونها مدِينة لرجال آخرين. بهدوء، تعد فريكة الدجاج - بالطريقة التي تطيب للأب تمامًا. تجلس معه حتى يغمس آخر ملعقة من حساء الشعير بقطعة من الخبز.

يتأجج شيء بينهما من جديد، عفاف وشقيقها يتراجعان إلى الخلفية، ويتفرجان مرتبكين ومتفائلين. تهمس لهما الخالة نسرين قائلة: «كالعروسين من جديد».

مجيد هو من يتصل بخالتهما، التي تأتي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع برفقة ابنتها الرضيعة، وتساعد الأم في غسل الملابس وإعداد وجبات الطعام لأسبوع. من حين إلى آخر تختلس الخالة نسرين بضع نفثات من سيجارة الأم، وتخرج الزفير من أنفها. بدأت الأم بالتدخين منذ الحادثة، سجائر فيرجينيا سليمز الطويلة والرفيعة التي ترسل مجيد لشرائها من متجر أدوية

بيكسي بالقرب من الشقة. تصر على أن يشتري لها السجائر التي تُباع بالواحدة لأنها أرخص من تلك التي تُباع بالعلبة.

تصحب عفاف ابنة خالتها أمل في نزهة حول المبنى، تدفع عربة الأطفال كما لو أنها طفلتها. تصيح الطفلة بود في الكلاب التي تتوقف لشمها، ويبتسم أصحابها ويومئون برؤوسهم تجاه عفاف. عانت خالتها سنوات من العقم وإجهاضين. نصيب *يا حبيبتي*، كانت خالتها تهمس في أذنها عندما تنحني عفاف لتقبيل الخالة نسرين وهي مستلقية في سريرها في كينوشا في مرحلة التعافي بعد أن فقدت طفلها الثاني. تربت على ظهر يد عفاف، تبتسم لها بوجه حزين وبعينين مبللتين بالدموع. عندما وصلت الطفلة أمل إلى الدنيا، كانت فرحة خالتها وعمها محسوسة. الأطفال، كما تفهم عفاف، من المفترض أن يكونوا نعمة.

في الشقة، الأب مريض هادئ. عندما يتمكن أخيرًا من استعمال أصابعه، يعزف على عوده وتحلق الألحان من غرفة نوم الوالدين وتنتشر في أرجاء الشقة مثل روح بُعِثت من مكان منسي منذ زمن طويل. في الماضي، اشتكت الأم من عزفه العود إذ كان عزفه يمنعها من سماع صوت التلفاز في أثناء طهيها. الآن تلتزم الصمت فيما ينقر بابا على أوتار آلته الموسيقية، وتلمح عفاف والدتها تدندن بأغنية على لحنه المألوف لها، وهي تجفف الأطباق أو تقطع الخضار.

عندما ترجع عفاف إلى المنزل من المدرسة، تسمعهما يتضاحكان في غرفة نومهما. هذا يؤلمها قليلًا، حيث تُترك خارج شريحة السعادة هذه. تشعر بميل إلى إلقاء التحية عليهما، لكنها

تغيِّر رأيها. لا تريد إزعاج أصواتهما العذبة. تلتقط بهدوء علبة صودا من الثلاجة وتستعد لمناوبتها في متجر ديري كوين.

* * *

طبيب الأب يعطيه التصريح بأداء خدمة المجتمع الإلزامية. كانت ذراعه لا تزال في جبيرة عندما استقل الحافلة إلى ضاحية كاليفورنيا للانضمام إلى مجموعة من الرجال الآخرين تحت المراقبة. مهمتهم إزالة حطام ومخلفات من على الطريق السريع I-55. مع أن كاحله قد تعافى، ما زال أسفل ظهره يؤلمه من تأثير الاصطدام. تمسك عفاف بوالدها وهو يتأرجح في كل مرة يقف فيها، لكنه لا يشتكي أبدًا. أنفه معوج قليلًا بطريقة تجعله يبدو أكثر قسوة في تناقض مع الدفء الذي عاد إلى عينيه، بريق لم تره عفاف منذ سنوات.

كانوا في مايو، والأيام أمست أكثر دفئًا. عفاف على بعد أسابيع من التخرج في المدرسة الثانوية. تتجنب رامي وأصدقاءه، بالعزوف عن استخدام السلالم، وتغيير اتجاهها في ممرات المدرسة. تهمس سميرة والعربيات الأخريات وهي تمر أمامهن. كيلي ماكفرسون وأمبر ريفز يتحدثان بازدراء عنها في الكافتيريا، لكنها تتحاشى مواجهتهما. منذ حادثة السيارة التي تعرض لها الأب، قررت أنه لن يكون هناك مزيد من الحوادث أو الشجارات في مدرسة هوفر الثانوية، ولا مزيد من المتاعب. لا يمكنها شرح ذلك، لكن شيئًا قد تغير فيها منذ تلك المكالمة الهاتفية في منتصف الليل. قلما تغادر الشقة، وعندما تغادر يكون ذلك إمَّا إلى المدرسة وإما من أجل الذهاب للعمل في متجر ديري كوين.

يبدو الأمر كما لو أن وجودها في محيط المنزل سيمنع بطريقة ما وقوع كارثة أخرى - ربما أسوأ بكثير من حادثة سيارة الأب.

حتى الأم لانت قليلًا. يشبه الأمر الجلد الجديد المتكوِّن بمجرد إزالة قشرة جرح. تربت على كتف عفاف وهي تدور حول مائدة المطبخ، وتحمل الأطباق التي كانت عامرة بوجباتها الشهية لتضعها فوق مائدة العشاء. تعلو ابتسامتها وجهها بسهولة أكبر الآن، مثل نسيم ينفذ عبر باب مفتوح. ابتسامة رأتها عفاف سابقًا في صور صندوق الأحذية القديم، وقلما رأتها في الواقع.

الليلة، يتصاعد البخار من ملفوف الأم الذي غرفته في طبق فضي. تقف أمام حوض المطبخ وتنظف قِدرًا كبيرًا. يجب تنظيف جميع القدور والمقالي قبل أن تجلس لتناول الطعام معهم. باتوا يأكلون معًا بشكل متكرر أكثر، وينخرطون في محادثة مهذبة بشكل غريب، ولكن متحفظة.

قال الأب وهو يمسك شوكته: «جاء قسيس لرؤيتي».

تضع عفاف نصف دزينة من أوراق الملفوف في طبق والدها. تسأله: «أي قسيس يا بابا؟» مجيد ينظر إلى الأب، وعيناه العسليتان فضوليتان ويقظتان.

«في المستشفى. يرسلون القساوسة. تعلمون —حتى نصلي مع المرضى الذين يعانون مرضًا شديدًا. أو يحتضرون». يتنحنح الأب كما لو أن هذه الكلمات الأخيرة تخدش حلقه.

تغلق الأم الصنبور وتواجههم. «ما الذي تتحدث عنه يا محمود؟»

انتقل الأب إلى الحديث باللغة الإنجليزية: «قال لي: (أعلم أنك لست مسيحيًا، يا ابني، لكنك تؤمن بالرب، نعم؟ ليحفظك

الـرب يـا بنـي. يمنحـك الـرب فرصـة ثانيـة للعيـش. للعيـش بشـكل صحيـح)».

تختلس عفـاف نظـرة إلـى مجيـد الـذي يرفـع حاجبيـه إليهـا. تهـز كتفيهـا. لـم يتحـدث الأب قـط عـن الـرب أو الديـن. تعـرف أنـه والأم لا يصليـان أو يصومـان رمضـان وفـي المقابـل تفعـل الخالـة نسـرين وعمـو يحيـى ذلـك. تعـرف بحلـول العيـد فقـط مـن خـلال المكالمـات الهاتفيـة البعيـدة التـي تجريهـا الأم مـع والديهـا فـي البلـد فلسـطين.

يمـد الأب يـده إلـى يـد الأم. «سـامحيني، يـا منتهـى. رجـاء اغفـري لـي».

تبـدو الأم مدهوشـة. ثـم ينتشـر تعبيـر قديـم غيـر منطقـي علـى وجههـا مثـل الـدم الـذي يتسـرب مـن جـرح. ثقـب الأب شـيئًا مـا. جميعهـم يشـاهدون وجـه والدتهـا يتداعـى.

«إذن هـل وجـدت الديـن؟» كلماتهـا مشـوبة بالاشـمئزاز، وعيناهـا تتحـولان إلـى لـون أخضـر زمـردي، وقـد عـلا وجههـا تعبيـر جـاد. «بعـد كل هـذه السـنوات تعتقـد أن الـرب سـوف يغفـر لـك يومًـا مـا؟ أنـا بالتأكيـد لـن أفعـل ذلـك». تخـرج الأم مـن المطبـخ، وتغلـق بـاب غرفـة نومهـا وراءهـا.

يسـتدير الأب نحوهمـا. عفـاف مذهولـة أيضًـا. مـا الـذي حـلَّ بأبيهمـا؟

«لهـا كل الحـق فـي أن تكـون حانقـة، يـا أولاد. سيسـتغرق الأمـر بعـض الوقـت، لكننـي سـأعوضها». يمسـك الأب بيديهمـا عبـر طاولـة المطبـخ. قـال لهمـا باللغـة الإنجليزيـة: «أنـا آسـف. سـأضع الأمـور فـي نصابهـا الصحيـح للجميـع».

تشعر عفاف للحظة بإحساس والدتها بالاضطراب. كان كارثيًا، هذا الاعتذار من الأب، كان بمثابة اعتراف بكم أن حياتهم محطمة. لكن والدها ليس المُلام الوحيد - لطالما عرفت عفاف ذلك. كلهم مذنبون. منذ رحيل ندى، تقوقعت داخل نفسها، وراحت تداوي الألم الذي كان يرشح منها ببطء، معتقدة أن حزنها كان الأسوأ. ألم يفعلوا جميعًا الشيء نفسه، ألم تكن خسارتهم العميقة الجماعية ما ساعدتهم على المضي قدمًا؟ الأب هو أول من دفع بما يشبه آلة ثقب الصخور ليخترق تلك الخسارة مما زعزع الأرض الجامدة، ودفعهم إلى الحياة مرة أخرى. لكن هل يمكن رأب صدع جراحهم بهذه السهولة؟ يبدو أن هناك كثيرًا من الشظايا الحادة حتى يُعاد تشكيلهم إلى شيء يشبه الطبيعي. ضاع كثيرٌ جدًا من الوقت.

يعود والدها إلى سرير الأريكة في ذلك المساء. تعطيه عفاف مسكن الألم، وتضع الأغطية برفق على جسده المتقدم في السن، مع الحرص على عدم إزعاج عظامه الآخذة في الالتئام.

8

يغادر الأب المنزل مبكرًا كل مساء قبل أن يبدأ مناوبة عمله. بعد مخالفة القيادة تحت تأثير الكحول، طرده رئيسه في مصنع بلاستيك داير. بدأ وظيفة جديدة في محطة وقود يملكها مهاجر فلسطيني ثري من معارف صديقه أمجد. مهنة وضيعة والمال أقل، لكن الأب سعيد بقبولها، وكما هو الحال مع كل المصاعب الأخرى التي واجهها من قبل، لا يشتكي.

يصلي في المنزل كل مساء، في مواجهة الركن الشرقي من غرفة العائلة بعد طقوس الاغتسال في الحمام. تقف عفاف في الردهة تراقب والدها، ظهره لها. يضع سجادة حمراء مخملية عليها صورة مسجد فخم كالقصور منسوج في الوسط، مآذن بخيوط ذهبية. تتساءل من أين حصل على السجادة. ينثني جسده في الركوع، ثم يسجد على الأرض، ورجلاه مطويتان تحته. عندما يرفع الأب نفسه من السجود، تسمع أنينًا طفيفًا، ويمكنها بدورها استشعار الألم أسفل ظهره. تنسحب بهدوء إلى غرفتها قبل أن يفرغ من الصلاة.

انتهى الصيف تقريبًا. الأب مشغول بلقاء مجموعة جديدة من الرجال - منظمي المركز الإسلامي في شيكاغو الكبرى. يريدون بناء مسجد ليحل مكان المركز المدني القديم في شارع ثلاثة وستين بضاحية كيدزي، مجمَّع متداعٍ حيث يتجمع معظم الرجال للصلاة أيام الجمعة ويوم العيد. تستضيف النساء موائد الإفطار الرمضانية، ويدرن حضانة أطفال خلال النهار. وجدوا قطعة

أرض خارج المدينة، قبالة الطريق السريع 55، في بلدة صغيرة تسمى تيمبست، وبدؤوا بتقديم التماس لتملُّكِها.

صحوة الأب الدينية تزلزل كيان عفاف. هو جانب جديد من والدها لا تستطيع فهمه تمامًا. عفاف سعيدة لأنه عزف عن معاقرة الخمر، وكرَّس نفسه للتعافي. ولكن يبدو الأمر كما لو أنه عثر على عين ماء ويريد أن يشربوا منها جميعًا. ليست متأكدة من إنْ كانت تلك المياه آمنة، وتظل مترددة. يمكنها أن تقول إن ذلك يوتر مجيد أيضًا. يبقى شقيقها حذِرًا تجاه والدهما، كأنه يسير فوق جسر قد ينهار في أي لحظة.

«هل تعرفون عدد الكنائس الموجودة في ولاية إلينوي؟» يشتكي الأب في إحدى الليالي. «ألف. وكم عدد المعابد البوذية والمجامع اليهودية؟ ألف وعشرون».

يضرب يديه في الهواء كما لو كان يُحصي العدد من أجل طفل، مشددًا على ضخامة هذه الحقيقة. «وكم عدد المساجد فيها؟ ها؟!». سمعت عفاف عن المسجد الذي تقود الخالة نسرين سيارتها لمدة خمس وأربعين دقيقة لحضور الصلاة فيه في ميلووكي كل يوم جمعة. أسسه مجموعة من الرجال المنفيين من اليمن عام 1979.

«مسجد واحد». يشير الأب بسبابته في وجوههم. «واحد. نحن أيضًا لنا الحق في أن نجتمع ونصلي. إنه حقنا الإنساني».

لم تمارس عائلة عفاف شعائر الإسلام سوى في الاحتفالات الصغيرة بالعيد مع الخالة نسرين. ترتدي الأم عباءة على مضض ويقودون السيارة لمدة ساعة ونصف إلى كينوشا. الإسلام دين

لا تعرف عنه سوى القليل جدًا، معرفة تقتصر على مفاهيم *الحرام والعيب*: المقامرة وشرب الكحول وممارسة الجنس قبل الزواج. تتذكر لوحة معلَّقة في منزل سميرة لرجل عجوز يحمل على ظهره مدينة عتيقة، ومسجد بقبة ذهبية شاهقة يرتقي فوق منازل حجرية ذات أسقف من القرميد البرتقالي. كانت عفاف تحدق في اللوحة مدة طويلة، وتتخيل الرجل العجوز إله العرب، الذي حمل وحمى أسلاف والديها، ويحمل عبأه إلى الأبد. كان شخصية دون زينة، حافي القدمين ويعتمر عمامة. مع تقدمها في السن، تلاشى الرجل العجوز من وعيها، وظهر نوع آخر من الرب - كائن بعيد، مكفهر الوجه، تحسب له ألف حساب عند وفاتك، مثل الشخص الذي يأمر موسى في الفيلم الذي يُعرض كل ليلة أحد في عيد الفصح. لم تصلِّ قط لأي رب، ولا حتى عندما اختفت أختها.

يبتسم مجيد لتصريح والدهما الجريء.

ينفعل الأب: «على ماذا تضحك؟»

«لا شيء. إنه فقط..». ينظر مجيد إلى عفاف، لكنها تلتزم الصمت. هي أيضًا غير متأكدة من كيفية التصرف. «يبدو كأنه حلم يا بابا».

يعترف الأب: «نعم، نعم. هو حلم يا حبيبي. حلم سيتحقق إنْ كان لدينا جميعًا الإيمان. قولوا إن شاء الله».

تقول عفاف: «إن شاء الله». كلمة بسيطة تبدو زاخرة بالوعود، ولكن من دون ضغوط الفشل. كلمة ترضخ فيها إلى سلطة قد

تقرر في النهاية كل مصائرك، وترفع العبء عن نفسك. مجيد صامت. يقولها الأب مرة أخرى: *إن شاء الله*.

ينخفض مستوى صوت التلفاز في غرفة نوم والديها. الأم تستمع. انكسرت مدة الوئام بينها وبين الأب منذ أن بدأ والدها يتحدث معهم عن النبي محمد، الراعي الأميّ، وكيف أنزل الله كلمته من خلال نصوص يمكن أن يقرأها محمد بأعجوبة وينشرها في المجتمع. لا تستطيع عفاف فهم ذلك: يبدو أن الأب يريد أن يُحسِّن من نفسه ويقوِّمها، والأم توبخه على ذلك.

«أعطانا الله هدفًا في هذه الحياة. الصلاة، والصوم، والعطف على الفقراء، وأداء فريضة الحج. وفوق كل شيء، الإيمان بإحسانه، وأنه هو الله الواحد الأحد، وأن محمدًا نبيه الحقّ».

تفكر عفاف في الوعَّاظ الإنجيليين على التلفاز، البرنامج الذي يُعرض في الواحدة صباحًا عندما يكون الأب في العمل فيما تصارع هي نوبة أرق.

«يقول النبي: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فأعلم أنه يراك)». بدا الأب صادقًا جدًّا، ووجهه منشرح وحالم، والتجاعيد الموجودة على جبهته تتلاشى قليلًا. «لا يفوت الأوان أبدًا».

فجأة تلوح الأم عند الباب، ظلٌّ داخل غرفة نومها المعتمة. شعرها في ضفيرة فضفاضة، خصلات رمادية تتخلله. تحمل سيجارة مثل ممثلة في فيلم قديم بالأبيض والأسود - المرأة الشريرة التي توشك أن تحبط خطة طيبة القلب. «فلماذا تغاضى الرب عن آلام المسلمين؟ ها؟! لماذا تخلى عن الفلسطينيين؟ هل تعتقد أن مسجدك الثمين سيُحدث فرقًا؟»

لكن عفاف ترى في وجه الأم السؤال الحقيقي: *لماذا أبعد الله ندى عنها؟*

عفاف أيضًا تتساءل لماذا.

الأب يبتسم للأم. «هذه الأرض مؤقتة يا منتهى. الله لديه خطة، وعلينا أن نصبر ونصغي إليه. معاناتنا زائلة. هل أخبرك بأشياء أفضل من تلك الأفراح الأرضية؟ بالنسبة إلى المؤمنين بالله، تنتظرهم في الآخر حدائق تجري من تحتها الأنهار».

هذه المرة الأولى التي تسمع فيها عفاف والدها يقتبس من القرآن. يعرف كلمات كل أغنية لأم كلثوم، ويحفظ أغنية «الموناليزا» لنات كينج كول عن ظهر قلب. لكنه يقرأ هذه الآية كأن الكلمات كلماته، يستدعيها من بئر عميقة من الصفاء. أغنية جديدة يجب تعلُّمها – أصبح الإيمان أداته ووسيلته.

الأم تضحك بسخرية، وتأخذ نفثة عميقة من سيجارتها. «كل هذا حكي فاضي (كلام فارغ)». بالنسبة إلى الأم، تشبه مثل هذه الكلمات لاصق فيلكرو، تتمسك بها بقوة حتى تجردها تمامًا من معناها بأفعالك. ترمي سيجارتها في الحوض، وتهسهس: «يمكنك أن تحتفظ بكلماتك الحمقاء لنفسك». تتراجع إلى غرفة النوم ويرتفع صوت التلفاز حتى يحجب أصوات حديثهم.

«عانت أمكما كثيرًا، لكنها سترى مدى سهولة التخلص من معاناتها ما إن تفتح قلبها للرب». يبتر عبارته. شيء حزين يومض في عينيه. يستأنف خطبته. «وأنتما أيضًا يا أولاد. سأستمر في خذلاني لكم كأب لو لم أقدْكما إلى الطريق المضيء».

عفاف تتململ في كرسيها، غير مرتاحة. كيف يتوافقون جميعًا مع كل هذا؟ تفكر في الأولاد الذين استكشفت أيديهم جسدها، والاستياء الذي تغلغل في أعماق قلبها تجاه والديها. والاستياء تجاه أختها الغائبة الذي يستحوذ على صدرها مثل موجة مد عاتية.

أعلن الأب: «أريد منكما أن تأتيا معي الليلة إلى المسجد. أخذت الليلة إجازة من العمل لحضور اجتماع خاص. سيكون هناك شباب أيضًا. كل يد، كبيرة كانت أم صغيرة، يجب أن تضع لبنة في بناء المسجد. إنه مستقبلكما الذي نبنيه اليوم».

يبدو الأمر كأن الأب يتلو من سيناريو بائع يحاول الترويج لبضاعته، لكن كل كلمة مفعمة بالإخلاص. ومع ذلك، لا تستطيع عفاف التفكير في أي يوم يتجاوز الغد. ستبدأ وظيفة جديدة في مركز پاين فورست التجاري في كشك ينسخ المفاتيح. استقالت من وظيفتين أخريين منذ تخرجها. كان التخرج حدثًا لم يمنحها سوى قليلٍ من العناق المربك من الأب ومجيد، وعشاء متوترًا بعد ذلك في مطعم ستيك هاوس ليو، حيث كانت ثمة حفلات صغيرة تقيمها عائلات أخرى للاحتفاء بتخرج أبنائهم، حزم من البالونات تطفو فوق موائدهم. تظاهرت الأم بأنها مريضة. أعطت عفاف مظروفًا يحوي ثلاثين دولارًا.

يقول الأب، عيناه اللامعتان تتوسلان إليها وإلى مجيد: «ما رأيكما؟»

تستحث عفاف شقيقها بعينيها. يقول شقيقها وهو ينظر إلى باب حجرة أمه المغلق: «حسنًا».

9

بعد ساعة، يقترب الأب من مبنى واجهته محل أثاث، تومض لافتة أعلاه مع أن الساعة تجاوزت موعد إغلاقه. على باب حجرة الأمن، توجد لافتة أصغر لا يمكن فك رموزها من الشارع: *المركز الإسلامي لشيكاغو الكبرى: مرحبًا*. يتساقط المطر من أفريز السطح. تتجاوزه امرأة تدفع عربة بقالة، وقبعة شعرها الشفافة تتلألأ.

قال الأب وقد أشرق وجهه: «ها نحن أولاء هنا».

تتذكر عفاف هذا المكان. أتت هي ومجيد إلى هنا من قبل، ربما قبل عقد من الزمان. قبل اختفاء ندى. كانت الأم تُلبِسهما الثياب من أجل التجمعات عندما كان لا يزال والداها يحضران المناسبات الاجتماعية. بينما تومض اللقطات في ذهنها تنظر عفاف إلى المبنى: بينما يعزف الأب على عوده يغني الرجال العرب الأغاني الشعبية القديمة ويرقصون الدبكة. لا يزال بإمكانها سماع نبرة الرثاء في أصواتهم، وجع من أجل وطن مسروق -*البلاد*- بلد لم تشاهده إلا في الصور القديمة وسمعت عنها فقط في القصص التي تتذكرها الأم والخالة نسرين في أثناء احتساء القهوة.

يترجل الأب من السيارة ويمشي بسرعة حول مقدمتها، ويغمز بعينيه إلى عفاف. يبدو أن آلام ظهره قد اختفت مؤقتًا.

تنظر عفاف إلى مجيد الجالس في مقعد الراكب. ينزلق خارجًا على مضض، ويقف بجانب الأب. ينتظرانها، ذقناهما محنيان تجاه صدريهما في مقابل المطر البارد.

عفاف تضغط على مقبض باب سيارة الأب البديلة - سيارة تويوتا كامري سوداء. كان الرجال داخل المركز قد جمعوا ما يكفي من المال لدفع قسط أول صغير، ووقع أحدهم على تعهد بسداد الأب الدفعة الشهرية دون إرجاء. سوف يصادرون السيارة منه لو شرب مرة أخرى. هذه المجموعة الجديدة من المسلمين -أصحاب محطات الوقود وأطباء الأسنان والميكانيكيين والمتقاعدين- احتضنوا والدها، منحوه فرصة. وها هما طفلاه، عفاف ومجيد على وشك الدخول إلى مجتمعهم.

لم تكن عفاف تنتمي إلى أي مكان. تخطر سميرة والعربيات الأخريات في ذهنها. مذاق الرفض لاذع في فمها.

ومع ذلك، تخرج من السيارة، ويضغط الأب على كتفها لتشجيعها

المسلمات الأكبر سنًّا يطوقن عفاف فورًا. يعانقنها ويقبلنها على خديها، ويمسدن شعرها، ويضغطن على كتفيها.

«كم أنتِ جميلة، ما شاء الله!»

«أعتقد أنني أرى شيئًا من أبي مجيد في ذلك الوجه!»

تومئ عفاف برأسها وتبتسم، وجنتاها ساخنتان كردة فعل على التركيز المفرط الموجَّهة إليها دفعة واحدة. يقدنها إلى الجانب الذي تتجمع فيه النساء. لا يختلف الأمر كثيرًا عن الأطفال العرب في المدرسة: الرجال في جهة، والنساء في الجهة الأخرى. يجد الأطفال فسحة بينهما. يستقبل مجيد والأب رجلًا ممتلئ الجسم -الإمام- له لحية طويلة رمادية، وتسمع عفاف شقيقها وهو ينخرط في أجواء المودة المتدفقة.

ترتدي قلة من النساء الحجاب، فضفاضًا حول وجوههن، خصلات من الشعر الداكن تتسل هاربة من القماش. تفكر في أمها والخالة نسرين، وكيف أنهما يكرهان ارتداء الحجاب. توجد امرأة سوداء البشرة مع ابنة في عمر عفاف نفسه. كلتاهما ترتدي حجابًا باللونين الأخضر والبرتقالي، ووجهاهما لامعان. بضع سجاجيد صلاة مثل تلك التي أحضرها الأب إلى المنزل معلقة للزينة على أحد الجدران.

امرأة ضخمة تشبه الجرس تتمايل باتجاه عفاف، ذراعاها ممتلئتان وممدودتان من تحت عباءتها. «يا حبيبتي! تعالي.. تعالي! نحن سعداء جدًا لأنكِ هنا!». تشد المرأة عفاف لتقرِّبها من صدرها المكتنز، تنبعث منها رائحة ليلك وعرق. «لماذا لم تأتي عاجلًا؟»

تُدعى أم زريب رغم أنه ليس لديها أطفال. اكتشفت عفاف لاحقًا أنها أصبحت أرملة منذ أوائل العشرينيات من عمرها، ولم تتزوج مرة أخرى. يشاع أن زوجها كان من بين مقاتلي جبهة التحرير الفلسطينية الذين قاتلوا وقضوا نحبهم في معركة الكرامة. «تعالي والتقي البنات الأخريات».

الفتيات يبتسمن في وجه عفاف، ويقدمن أنفسهن إليها. الفتاة الوحيدة التي تعرفت عليها هي كوكب سليمان. الشابة الوحيدة التي شاهدتها عفاف ترتدي الحجاب في المدرسة. ليس حجابًا فضفاضًا وعصريًا، لكنه مشدود حول وجهها، وتختفي رقبتها تمامًا تحت ثناياه. لو لم يكن هذا سببًا كافيًا ينتهزه الآخرون في مدرسة هوفر للتنمر عليها، فقد كان اسمها كوكب يتكفل بذلك.

فـي السـنة الأولـى، خُصِّصـت إحـدى حصـص اللغـة الإنجليزيـة للتعـرُّف علـى أصـول أسـمائهم. وقفـت كوكـب بهـدوء أمـام صفـوف مـن الأولاد البيـض النحيفيـن الذيـن تمـلأ البثـور وجوههـم، والبنـات المغتـرَّات بأنفسـهن وأعلنـت.. «كوكـب».

كرر المعلم: «اسمك يعني كوكب».

«*مثل فتحة شرجك*[1]؟» صـاح أحـد الأولاد البيـض. غـرق الفصـل فـي الضحـك. شـاهدت عفـاف كوكـب وهـي تـدس إصبعهـا داخـل حجابهـا كمـا لـو كانـت تزيـل خصلـة شـعر غيـر مرئيـة. نظـرت إلـى منضـدة دراسـتها.

حذر المعلم: «هذا يكفي».

لا يقـولان أي شـيء ويسـتديران لمراقبـة الفتيـات الأخريـات مـدة مـن الوقـت. هـن خليـط مـن الأعمـار: بنـات فـي سـن المدرسـة الابتدائيـة ومراهقـات، وأمهـات حوامـل متزوجـات وشـابات، وعـدد قليـل منهـن يتقلـدن خواتـم خطوبـة. تحـوم النسـاء الأكبـر سـنًّا حولهـن مثـل دجاجـات راعيـات.

لـم تلاحـظ عفـاف أي شـخص آخـر مـن مدرسـة هوفـر الثانويـة. يخطـر علـى بالهـا أن هويتهـا مجهولـة هنـا للجميـع باسـتثناء كوكـب. يبـدو الأمـر فجـأة كأنـه فرصـة مـن أجـل بدايـة جديـدة – ربمـا الشـيء نفسـه بالنسـبة إلـى الأب. *النـاس يسـتحقون فرصـة ثانيـة، أليـس كذلـك*؟ أليـس هـذا مـا يتعلمـه سـيلاس بوصـول إيبـي ذات الشـعر الذهبـي فـي روايـة جـورج إليـوت؟ أليـس هـذا مـا جـذب عفـاف إلـى

(1) your anus فـي الأصـل، وهـي مزحـة تعتمـد علـى الجنـاس اللفظـي مـع كلمـة Uranus أي كوكب أورانـوس. (المترجـم).

كتبها المفضلة؟ المحن التي تكاد تحطم الروح، ومع ذلك لا يزال أبطال الروايات يتغلبون عليها. هذا هو كنه الأمل بعد كل شيء. وجد الأب الأمل بعد حادث السيارة والآن يريد أن يلفها ومجيد في ثناياه. بالنسبة إلى الأب، الأمل هو الدين، رغم أنه شكل أكثر تعقيدًا بالنسبة إلى عفاف، لأنها لا تعرف إلا قليلًا عن الإسلام.

يعلن الإمام عن شيء لا تفهمه، وفجأة يتحرك الجميع من أماكنهم. يفرد الرجال سجادتين فارسيتين ضخمتين، تتلامس حوافهما المتآكلة فوق منتصف الأرضية المغطاة بالقرميد. نُقش على السجادتين أزهار ضخمة عنَّابية وخضراء غامقة، تزين المركز، وزهور أصغر حجمًا حول محيطها الخارجي.

تنتقل النساء والفتيات إلى ركن من الغرفة حيث ملابس الصلاة المصنوعة منزليًّا معلَّقة فوق مقابض خشبية. بعض القمصان والسراويل عديمة الشكل وغير متطابقة، عبارة عن أقمشة مُحاكة ببساطة. سرعان ما ترتديها النساء وفجأة تختفي أشكالهن السابقة. يتراءين كأنهن دمى روسية متداخلة، تبرز وجوههن عبر القماش، وتطل أيديهن من تحت ما يشبه خيامًا صغيرة. يتجمعن بسرعة في صفوف خلف الرجال. الكل يواجه الجدار الشرقي عديم النوافذ. تسلمها كوكب ثياب صلاة. عفاف تتردد.

تشجعها كوكب: «يلا. حان وقت الصلاة. هل توضأتِ؟»

أومأت عفاف برأسها، رغم أنها لا تفهم.

من السهل اتباع أوامر كوكب، نبرة صوتها وديعة ولكن مُلحّة. ترتدي عفاف الثياب فوق بنطلونها الجينز، وتربط الشريط المطاطي فوق فخذيها. تُخرج وجهها من خلال فتحة في القماش.

يتدلى الثوب فوق رأسها وجذعها مثل خيمة، وينتفخ حول كتفيها.

تُشير كوكب إلى عفاف حتى تقف بجانبها. تبحث عفاف بعينيها عن الأب ومجيد وتجدهما في الصف الثاني من ركن الرجال والفتيان. يستدير شقيقها عدة مرات، ويختلس النظرات، حتى يجد عفاف ويبتسم لها. كم لا بد أنها تبدو مضحكة.

«فقط قلدي تحركاتي»، تهمس كوكب عندما يبدأ الإمام الصلاة.

«الله أكبر...».

تراقب كوكب بطرف عينها، وهي تطوي يديها فوق بطنها مقلِّدة كوكب. تلك هي الطريقة نفسها التي يبدأ بها الأب الصلاة عندما تنظر عفاف إليه عبر الممر.

«سبحانك اللهم..».

الجميع يركعون بداية من رُكبِهم. «الله أكبر».

يندفع الدم إلى رأس عفاف ثانية وتشعر بأنها ضعيفة بشكل غريب لأنها تنحني لكيان غير متوقع تتخيل أنه، يستطيع حسب هواه، أن يعاقبها في نار جهنم أو يحيطها بواسع رحمته.

«سبحان ربي العظيم وبحمده».

يشد الجميع أجسادهم في استقامة. «الله أكبر...».

ثم فجأة يخرون على الأرض وأرجلهم مطوية تحتهم. تشاهد عفاف كوكب وهي تلمس بجبينها السجادة. تتردد رافعة بصرها لتلقي نظرة على الآخرين. تبدو الأجساد المثنية وديعة. تلامس عفاف السجادة، وجبينها في البداية يحتك بالخيط المنسوج الخشن. تتذكر أن تتنفس.

«الله أكبر...».

يكررون هذا النمط ثلاث مرات، ويختتمون الصلاة في وضعية الجلوس.

«السلام عليكم»، تقول كوكب وقد أدارت وجهها صوب امرأة إلى جانبها الآخر، ثم تستدير تجاه عفاف. «السلام عليكم».

كوكب تقول مثل معلمة فخورة: «عمل جيد، يا عفاف». تربت على كتف عفاف. «سوف تتعلمين الكلمات في وقت وجيز إنْ واصلت فعل ذلك».

تشعر عفاف كأنها غريبة عادت أخيرًا إلى ديارها، غريبة نسيت اللغة، وسلوكيات شعبها. هي متوترة ومترددة.

ترن كلمات أم زريب في أذنيها: *لماذا لم تأتي عاجلًا؟*

10

في طريق الرجوع إلى المنزل، يتحدث الأب إليهما بنوع جديد من الإثارة، وكان خطابه الأحادي الجانب مطعَّمًا بالنصوص الدينية، ونبرة انتصار. يرتفع صوته فوق المطر الهابط على الزجاج الأمامي للسيارة.

يعلن الأب: «سترى أمكما أخيرًا. على الكبار أولًا الكشف عن الدرب الصحيح، وسيتبعهم الأطفال».

يشيح مجيد بعينيه عن عفاف عندما تنظر إليه في المقعد الخلفي. هي أيضًا لا تشعر بأنها تغيرت كثيرًا، رغم أن لطف كوكب والمرأة ما زال يتوهج بداخلها. هل يجب أن تؤمن بالرب لتلتحق بمجتمع المسجد؟ لن تجرؤ على قول ذلك بصوت عالٍ، لكنه لم يكن على الإطلاق ما كانت تتوقعه. كوكب والأخريات جعلنها تشعر كأنها في بيتها. والطقوس الغريبة للصلاة -اتضح أنها وديعة ولها تأثير مُهدئ. لم تستطع عفاف تفسير ذلك تمامًا. لم يكن بالضبط شيئًا روحيًا. بدا الأمر كأنها تنتمي إليهم، هؤلاء الغرباء.

في المنزل، تخرج الأم من غرفة نومها عند وصولهما، وعيناها تلمعان بالترقب. معقودة الذراعين، تنظر من عفاف إلى مجيد. شفتاها تتجعدان في سخرية.

«حفنة من الحمقى، ميش إيه (أليس كذلك)؟» تقول، وهي تربت على خد مجيد وتشعِّث شعره.

تشاهد عفاف الأب يشد ظهره في مواجهة الأم، وهو يجفل

قليلًا من ألم ظهره. «يستغرق الأمر وقتًا يا منتهى. علينا أن نشجعهما».

تتخيل عفاف أن والدي كوكب يجمعانها وإخوتها للصلاة، ويقودانهم في كل سجدة، ويتلوان كل آية حتى تصبح الكلمات عبارات تلقائية، وتتحرك عائلتها في الاتجاه نفسه نحو الفرحة المشتركة. الأم مثل صخرة عملاقة تقسِّم مجرى نهر – تندفع عفاف ومجيد للأمام من جانب، والأب من الجانب الآخر.

تشعل الأم سيجارة وتسند ظهرها إلى حوض المطبخ، ولم تعد تستمع حقًا فيما يحاول الأب إقناعها. تنظر من خلالهم مباشرة، عيناها خاليتان من أي عاطفة.

«يستغرق الأمر وقتًا يا أولاد». تتبع كلمات الأب عفاف في حين تتجه إلى غرفتها. حبس مجيد نفسه بالفعل في الحمام. «سوف تريان».

تتمنى عفاف، من أجل أبيها ومن أجلها، أنه على حق.

* * *

يقع كشك نسخ المفاتيح في أحد طرفي مركز باين فورست التجاري، وتشعر عفاف بالامتنان لأنها بعيدة إلى حد ما عن حشود الزبائن الذين يمرون أمامها. يظهر نصف دزينة من الأشخاص خلال استراحة الغداء كل يوم. خلال المدة المتبقية من مناوبتها، تقرأ الروايات، وتتعلم أن تتجاهل أصداء العزف الموسيقي الممل في الخلفية الذي يتدفق باستمرار من مكبرات الصوت الكبيرة المثبتة، ووقع خطوات الأقدام على امتداد البلاطات الحجرية ذات الشكل الألماسي.

هـي وظيفـة سـهلة جـدًا لعفـاف. تتعلـم بسـرعة كيفيـة ضبـط المفتـاح غيـر المُسنَّن فـي المِلْزَمـة مـع الأصـل الـذي يسـلمه لهـا العميل. صنـع نسـخة مـن المفتـاح عمليـة آليـة إلـى حـد كبيـر، لكنهـا تأخـذ وقتهـا، وتجبـر نفسـها علـى رسـم ابتسـامة مهذبـة لمالـك العقـار فـي منتصـف العمـر الـذي ينتظـر بفـارغ الصبـر، أو للزوجيـن المتقاعديـن الذيـن يحتاجـان إلـى مجموعـة مـن المفاتيـح لأحفادهمـا البالغيـن حتـى يتمكنـوا مـن تمشـية كلبهمـا.

«نحـن ذاهبـان إلـى أوروبـا!» المـرأة العجـوز الثرثـارة تقـول لعفـاف. الـزوج ينظـر إليهـا بريبـة، ويلكـز زوجتـه حتـى تصمـت.

بعـد ظهـر أحـد الأيـام فـي أواخـر شـهر أكتوبـر، ترفـع عفـاف رأسـها عـن كتابهـا وتلمـح رامـي عصفـور وهـو يقتـرب مـن المدخـل الغربـي. كان مـع صبييـن عربييـن آخريـن. احمـر خـدًّا عفـاف، وقـد عـادت إليهـا لسـعة صفعـة رامـي، أكثـر حـدة الآن. تتمنـى أن تتقلـص وتختفـي. لكنهـا عالقـة فـي هـذا الكشـك الأخـرق، حيـث لا يمكنهـا التزعـزع مـن فـوق ذلـك الكرسـي.

يقـول رامـي بتهكـم: «هـاي، ربمـا يمكنـكِ أن تصنعـي لـي نسـخة مـن مفتـاح منزلـكِ. كمـا تعلميـن- حتـى يمكننـي التأكـد مـن أنـكِ بأمـان وبصحـة جيـدة فـي غرفـة نومـكِ، ولا تتجوليـن فـي الشـوارع».

«ألا يكتـرث أخـوك بمـا تقوميـن بـه؟» أحـد الأولاد الآخريـن يدخـل فـي الحديـث: «ذلـك الجبـان يهتـم فقـط بالبيسـبول، أليـس كذلـك؟ والله، هـذا أمـر مريـع يـا رجـل».

يضحكـون فـي حيـن ترتجـف يداهـا. تقبـض بيدهـا علـى منضـدة الكاونتـر الصغيـرة التـي تفصلهـا عـن هـؤلاء الأولاد البغيضيـن. «اسـتمع إلـيَّ، أيهـا الأخـرق..».

«عفاف! أنتِ تعملين هنا؟» صوت ناعم يأتي من ورائها.

تستدير وتواجه كوكب. كانت ترتدي حجابًا منقوشًا بزهور وردية، ومعطفًا بيج طويلًا فوق بنطلون جينز أزرق فاتح. تبدو في غير محلها تمامًا في هذا المركز التجاري. تبتسم ابتسامتها الملتوية، وعيناها مشرقتان. موجة ارتياح تجتاح صدر عفاف.

«مرحبًا، يا كوكب. نعم. بدأت للتو». تزعق عفاف، وما زالت أصابعها ترتجف.

«ما شاء الله!» تقول كوكب وقد أشرق وجهها، كما لو أن استنساخ المفاتيح أنبل عمل يمكن أن تقوم به عفاف.

فجأة يبدو رامي وأصدقاؤه في حيرة من أمرهم. تحدق كوكب إليهم بالتساوي، دون أن ترمش. أخيرًا، يتراجعون وهم يرمون عفاف بنظرات جليدية.

تستدير عفاف بعيدًا عن كوكب، وتقاوم دموعها وتتظاهر بالبحث عن شيء ما على الرف خلفها. يد كوكب على كتفها تشدها لتديرها.

«انسيهم. الله وحده هو الحَكَم». تسمع كوكب تقول لها وهي تبكي.

تهمس عفاف: «ارتكبت كثيرًا من الأشياء الحمقاء».

تقول كوكب: «نعم، لكنها لا تُعرِّفكِ. الأخطاء تُعلِّمنا أن نكون مسلمين أحسن».

تمزق عفاف قصاصة من لفَّة ثقيلة من المناديل الورقية الصناعية التي تستخدمها لتنظيف ماكينة نسخ المفاتيح، وتربت بها على وجهها المبلل وأنفها الراشح.

تسألها كوكب: «هل استمتعتِ تلك الليلة؟»

يمر رواد المركز التجاري وتلاحظ عفاف تعبيرات وجوههم الحائرة، والهمز واللمز الذي يتبادلونه من وراء ظهر كوكب.

«بالتأكيد. أعني، كان غريبًا بعض الشيء كما تعرفين؟»

«متى تنتهي وردية عملكِ؟» تبدو كوكب غافلة عن العالم من حولها، وابتسامتها لا تتلاشى أبدًا عندما تتحدث إلى عفاف.

«السادسة مساء».

«هل تريدين القدوم إلى منزلي وقضاء بعض الوقت معي؟»

لا تستطيع عفاف تذكُّر آخر مرة تلقت فيها دعوة من شخص لا يريد شيئًا منها في المقابل. ودعوة من فتاة بالتحديد. صديقتها الحقيقية الأخيرة كانت سميرة. بعد ذلك، كانت تتسكع مع المنبوذين في ملهى ألعاب الفيديو في ضاحية كيدزي، أو تجلس على مقعد مهترئ في حديقة ماركيت - مكان تعهدت بأنها لن تعود إليه أبدًا بعد أن قادها رامي إلى هناك في تلك الليلة. في مدرسة هوفر الثانوية، كانت في قاع طبقة اجتماعية من الفشلة.

تحدق في كوكب وتتذكر كيف قادتها كوكب إلى صف المصليات في المسجد، وكيف احتضنتها النساء الأخريات وتحدثن معها كأنهن يعرفنها طوال حياتهن.

تقبل عفاف عرضها، وهي تحدق إلى الزهور الوردية الجميلة التي تتفتح فوق رأس صديقتها الجديدة المنحنية فيما تدوّن عنوانها على ورقة.

***

منـزل كوكـب منـزل صغيـر مـن طابـق واحـد مـزود بمـرج أسـمر مشـذب. تصطـف مزهريـات صغيـرة مـن زهـور الأقحـوان البرتقاليـة والصفـراء فـوق مجموعـة قصيـرة مـن درجـات السـلالم الأسـمنتية المؤديـة إلـى البـاب الأمامـي. كان نـوع المنـزل الـذي تمنـت أمهـا اقتنـاءه لسـنوات، مـن النـوع الـذي يحتـوي علـى طابـق أرضـي كامـل وثلاثـة حمامـات، حماميـن كبيريـن وواحـد صغيـر، وفنـاء جميـل حيـث يمكنـك الشـواء فـي الصيـف. عندمـا تخطـو عفـاف داخـل غرفـة المعيشـة، تسـتقبلها نسـخة مطـرَّزة ضخمـة مـن قبـة الصخـرة تتدلـى مـن الجـدار الأوسـط. توجـد صـور مدرسـية لكوكـب وشـقيقتيها. تعتمـر هـي وشـقيقتها الكبـرى قبعتـي التخـرج فـوق حجابيهمـا، وتحمـلان الابتسـامة المعقوفـة نفسـها. عنـد تخـرج عفـاف، ذهـب الأب إلـى متجـر وولـورث للحصـول علـى إطـار خشـبي رخيـص، وثبَّـت بمسـمار صـورة لعفـاف وهـي تحمـل شـهادتها فـوق سـرير الأريكـة. كانـت الأم تراقبـه مـن الردهـة وهـي تدخـن سـيجارة، فيمـا يـدق الأب المسـمار فـي الجـدار.

«أهـلًا، أهـلًا، يـا حبيبتـي عفـاف!» تعانقهـا والـدة كوكـب وتقبـل خديهـا.

شـقيقتا كوكـب، ناديـا ومنـى، تشـاهدان التلفـاز. ينظـران إلـى عفـاف، وترتسـم ابتسـامات مهذبـة علـى وجهيهمـا. للحظـة، تتسـاءل عفـاف إنْ كان هـذا خطـأ. هـي متأكـدة مـن أن كوكـب وناديـا، التـي تكبرهـا بسـنة، تعرفـان كل شـيء عـن سـمعتها الشـائنة. لا بـد أن ناديـا تتسـاءل فـي قـرارة نفسـها لمـاذا توافـق أختهـا الصغـرى علـى التسـكع مـع فتـاة مثـل عفـاف؟

تقول ناديا مرحبًا وتعود لمشاهدة التلفاز.

كوكب وشقيقتاها بلا حجاب داخل منزلهن، وتنبهر عفاف بشعرهن الأسود الفاحم كالحبر. ضفائر كوكب المتموجة مسترسلة حول كتفيها. صفَّفت شقيقات والدتها شعرهن إلى الخلف في ضفائر قصيرة. تبدو فتاة مختلفة وهي تضحك على تعبير وجه عفاف الحائر.

تقول كوكب: «هل تعتقدين أننا نعيش وننام بالحجاب؟»

«دعونا نأكل!» تقودها والدة كوكب إلى المطبخ، حيث توجد مائدة مُجهَّزة لستة أشخاص. يجلس والد كوكب بالفعل على أحد طرفي المائدة، ويضع جريدته في حجره. قال لها: «أهلا بك في بيتنا يا عفاف. أنت تضيئين مائدتنا».

تبتسم عفاف محرَجة. يرحب والدا كوكب بها دون تحفظ. تقترح كوكب على عفاف أن تجلس إلى جانبها، شقيقتاها في الجهة المقابلة لهما، وأمهن على الطرف الآخر من المائدة الأقرب إلى كوكب.

يقول أبوها بخشوع: «بسم الله». كلهن يخفضن رؤوسهن. «وعلى بركة الله أبدأ».

بين قضمات المسخَّن[1]، تجول عفاف بعينيها في أرجاء المائدة فيما تنخرط كوكب وأختاها في محادثة فعلية مع

(1) المُسخّن أو المحمّر طبق فلسطيني من الدجاج المشوي المطبوخ مع البصل والسمّاق والفلفل الإفرنجي والزعفران مع حبوب الصنوبر مقدمةً على خبز الطابون، جاءت هذه المكونات من البيئة الفلاحية في فلسطين. أكلة تراثية من أشهر الأكلات التي تشتهر بها مدينتي جنين وطولكر. (المترجم).

والديهن. مع جدول مواعيد العمل والتمرين المزدحم، نادرًا ما تجلس عفاف ومجيد لتناول العشاء في الساعة نفسها. عادة ما تحمل عفاف طبقًا مليئًا بالأرز والقرنبيط، أو محشي بسلطة الزيادي إلى غرفتها وتأكل بمفردها، وهي تضع سماعات الرأس، وكتابًا مفتوحًا فوق وسادتها. بعد التمرين، يشغّل مجيد التلفاز في المطبخ، ويشاهد الأشواط الوسطى من مباراة بيسبول وهو يأكل. كانت الأم تنتظر وصول الأب، حيث يجلس بعضهما مقابل بعض في الغالب هادئين، ويأكلان معًا. منذ أن بدأ الأب الصلاة، باتت الأم تترك طبقًا مغطى بورق القصدير في الميكروويف. يجلس الأب وحده؛ الأخبار المسائية، صوت التلفاز عالٍ، تتدفق من غرفة نومهما، وتبدد صمت المطبخ.

يسألهن والد كوكب عن يومهن، وكيف يسير تدريب ناديا في وكالة الخدمات الاجتماعية. وتطلعهم والدة كوكب على آخر الأحداث في المركز الإسلامي. حتى منى، الشقيقة الصغرى، لديها ما تساهم به في الحوار عن عملها التطوعي في مركز الرعاية النهارية.

تستطرد والدة كوكب: «الحمد لله، وافقت الولاية أخيرًا على برنامج الحليب المجاني للأطفال».

يرد الآخرون في انسجام: «الحمد لله».

يسأل والد كوكب عفاف عن وظيفتها في المركز التجاري، شيء يتراءى لعفاف تافهًا مقارنة بما تشاركته العائلة في أثناء تناول الدجاج المقرمش المغطى بالسماق والبصل. تسعد عندما يتغير الموضوع إلى حادثة اختطاف الطائرة الأحدث.

يقول والد كوكب: «يجعل ذلك الحياة صعبة على من يتقي الله في هذا البلد». تتذكر عفاف ذلك اليوم عندما توقفت في متجر 7-Eleven في الشارع المقابل لمحطة الحافلات بعد العمل. بثت نشرة أخبار من تلفاز محمول خلف ماكينة الصرف آخر الأخبار عن التحقيق الإرهابي. سمعت نكتة أطلقها رجل أبيض عن *المشكلات مع العرب*.

تتنهد والدة كوكب: «إن شاء الله يعم السلام».

تصرح ندى: «لن يوجد سلام حتى تصحح الولايات المتحدة من سياستها الخارجية. حتى يُعترف بالفلسطينيين اعترافًا كاملًا».

يرد عليها والد كوكب: «أفهم يا ابنتي لكن العنف لا يولِّد إلا العنف. نحن مجتمع متحضر. إن انهار، نكون جميعًا خاسرين».

تستمع عفاف وهي تأكل، وتراقب كل إيماءة صغيرة وحميمية يتبادلها الآخرون على المائدة- والدة كوكب تدس خصلة من شعر ناديا خلف أذنها، ووالد كوكب يعيد ملء طبق ابنته الصغرى بالأرز قبل أن تطلب المزيد. الكآبة تخنق حلق عفاف، ما يجعل من الصعب عليها ابتلاع طعامها.

تفكر عفاف: *هكذا تكون العائلة*، في حين تقدم والدة كوكب لها طبقًا من الزيتون الأخضر اللامع والبنجر المخلل. *لكن هل سيكونون على الشاكلة نفسها إذا فقدوا ابنة أو أختًا؟ هل سيتحطم قربهم فجأة مثل كأس تنزلق من بين الأصابع وتتهشم إلى شظايا؟*

مع انتهائهم من تناول الطعام، يشتعل غضب مألوف في معدة عفاف. تقمع بداخلها كرة نار وقودها الحنق والغيرة، وتقاوم رغبة

ملحة في قذفها تجاه هذه العائلة المحبة حسنة النيّات مع أنها تتوق في الآن نفسه إلى أن تكون جزءًا من هذا التجمُّع أطول مدة ممكنة. تكلف والدة كوكب ابنتها وعفاف بتنظيف المائدة. ترتجف أصابع عفاف وهي تجمع الأواني الفضية، الشوك تخشخش فوق الأطباق. تنظر إليها كوكب وتبتسم.

في غرفة كوكب، تحتشد الحيوانات المحشوة محتلَّة الجزء العلوي من الخزانة الخشبية، ملصقات فرقة بانجلز Bangles وجورج مايكل وسيندي لاوبر معلَّقة على الجدار. تقع غرفة ناديا على الجانب الآخر من غرفة النوم الرئيسة لوالديهن. توجد أغطية سماوية اللون متطابقة على سريرهما المتماثلين في الحجم.

تجلس كوكب على الأرضية المفروشة بالسجاد، هادئة لأول مرة منذ العشاء، كأنها تستطيع سماع صوت الغضب المستعر بداخل عفاف. تنضم إلى كوكب على الأرض، وتشد ركبتيها إلى صدرها، متكورة حول نفسها في مواجهة الوجع الذي تخشى أن يتسرب إلى الخارج. لا يتكلمان. تنتف كوكب الخيوط العالقة في السجادة.

«حان وقت الصلاة يا بنات!» والدة كوكب تنادي من الردهة.

تمد كوكب يدها إلى الدرج السفلي للخزانة وتُخرج ثياب الصلاة. تحمل مجموعة من الملابس من أجل عفاف. «يمكننا الوضوء معًا».

تنفجر عفاف قائلة: «لماذا تريدين أن تكوني صديقتي؟» خداها متوردان، كتلة من الدموع تتجمع في حلقها. «أنا لست مثلكِ. أنا إنسانة فاسدة».

تقول كوكب: «أنتِ لست فاسدة. أنت ضائعة فقط». تمد يدها إلى عفاف التي ترفع رأسها وتلتقي عيناها وجهًا يعكس صدقًا تامًا.

كلمة «ضائعة» تتخذ شكلًا جديدًا، ليست ملفوفة باليأس مثلما تكون عندما تنعتها أمها بها. «ما عليكِ إلا أن تأخذي وقتكِ، والله سيرشدك. يريدنا الله أن نكون سعداء».

تريد عفاف أن تعرف ما إنْ كانت الصلاة والصوم والزكاة يمكن أن تغير والدتها بطريقة سحرية وتجعل منهم أسرة حقيقية مع أن عفاف تعرف دائمًا أنهم ما كانوا مطلقًا عائلة متماسكة، حتى من قبل اختفاء ندى. هل كان الدين القوة المفقودة، الشيء الذي يمكن أن يربط بعضهم ببعض بحيث لا ينكسرون عندما يصيب شيء رهيب عائلة عفاف؟

«سوف ترين». تقف كوكب، تمد يدها إلى عفاف. «الآن دعينا نستعد للصلاة».

تمسك عفاف بيد صديقتها الجديدة وتدفع نفسها للنهوض من فوق الأرض، مقاومة ثقل إحساس كراهية الذات الذي يسيطر عليها، على الأقل لبعض الوقت.

* * *

تدعك الأم قِدرًا، تحجب ذراعها الأخرى مرفقها في أثناء حركتها: «أين كنتِ؟»

عفاف تريد أن تخبر والدتها عن كوكب وعائلتها لكنها لا تفعل ذلك. «في المكتبة».

أصرت والدة كوكب على توصيلها بالسيارة إلى المنزل. قبل أن تنطلق وابنتها بالسيارة مغادرة، نظرت من فوق مقعد السائق إلى عفاف وقالت: «قولي مرحبًا لأمكِ يا حبيبتي».

لا مزيد من الأسئلة من الأم، فقط صوت الليفة السلكية تكشط قاع القِدر. «توجد مقلوبة في الثلاجة. لماذا أتكبد حتى عناء الطهي بعد الآن؟!»

كثيرًا ما يتدرب مجيد في أقفاص الضرب الداخلية[1]، والأب في المركز الإسلامي، حيث لا تزال خطط بناء مسجد مناسب جارية على قدم وساق. كان والد كوكب قد ذكر أن حملة جمع الأموال تكاد تصل إلى مبتغاها.

تغلق عفاف باب غرفتها. تخلع حذاءها وتلقي بحقيبتها جانبًا. تستلقي على سريرها، وتحدق في السقف، كلمات كوكب معلقة فوقها: *لم يفت الأوان بعد. كل يوم يمكننا أن نغدو أحسن. لا يوجد حد أو نهاية. ما عليكِ إلا أن تصدقي يا عفاف*. قالت هذه الأشياء لعفاف بعد أن أدتا الصلاة مع أهلها.

يبدو الأمر سهلًا جدًا، مثل المفاتيح التي تنسخها في المركز التجاري. لديك النسخة الأصلية، ثم تصنع نسخة متطابقة في كل انحناءة وشق. هل يمكن حقًا أن تكون إنسانة أخرى في هذا الجسد نفسه؟ *هل التغيير ممكن؟*

تمد يدها إلى حقيبتها، وتسحب كتابًا استهلت قراءته اليوم -*كائن لا تُحتمل خفته*- وتحاول التركيز على الرواية، عيناها

---

(1) Batting cages : مساحات مغلقة تشبه الأقفاص يتدرب فيها ضارب الكرات في رياضة البيسبول أو السوفتبول. (المترجم).

تتنقلان من كلمة إلى أخرى ولكن دماغها غير قادر على استيعاب المعنى. تقلب الصفحة، فقط لتدرك أنها لا تعرف ما كان يحدث في الفقرات السابقة.

تتوقف عن القراءة، وتضع الكتاب على صدرها. ليس الأمر أنها لم تستمتع بتلك الليلة في المركز الإسلامي، المطر يرتطم بالنوافذ في حين تخر الأجساد ساجدة في الصلاة. راودها شعور غريب في البداية، لكنه طبيعي، مثل إتقان مهارة جديدة في مدة وجيزة لم تكن لتتخيل قط أنه يمكنها إتقانها. في منزل كوكب في حين تجلس بين صديقتها الجديدة وشقيقتيها في غرفة العائلة، أجسادهن تتجه شرقًا، كان الإحساس نفسه يغمرها. تفكر في كوكب، كيف ترتدي حجابها مثل وسام شرف - وحتى رمز للتحدي. عفاف منبهرة. حاولت جاهدة طوال حياتها أن تكون أشبه بالأمريكان، لكنها لم تتعرض سوى للرفض والاستغلال.

تُسقِط عفاف كتابها على الأرض، وتستلقي على بطنها، الوسادة باردة في مقابل وجهها. *ما الذي يجب أن تخسره أكثر مما خسرت سلفًا؟*

* * *

تحتضنها أم زريب بالحماسة والحيوية نفسيهما كالمرة السابقة، مسرورة برجوع عفاف. الأب مسرور أيضًا. يربت على ظهرها ويرنو إلى تجمع الرجال. اختلق مجيد عذرًا عن وجود تمرين إضافي هذا الأسبوع حتى لا يأتي.

«كنت أعلم أنكِ ستعودين. الكل دائمًا يفعل. إن شاء الله، ستحلُّ عليك البركة لبقية حياتك».

تقبِّل والدة كوكب خديها. تندفع قائلة: «أتيت في أمسية عظيمة. نحن نخبز المعمول على شرف ابن ابتسام حديث الولادة، ما شاء الله». تومئ الأخريات برأسهن ويلوحن إلى عفاف.

قالت لها كوكب وهي تلمس ذراعها برفق: «أنا سعيدة جدًّا لمجيئكِ». تومئ شقيقتاها إلى عفاف، ابتسامتهما أكثر صدقًا من الأمس. «هنا، ارتدي هذا». تعطي كوكب عفاف مئزرًا وتجلسا إلى مائدة طويلة قابلة للطي مغطاة بملاءة بلاستيكية. يوجد طبق كبير من التمور المهروسة، ووعاء من زبدة كريسكو، ومقلاة فضية طويلة مبطنة بالفعل بالدفعة الأولى من حلوى المعمول. رائحة القرفة والهيل تتدفق نحوها، رائحة دافئة ومهدئة.

«هكذا»، تعطي أم زريب عفاف التعليمات؛ تأخذ حفنة صغيرة من كرة ضخمة من العجين. تفردها المرأة العجوز في راحة يدها وتضع مقدار ملعقة من التمر المهروس فوق العجين، ثم تغلقه. تمسك بعصَّارة العصير التي تستخدمها كقالب، وتضغط على العجين المحشو بداخلها. عندما تُسقِطها من العصارة، تبدو العجينة كأنها سفينة فضاء صغيرة مسطحة ذات نتوءات. «حاولي أنتِ الآن».

تخشى عفاف إفساد الأمر، لكن أم زريب تمسك بيدها، وتكرر العملية، وهي توجه أصابع عفاف. لعجينة الزبدة ملمس جيد في راحة يدها.

عندما تدخل الدفعة الأخيرة في الفرن -خبزتا خمس دزينات من المعمول- يكون وقت *صلاة المغرب* قد حان، صلاة المساء.

تسأل كوكب عفاف، وهي تُقدم إليها مجموعة من ثياب الصلاة غير المتناسقة: «مستعدة؟»

تحـرَّك شـيء داخـل عفـاف -شـيء صغيـر وواهـن، مثـل شـعاع رفيـع مـن الضـوء يصـارع للنفـاذ مـن تحـت عتبـة بـاب ثقيـل، مُقفَـل.

تقول: «أنا مستعدة».

الجزء الثالث

مدرسة نور الدين للبنات

لم يسمع صوت الرصاصات يغادر الغرفة. مثل انقطاع كلمات أغنية فجأة من تسجيل صوتي، ثم تخبو النغمات الحادة. كل ما يتبقى هو النغمات الخفيضة؛ الأجساد ترتطم بصوت مكتوم بالأرض. أعاد حشو المسدس بالرصاص دون توقف، حركة أصابعه تلقائية مثل الإطلاق السريع لسلاحه.

الفتاة الأولى التي نظرت إليه لم يكن لديها فرصة للصراخ. إطلاق النار لم يكن عشوائيًّا، أو مستهترًا. فحص كل هدف قبل سحب الزناد، مع إبقاء يده ثابتة. أخذ وقته. دفعت المعلمة، امرأة طويلة ونحيلة ترتدي حجابًا أرجوانيًّا بضع فتيات عبر باب قريب. قبل لحظات فقط، كانت تعزف على البيانو، وباليد الأخرى توجِّه الطالبات. صوب مسدسه إليها، وواصل إطلاق الرصاص حتى انفصلت ذراعها اليمنى تقريبًا عن جذعها.

كانت الطالبات، رؤوسهن مغطاة بالأبيض، مثل البجع الذي يتمايل فوق سطح الماء. كاد يؤثر ذلك فيه. فكر في آبائهن لأول مرة، والطريقة القاسية التي سيفقدون بها بناتهن. هل تهم الطريقة حقًّا؟ هل كان الأمر ليغدو أقل مأساوية لو كانت حادثة سيارة أو غرقًا؟ هل سيتقلص حزن الأم أو الأب لمعرفة كيف، وليس لماذا؟

لم يفكر في مستقبل هؤلاء الفتيات، وقال لنفسه إنه لا يهتم وهو يتفحص أجسادهن المنطرحة على الأرض، بعضهن يلهثن لالتقاط أنفاسهن حتى يهمدن في النهاية.

خرج من غرفة الموسيقى، وأغلق الباب خلفه. عويل صفارات الإنذار الخافت يغطي عليه صراخ الفتيات في الممر، ضوضاء خدِرة تصم الآذان، فقط طلقاته النارية يمكن أن تخترقها.

أراد منهن أن يرونه أيضًا، لكنهن لم يستدرن، لذلك أطلق عليهن النار على ظهورهن في أثناء تكدسهن في بئر السلم، وشاهدهن يتداعى بعضهن فوق بعض فوق الدرجات. شق طريقه فوق أجسادهن ونزل إلى الطابق الأول حيث توجد خزانة أدوات التنظيف.

ربما كانت الأمور لتصبح مختلفة بالنسبة إليه -ربما لو لم يغادر ويسكونسن مطلقًا- ربما كان ليوجد شخص آخر هنا والآن في مكانه. البندقية إلى جانبه، وحذاؤه يطقطق فوق أرضية المدرسة المفروشة بالمشمع. لو لم يكن هذا مصيره، فهل كان ليغدو مصير شخصٍ آخر؟ هل يمكن تغيير الأحداث؟ هل يمكن تحويل مسار الزمن للتراجع عنها أو تفادي وقوعها؟

منذ عقود، فتحت شيكاغو ذراعيها له مثل سمكة بطلينوس عملاقة، وهددت بابتلاعه. شعر بالوحدة التامة في هذه المدينة. أبقته القطارات المعلقة مستيقظًا حتى الصباح الباكر. كان يوقف سيارته في قبة أدلر الفلكية، ويجلس فوق غطاء سيارته، ويشاهد المراكب الشراعية وهي تمرق في بحيرة ميشيغان. الأزواج يتجولون في الأنحاء، يمسك كل منهما بيد الآخر، أو يدفعون

عربات أطفال. عادة ما ينتظر المراهقون حتى الغسق ليتوقفوا بسيارتهم هناك، وهم يرتدون سراويل جينز قصيرة ومعاطف جينز، ويحملون أكياسًا ورقية بنية تحوي زجاجات كحول تحت أذرعهم، موسيقى الروك تنبعث بصوت عالٍ من أجهزة الكاسيت داخل سياراتهم. يجلسون على أغطية سياراتهم، ويمررون الزجاجات فيما بينهم حتى تداهمهم سيارة شرطة.

وجد عملًا في شركة لإصلاح وحدات التدفئة والتبريد في مباني الشركات في منطقة لووب. لم يسمع والداه شيئًا عنه وكان يخطط للإبقاء على الأمر على هذا النحو. أقنع نفسه أن ذلك مريح له. فعل مثل أخيه: ذات يوم رحل فحسب وترك كل شيء وراءه. تعجب من سهولة الرحيل والاختفاء. وتساءل كم عدد الآخرين مثله وجو قد أقدموا على ذلك في حين يقرأ الجريدة كل صباح، ويتصفح الإعلانات المبوبة عن الأشخاص المفقودين:

ميشيل بويد، 22 سنة، امرأة بيضاء، خمسة أقدام وأربعة إنشات، 110 رطل. ربما صبغت شعرها باللون البني. شوهدت آخر مرة في 3 مايو 1978.

برادلي وايد، 31 سنة، رجل أبيض، ستة أقدام وإنش واحد، 145 رطلًا. وشم على باطن ذراعه اليمنى. شوهد آخر مرة في 27 أكتوبر 1976.

اليوم، بطريقة أو بأخرى، سيختفي أخيرًا للأبد.

من خلال النوافذ المغطاة بالجليد في نهاية الممر، شاهد الطالبات يهربن إلى موقف السيارات، وأجسادهن منحنية، تتحرك قريبة من الأرض. سمع أحدهم عبر مكبر الصوت يعطي الفتيات

تعليمات برفع أذرعهن في الهواء في أثناء إخلاء المدرسة. هل يمكن لآبائهن أن يميزوا أطفالهن بسهولة بين هاتيك الأجساد المرتعشة ذات الزي الأخضر الموحد والرؤوس المغطاة جميعًا باللون الأبيض؟

استدار نحو رصيف التحميل. أتمَّ عمله. وبحسب ما لاحظه، سقطت ما لا تقل عن عشرين جثة. يمكنه البحث عن مزيد من الطالبات والمعلمات، لكن الأمر ما كان متعلقًا بالعدد. رأى أعينهن المنكوبة بالرعب، وسمع صرخاتهن الرهيبة. خفَّض بندقيته، وبدأ يسير عائدًا من حيثما دخل مبنى المدرسة. ثم سمع صوتًا مكتومًا واستدار. يبدو أنه قادم من وراء جدار غرفة مغطى بألواح خشبية. استمع من كثب. صوت امرأة تتحدث بنبرة سريعة خافتة. رفع بندقيته مرة أخرى ولمس الشبكة الخشبية أعلى باب الغرفة بيده الحرَّة. ذكَّره ذلك بغرفة الاعتراف في كنيسة والدته. ثم تدفقت الذكريات تباعًا في ذهنه. كان هذا المبنى ديرًا للراهبات منذ ما يقرب من قرن. الآن هؤلاء الناس قد استولوا عليه. منذ أكثر من عقدين من الزمان، كان يجلس في اجتماعات قاعة قرية تيمبست، يستشيط غضبًا من احتمالية إقامة مدرسة إسلامية في حيّه. كان يقف جنبًا إلى جنب مع المتظاهرين الآخرين في الجزء الخلفي من غرفة الاعتراف، حاملًا لافتات مكتوب عليها: *صوِّت بـ «لا» لمدرسة الإرهاب وحافظ على أمان تيمبست*. في النهاية، فشل المجلس في إبعادهم. والآن ليس بوسعهم أن يلوموا أحد إلا أنفسهم. أخبر إيلين عندما ظهرت حوادث التخريب في الصفحة الأولى لصحيفة ديلي ساوثتاون،

لا يمكنك أن تتصرفي بشكل مختلف وتتوقعي أن تلقي معاملة مختلفة. عندما بدأت عملية بناء المدرسة أخيرًا، ألقى مفتاح ربط إنكليزي من صندوق أدواته على نافذة مشيدة حديثًا في الطابق الأول من المبنى فيما يمر في ساعة متأخرة من إحدى الليالي بشاحنته. وكان يضحك مع الآخرين في حانة محلية بسبب القصص التي سمعوها عن اقتحام الناس المبنى وتغوطهم على الأرضيات المغطاة حديثًا بالبلاط. أصبح الأمر سيئًا جدًا لدرجة تعيين حارسين ليليين للسهر على حماية المبنى حتى استكمال البناء. هذا ما زاد من سخطه —*كانت تكلفة حماية المدرسة على حساب القرية. من الضرائب التي يدفعها، من عمله الشاق.*

لا بد أن هذه الحجرة غرفة اعتراف قديمة. كانت الشبكة الخشبية ناعمة في مقابل أطراف أصابعه. واصلت مكبرات الصوت إصدار الأوامر في الخارج. كان يسمع الفتيات الصغيرات يصرخن، وينادي بعضهن بعضًا. تشققت طبقة من الجليد المتجمد فوق النافذة المقابلة لغرفة الاعتراف. تذكر مدى هدوء الصباح الباكر عندما أخذ جيني في نزهة، والثلج يغطي طريقهما. ضغط أذنه فوق جدار غرفة الاعتراف، ثم تراجع للوراء. بكامل قوة حذائه، ركل الباب ليفتحه، وبندقيته في وضع الاستعداد.

1993

1

يبدو الأمر كأن إنسانة غريبة تبادلها النظرات. في البداية، يطفو وجه بلا جسد في المرآة، حتى يتحول متخذًا شكل وجهها: عيناها بنيتا اللون برموش كثيفة، وآثار تجاعيد مبكرة تبرز عندما تبتسم. أنفها نضج حتى صار يشبه أنف أبيها -الأنف نفسه تقريبًا، وشفتاها شاحبتان وترتعشان عند الزوايا، غير متأكدتين من الانعكاس في المرآة.

تلمس عفاف قماش الحجاب على طول الجزء العلوي من رأسها، تتجمع طياته برفق عند حلقها. تحت الحجاب، ما زالت الإنسانة نفسها. ومع ذلك، فقد اختفى جزء كبير من عفاف، خُبِّئَ ولن ينكشف مرة أخرى في الأماكن العامة، ولن تنزعه إلا في حضرة النساء. تسري وخزة شيء دائم بشكل مأساوي في أحشائها. أمضت سنوات تمقت شعرها -تموجاته الخشنة والجامحة، متحملة عناء كل الساعات التي أمضتها في تجفيفه بالمجفف حتى تفرده. الآن تجمعه في كعكة عند قاعدة مؤخرة رقبتها مثل بكرة الخيط. شريط داخلي مرن عريض يبقيه في مكانه *والشيلة (الطرحة)* الخضراء الداكنة -هدية- تلف رأسها.

ليس الأمر كأنها لم ترتدِ الحجاب في الأماكن العامة من قبل قط. منذ انضمامها إلى المركز الإسلامي، ارتدته عفاف في احتفالات العيد، والصلوات داخل المسجد. ومع ذلك، كم سارعت

إلى انتزاعه بمجرد صعودها إلى سيارتها، وتفرد شعرها الكثيف، وتفحص مظهرها في مرآة الرؤية الخلفية، وتمسد خصلات شعرها الجامدة بسبب ملامستها قماش الحجاب الصناعي لمدة طويلة.

تلمس مؤخرة رأسها، وتتحسس شعرها. هل هذا *الستر* ثمن باهظ تدفعه خضوعًا لأوامر الله؟ لن تشعر بعد الآن ببرودة شتاء إلينوي وهي تتغلغل خلال شعرها، وتدغدغ أذنيها عندما تغادر الشقة. ولن تشعر بأشعة الشمس تلفح رأسها عندما تمشي برفقة الأب على امتداد البحيرة، فروة رأسها دافئة ورطبة بالعرق.

ستفتقد عفاف شعرها بالطريقة التي يكمِّل بها وجهها، الذي لم تحبه دائمًا.

تسألها كوكب من وراء الباب: «جاهزة؟»

«تقريبًا». مضى وقت طويل وهي تقف هنا داخل الحمام.

تدس عفاف إصبعًا داخل حاشية الحجاب، وتتعقب خط شعرها حتى أذنها. شيء آخر يزعجها. هل ستتعرف عليها أختها ندى ذات يوم وهي مرتدية هذا الشيء؟ لطالما انتابها ذلك الشعور كأنَّ شقيقتها تترقب في مكان ما حتى يُعثر عليها.

في الشهر الفائت، عبرت عفاف أمام ندى في ممر داخل السوبر ماركت. استدارت عفاف، وتبعتها وهي تدفع عربتها الزاخرة بالبقالة التي اشترتها حسب القائمة التي تعطيها إياها أمها كل أسبوع، مهمة تولت القيام بها عوضًا عن أبيها. شعر ندى المتموج نما أطول، وجسدها صار ريانًا مع تقدمها في العمر. عندما استدارت أختها عند الزاوية، لمحت عفاف جانب وجهها.

غاص قلبها في مكانه. لم تكن ندى. لن تكون ندى أبدًا. على مدار سنوات، دفعت عفاف عربة تسوقها خلف غريبات، طوال الطريق حتى طابور الدفع أمام ماكينة الصراف، وأحيانًا حتى مرأب السيارات. تلمح ندى في أماكن عامة- فوق رصيف نيفي بير[1] أو في المدرجات في إحدى مباريات فريق وايت سوكس. في كل مرة ينحشر قلبها في حلقها، وينقبض بطنها بحماسة شديدة من احتمال أن تكون قد عثرت أخيرًا على أختها. حالما تستدير ندى، تجد عفاف وجهًا غريبًا يبتسم لها بفضول: *هل يمكنني مساعدتك؟*

والآن، هل ستتراءى غريبة أيضًا عندما تعبر ندى أمامها؟ وهل ستدقق النظر إلى هذه الشابة المحجبة؟ هل يمكن أن توضح لأختها كم عنى الإسلام ومركز الصلاة في تيمبست لها؟ بدأ ذلك بإحساسها بوجود مجتمع راسخ، لأول مرة، شعرت بأنها تنتمي حقًّا إلى مكان معين. أليس هذا ما كانت تتوق إليه ندى أيضًا؟ الانتماء؟ ربما ستتفهمها ندى أكثر من أي أحد آخر. أم زريب وكوكب وعائلتها وبقية دائرة النساء – تقبلن عفاف وتجاهلن ماضيها وصفحن عن عيوبها. قبل أن تكتشف الرب، وجدت عائلة في المركز. وبفضل رحمتهن، وإخلاصها المتنامي للإسلام، وجدت الله. كانت تُكثر الدعاء من أجل ندى: *إن شاء الله سيجتمع شملنا يومًا ما*. ولو لم تكن ندى في هذا العالم بعد الآن، فستنتظر لقاء أختها في عالم الآخرة.

---

(1) مرسى شهير على امتداد شاطئ بحيرة ميشيغان بشيكاغو (المترجم).

ومع أن هذا يعطيها أملًا قد يكون زائفًا، لا تزال عفاف تبحث عن ندى في ممرات متجر البقالة.

في المرآة، تعدل عفاف وضعية حجابها لآخر مرة وتكفكف دموعها. تفتح الباب.

«ما شاء الله». تُلقي كوكب ذراعيها حول عفاف، وبطن صديقتها المنتفخ يمنعها من احتضانها بالكامل. «أنتِ جميلة!»

عفاف تضحك على مجاملة صديقتها، مجاملة من النوع الذي تعطيه امرأة تقف بفستان زفافها.

كوكب تصفق بيديها. «كنت أعرف أن اللون الأخضر هو لونك! لون النبي! الله يهديكِ دائمًا، يا عفاف!»

ترجو عفاف بصمت أن يمنحها الله كل بركة وكل نعمة ممكنة. تشعر كما لو أنها على أعتاب شيء أكبر، وهذه القوة ما ستحملها إلى الخارج، في الأماكن العامة، شعرها -مثل ثديين عاريين- أصبح الآن عورة -جزءًا معزولًا من جسدها.

احتفال ارتدائها الحجاب تستضيفه سهى بكري، المرأة التي التزمت ارتداء الحجاب قبلها مباشرة من دائرة نساء المركز. تقليد بدأ بينهن: بمجرد اتخاذكِ قرار ارتداء الحجاب مدى الحياة، يكون عليكِ تكريم المرأة التالية التي تُقدِم على ذلك، في منزلكِ مع صواني البقلاوة والفطائر. منذ أواخر الثمانينيات، بدأت بعض المسلمات في شيكاغو إخفاء شعرهن بطرائق خاصة: القبعات المنسدلة أسفل آذانهن مع الياقات المدورة، أو الحجاب الملفوف بشكل فضفاض مثل أولئك النساء العصريات اللواتي كن يقدن سيارات مكشوفة في الخمسينيات، خصلات من غرَّة الشعر

تبرز خارجه. كانت سهى بكري هي الأحدث في عدد متزايد من النساء اللواتي يرتدين الحجاب بالكامل.

تسأل عفاف كوكب وهي تعبث بدبوس صغير على جانب رأسها: «كيف أبدو حقًا؟»

يشرق وجه صديقتها كما فعلت في المرة الأولى التي صلّتا فيها جنبًا إلى جنب على أرضية المركز الإسلامي. هما الآن في السابعة والعشرين من العمر.

كوكب متزوجة، وتنتظر وصول طفلها الأول. في البداية ارتابت عفاف في خطيب كوكب، يزن، مقتنعة بأنه لا يوجد رجل في الدنيا يستحق صديقتها العزيزة. أتى إلى منزل كوكب مع حاشية صغيرة من الإخوة وأبناء العم والأعمام ليطلب يدها، ووافقت كوكب عليه رسميًا. خلال مدة الخطوبة، راقبتهما عفاف معًا، ثمة مودة هادئة بينهما لكنهما لم يظهرا حبهما قط في العلن. لكن عفاف الآن تلاحظ ضغطة أحدهما على يد الآخر عندما يلتقي يزن وكوكب بشكل عابر في مناسبات جمع التبرعات من أجل فلسطين، وتلمح النظرات الطويلة التي يتبادلانها عبر مائدة ملأى بالضيوف في ليالي سحور رمضان.

يتراءى لها الحب الحقيقي والدائم ممكنًا عندما تكون حول صديقتها وزوجها. في زفافهما، تلا الإمام: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. استمعت عفاف، المستنزفة منذ زمن طويل بزواج والديها الذي يتآكل مثل أحفورة شيء كان يعيش ويزدهر في يوم من الأيام، ثم طمسته كارثة طبيعية. تسبب

تفاني أبيها للإسلام ثم تفانيها هي نفسها في انشقاق عائلتها؛ نشأت تحالفات هادئة بين عفاف والأب من جهة، والأم ومجيد من جهة أخرى. يرفض شقيقها أي دين *منظم* كما يسميه، ويكرر تلك الرسالة عندما يدخل الكلية. لكن عفاف تعلم أنه رفض لأبيهما، وما وضع أمهما خلاله من صعاب منذ أن كانا طفلين. في نظر مجيد، أمهما غير مُلامة على أي شيء، امرأة اقتُلِعت من عائلتها ووطنها، ثم سُرِقت ابنتها منها. وزاد الأب الأمور سوءًا عليها فحسب.

ازدراء الأم للدين أقل أيديولوجية قياسًا بمجيد. ازدراء شخصي. بالكاد تتحدث إلى عفاف، تنشغل بالطبخ والتنظيف دائمًا، والتلفاز يغطي على الصمت بينهما. يمكن لعفاف أن تشعر بعيني والدتها المسلطتين عليها من الممر عندما تصلي في غرفة العائلة على البساط نفسه الذي أحضره الأب إلى المنزل من المسجد قبل سنوات طويلة. تراقب الأم زوجها أيضًا؛ *هل تشتاق إلى شيء يكون مصدر دعم وسند لها؟ هل اشمئزاز الأم الصريح مجرد حسد مبطن؟*

الصيام مفيد للجسد والروح، قالت عفاف للأم في رمضان الماضي، داعية والدتها للانضمام إليها هي والأب من أجل شهر من التجديد الروحي. لصقت إمساكية رمضان فوق الثلاجة، وعدت الأيام حتى العيد باستخدام قلم ماركر. كانت تلمح أمها تتأملها، وهي تتبع بأصابعها الجدول الزمني للصلاة والإفطار.

ردَّت الأم عليها بانفعال، *لا تقلقي على روحي. لدي حساب لتصفيته*.

تجعدت زوايا عيني الأب اشتياقًا إلى الأم. في العشاء، بينما يشارك آخر أخبار المركز الإسلامي وهو يغرف أرزًا مصبوغًا بالكركم في طبقه، تنفث الأم دخان سيجارتها، ظهرها متكئ على حوض المطبخ. شفتاه ترتعشان بترقب. تتناول عفاف حساء الفاصولياء البيضاء الذي طهته الأم، وتومئ برأسها إلى ثرثرة الأب التي لا تنقطع. تشعر كأنها يجب أن تعوض لا مبالاة الأم. ألا ينبغي أن يكون هذا وقتًا للتقارب بين والديها، جسداهما الآخذان في الشيخوخة يحتاجان إلى الاتكاء كل منهما على الآخر فيما يتحملان عبء الأحزان والمصائب التي ألقتها الحياة في طريقهما؟ رفض الأم يدفعه إلى الاقتراب أكثر من إيمانه الذي يتمسك به كما يتعلق الغريق بقشة.

شخصان يعيشان معًا في مثل هذا البؤس شوَّه إيمان عفاف بالزواج. يبدو الزواج لها أسوأ بكثير من أن تكون وحيدة عن عمد.

بينما تمد كوكب يدها لتمسك يد عفاف، تفرك بيدها الأخرى بطنها. «أنت متألق». عفاف تلتقط يد صديقتها ويخرجان من الباب. تنتشر رائحة القهوة ببهارات الهيل في بهو منزل سهى بكري الفاخر. تعيش في حي راقٍ في قرية تيمبست، جزء من السكان العرب الأثرياء الذين هاجروا أميالًا جنوب شيكاغو برفقة الآلاف من البيض الذين نبذوا وجودهم الحضري. يتجاهل الحضور التحدث عن ازدواجية متجر الخمور الذي يمتلكه زوج سلوى- سيحكم الله عليها وعلى زوجها كلّ على حدة على أساس حسناته وذنوبه، هكذا يخطب فيهم الإمام كل يوم جمعة. تبرع

زوج سهى مؤخرًا لبناء صالة ألعاب رياضية للشباب المسلمين سينتهي تشييدها في الربيع. تتلألأ ثريا ضخمة فوق رأس عفاف، وإطارات مذهبة منقوش عليها آيات قرآنية معلقة على جدران مبطنة بالإسفنج.

تندفع سهى قائلة: «أهلًا وسهلًا بكِ، ومبارك يا حبيبتي!» ترتدي حجابها رغم أنها داخل منزلها، ويمكن لعفاف أن تقول إنها لا تزال عامرة بالحماسة لقرارها بالتزام الحجاب الشهر الماضي. لمحة سريعة عن منزل سهى بكري: درج حلزوني وسقوف كاتدرائية وأرضيات رخامية وسيارة رينج روفر في الدرب خارج البيت، ويمكن لعفاف أن ترى مدى سهولة التحول على شخص مثل سهى وتكريس نفسها للإسلام. وإلا فكيف يمكن المرء أن يفسر مثل هذه الثروة والراحة، ونعمة الأطفال الأصحاء؟ تبتسم عفاف لنفسها، وهي وكوكب تندمجان داخل عائلة كبيرة. هذه تضحية صغيرة، أن تخفي امرأة مثل سهى تموجات شعرها المصبوغة بلون فاتح والكثيفة تحت قماش ضارب إلى الحمرة، مشدود ومرصع بأحجار الراين الصغيرة

تنتظر النساء في دائرة لاحتضان عفاف. وابل من الشفاه والأعين وأغطية الرأس تحيط بها. تتحرك بسرعة كبيرة عبر الصف، ولا يمكنها تذكر من حيَّت للتو. عندما تتمكن أخيرًا من الاستدارة إلى الوراء، تسعد برؤية نسائها المفضلات حاضرات. والدة كوكب وشقيقتاها، اللاتي يتشاركن جميعهن في الابتسامة المعقوفة نفسها، ينظرن ببهجة إلى عفاف. ريتا باركر وابنتها أشانتي تلوحان إليها من غرفة المعيشة. ترتديان عمائم الزمرد،

وجهاهما يتلألآن بلون برونزي غامق.

تتذكر عفاف المرة الأولى التي قابلت فيها السيد بنيامين باركر. تفاجأت الأم من حضور الرجل الأسود الضخم البنية الذي دعاه الأب إلى مطبخها الصغير. بظهر متيبس، قدمت لهم القهوة. سواء كان غافلًا تمامًا أو مهذبًا بطبعه كما ستعرف عفاف لاحقًا، لم يتوقف السيد باركر عن الابتسام وشكر الأم على كرم ضيافتها.

هو وعائلته أول أفراد من السود ينضمون إلى المسجد. يعيشون على مبعدة بلدة واحدة من تيمبست. انبهر الأب فورًا بمعتقدات السيد باركر المتحمِّسة. أمضيا ساعات في مطعم لُوَر دلتا Lower Delta في شارع سبعة وثمانين بضاحية كيدزي، يتناقشان حول المسلمين الذين يتربحون المال على حساب الفقراء السود. كان السيد باركر يحتج وهو يفرك لحيته:

يجب أن يكون هناك مراكز اجتماعية ومراكز رعاية نهارية في كل زاوية - وليس متجر خمور كما هو الحال، يا أخي.

يصادق الأب على كلامه: *الله يرى الآثام التي نقترفها. يرى كل شيء.*

تنتظر أم زريب عفاف في حجرة المعيشة.

تمد يديها إليها: «أنا فخورة جدًّا بكِ يا عفاف». تخبرها أم زريب في حين تنحني عفاف لها. «قطعت شوطًا طويلًا يا حبيبتي».

تجثو عفاف على الأرض بجانبها، وتومئ برأسها، متذكرة اليوم الماطر عندما تبعت هي وماجد، مراهقان خجولان تملؤهما

الشكوك، أباهما داخل هذا المبنى المتداعي في شارع ثلاثة وستين بضاحية كيدزي. قبِلت المرأة عفاف دونما أسئلة، دونما حكم. تذكرت كيف جالت بعينيها في صفوف المصلين فوق السجاجيد الفارسية، إيمانهم محسوس. جعلوها تؤمن بأنها تستحق شيئًا أكبر من عالم مدرسة هوفر الثانوية، بفتياتها البيضاوات وعشاقهن، جعلوها تؤمن بأنها يمكنها أن تسمو فوق أسرتها المحطمة بسبب شقيقتها المختفية وأمها التي باتت غير مكترثة بأي شيء. دائرة النساء وبناتهن حثثتها على فعل الخير، على حب الله، وتعلُّم أن حب الله ينعكس على المرء ما إن يفتح قلبه. قبل أن تستوعب عطاء الله العظيم، أحبت هؤلاء النساء أولًا، أمكنها لمس -وجمع- عطفهن في يديها، أمكنها إحاطة نفسها برحمتهن وبهائهن حتى استطاعت أن تأخذ أول خطوة في طريق حب نفسها مجددًا.

في هذه اللحظة، تعتصر أم زريب يدي عفاف، ثم تضغط راحة يدها في مقابل جبهة عفاف المغطاة جزئيًّا بالحجاب. «إن شاء الله، أمكِ ليست بعيدة جدًّا عن سبيل الهداية».

هتاف *إن شاء الله* يتعالى من النساء مثل مرجل يتدفق منه الأمل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

2

الإثـارة الاحتفاليـة تعلو وتخبـو فـي منـزل سـهى. تنسـل عفـاف إلـى حمـام الضيـوف، وتحظـى لنفسـها ببضـع لحظـات مـن السـكينة. تنظـر إلـى انعـكاس صورتهـا فـي المـرآة فـوق الحـوض، وتفكـر فـي بـلال. يمتـد وجهـه مـن أركان عقلهـا، يتسـرب إلـى كل تجويـف فيـه. قزحيتـاه مثـل قطرتـي عسـل، تحـت حواجـب كثيفـة. سـيكون فخـورًا بحجابهـا. مـع أنـه ليـس السـبب فـي أنهـا قـررت أخيـرًا ارتـداءه، إلا أنهـا مسـرورة لأن ذلـك سيسـعده. بـلال حمـزي. ابـن *الأجنابيـة* كمـا يسـميه بابـا؛ ابـن امـرأة أجنبيـة. ظهـر فـي أحـد أيـام الأسـبوع لحضـور دروس اللغـة الإنجليزيـة التـي تعطيهـا عفـاف للاجئيـن الجـدد فـي المركـز الإسـلامي. كان دائمًـا أول مـن يصـل، ويبـدو أن عينيـه تتبـع كل حركـة وإيمـاءة لهـا، فـي حيـن يسـتمع باهتمـام إلـى كل كلمـة تنطقهـا ببطء وهـي تشـير إلـى السـبورة خلفهـا. رأت أن مـا يحفـز بـلال أكثـر مـن مجـرد طمـوح. يكسـو وجهـه نـوع مـن اليـأس الصامـت، حاجـة ملحـة إلـى أن يُبلـي بـلاء حسـنًا، أن يحقـق شيئًا مـا لنفسـه. سـمعت قصتـه تُحكـى فـي أرجـاء المسـجد، كيـف هـرب مـن شـرق البوسـنة. كيـف أُعدِم والـده وأعمامـه. تكفـل المركـز بتكاليـف هجـرة بـلال. فـي أمريـكا، اجتمـع شـمله بوالدتـه وأختـه اللتيـن فرَّتـا مـن البـلاد أيضًـا. اسـتطاعت عفـاف أن تـرى الدَّيـن الذي حملـه بـلال لنجاتـه مـن القتـل، ثقـل رهيـب علـى كاهليـه يكافـح تحـت وطأتـه. بـات عازمًـا الآن لتحقيـق أقصـى اسـتفادة مـن الحيـاة التـي كُتِبَـت لـه مـن جديـد. فـي أحـد الأيـام، مكـث بعـد انقضـاء الـدرس.

أنتِ معلمة صبورة جدًا. كلماته المتقنة لكن البطيئة والمتقطِّعة أدهشتها. كان عادة هادئًا في أثناء الدرس. قالت له عفاف: «أنت طالب جيد»، واستدارت لمسح السبورة متجنبة نظرته. كان رجلًا وسيمًا، لبشرته لون الشاي المنقوع قليلًا. سألها: «هل أنتِ معلمة مدرسة؟» «نعم. أنا أدرِّس في مدرسة بشيكاغو. أدرّس الصفين الثالث والرابع». أومأ برأسه. «أنتِ معلمة بالفطرة».

احمرّ خدا عفاف، وقبلت دعوته لتناول القهوة. كانت قد تلقت عروض زواج من مسلمين آخرين، إخوة وأبناء أعمام النساء اللواتي صلَّت بجوارهن في المسجد. ابتسمت بأدب على سلسلة الإشادات المتكررة التي اضطرت إلى الاستماع إليها وهي ترش الماء على وجهها في أثناء الوضوء في حمام النساء المشترك، أو عندما تنتعل حذاءها مرة أخرى بعد الصلاة:

حاتم طبيب مقيم في السنة الثانية في مستشفى راش، يا عفاف. سيكون كل منكما مثاليًا للآخر.

ما شاء الله، أخي فراس يفتتح متجر مجوهرات ثانيًا في المجمع التجاري. هل تريدين رؤية صورة له؟

هم رجال محترمون، لكن عفاف لم تكن مهتمة. ثمة شيء ينقصهم - أو ربما ينقصها. بعد أن انضمت إلى المركز، ما عاد كونها وحيدة يتراءى لها وباء. لم تكن الوحدة ذاتها بالنسبة إليها، تلك الوحدة التي اعترتها لسنوات عديدة دون أخت، ودون أبوين داعمين لها. عندما دخل بلال حياتها، ملأ حيزًا سريعًا، مثل تجمع مياه الأمطار في إبريق ري الزهور. شعرت أن علاقتها به غير متوقعة لكن طبيعية جدًا في الآن نفسه.

أمضيا الصيف في محيط قبة أدلر السماوية، جالسين أمام البحيرة، يشاهدان المراكب الشراعية كما دأبت على أن تفعل عندما كانت طفلة صغيرة. أكلا سندوتشات الفلافل، وتناولا الشاي المثلج المعبأ في زجاجات. حدّثها عن المدة التي قضاها في جامعة توزلا، وشاركته الحكايات عن تلاميذها الصغار. تجنبا التطرق إلى قصص الأشياء التي حطمتهما.

في أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع في أوائل أكتوبر، زارا مشتلًا خارج المدينة، ومشيا بين أشجار الأرز العظيمة وأشجار القيقب السوداء. توقفت عفاف لتلتقط ورقة ساقطة، تفتّتت عندما لمستها. أمسك بلال بيدها وشدها إليه. التقت شفاههما في قبلة أولى.

قادها إلى مقعد يواجه بركة كبيرة تحدها أشجار تنوب زرقاء على الجانب البعيد. سبح البط في رضا، غامسًا مناقيره الصفراء في الماء. جلس هو وعفاف في صمت طويل قبل أن يتكلم بلال بصوت منخفض.

عدت إلى المنزل من الجامعة. قريتي احترقت تمامًا. والدي وأعمامي وأبناء عمومتي وأصدقائي. كلهم موتى. كانت والدتي وأختي قد رحلتا بالفعل.

تجعدت عيناه وهو ينظر إلى البركة المتموجة.

واصلت التحرك. بقيت مختبئًا في الغابة مدة أسبوعين. لا طعام. فقط الطماطم التي أسرقها من المزرعة المجاورة. أشرب الماء من الخور.

أمسك بيد عفاف.

أمي. ما زالت تبكي في الليل. هي لا تعرف أنني أسمعها.

التفت إلى عفاف وأزاح خصلة شاردة من شعرها خلف أذنها، وأمسك ذقنها في يده.

أريد أن تبدأ حياتي من جديد.

كان عرضًا هادئًا بالزواج.

تدرك عفاف معنى أن يبدأ المرء من جديد، وأن يحصل على فرصة أخرى. بالنسبة إلى بلال، فهو يترك وراءه الأجزاء الميتة - والده وأقاربه، وبلده المدمر. وهو الآن يتطلع إلى المستقبل، مستقبل يضم عفاف. كانا يخوضان الرحلة نفسها، مساراتهما تتلاقى بسعادة. نصيب كما تسميه الخالة نسرين - القدر.

ألم يكن لله يد في ذلك أيضا؟ قادها الإسلام إلى هنا. هل كانت لتجد بلال لولا إيمانها الجديد؟ تنظر إلى نفسها الآن: مسلمة مخلصة، ومعلمة في مدرسة عامة. عفاف مدينة بالكثير لدائرة نساء المركز. *الحمد لله* كما يقول الأب.

ضغط بلال على يدها، وعيناه الكهرمانيتان دافئتان وراجيتان.

سأعتني بك دائمًا.

لأول مرة في حياتها، تكتشف عفاف شعور أن يرغب فيها إنسان آخر -أن يحتاج إليها- شعرت بنشوة لم تتخيلها قط. هي محبوبة بالفعل من الآخرين؛ الأب، مجيد، كوكب، أم زريب. لكن ما يقدمه لها بلال يختلف عن نوع الحب غير المشروط الذي يقدمونه لها. برفقة بلال تنزوي ذكريات الأولاد البيض وهم يتحسسون أحزمة حمالة صدرها، ويضغطون بشفاههم المتشققة على شفتيها، مثل الورقة الساقطة التي تفتّتت في يدها ذلك اليوم.

يخططـان للإعـلان عـن خطوبتهمـا الربيـع المقبـل. قبـل بـلال وظيفـة متـدرب فـي شـركة محاسـبة فـي شـيكاغو فـي حيـن يعمـل علـى أوراق اعتمـاد تحويلـه الجامعـي. حلمـه تطويـر نظـام معامـلات مصرفيـة حـلال للمسـلمين، وتخصيـص الفوائـد التـي يحققهـا حسـاب بنكـي شـخصي لصالـح الأعمـال الخيريـة.

إن درَّسـت عفـاف فـي المدرسـة الصيفيـة، فسـيدخران مـا يكفـي لإقامـة حفـل زفـاف صغيـر.

بالعـودة إلـى الحاضـر فـي مطبـخ سـهى بكـري الواسـع، تلـوح عفـاف لوالـدة بـلال السـيدة إلهانـا، التـي تعدُّ لنفسـها طبقًـا صغيـرًا مـن الحلويـات مـن صوانـي الكنافـة والبقـلاوة المرتبـة علـى منضـدة مـن الجرانيـت. والـدة بـلال امـرأة نحيفـة ذات كتفيـن صغيرتيـن، وعينيـن زرقاويـن. إسـما، شـقيقة بـلال، تدنـو مـن عفـاف، وتحتضنهـا بقـوة، غطـاء رأسـها بلـون الزعفـران.

تقـول: «مبـارك». لغتهـا العربيـة، مثـل لغتهـا الإنجليزيـة، متكلفـة لكـن عذبـة. ورثـت بشـرة والدتهـا البيضـاء وعينيهـا الزرقاويـن.

تسـحب إسـما مظروفًـا مـن جيـب سـترة طويلـة تصـل حتـى فخذهـا، وتدسـه فـي يـد عفـاف. تغمـز بعينيهـا إلـى عفـاف قبـل أن تنضـم إلـى والدتهـا.

داخـل المظـروف مؤشـر كتـاب مـن بـلال. أحـد وجهيـه منقـوش بالخـط العربـي. تتعقـب عفـاف الحلقـات والانحنـاءات الذهبيـة بأطـراف أصابعهـا. يقـول التعليـق المكتـوب: حـب *لعثمـان أوزكاي*. هـذه طريقـة بـلال فـي التعبيـر عـن محبتـه لهـا، محبـة هادئـة وصلبـة مثـل خشـب البلـوط - لا توجـد مسـاحات جوفـاء أو أصـداء.

3

في طريق عودتها إلى المنزل من الحفلة، تتوقف عفاف بالسيارة لملئها بالغاز حتى توفر بعض الوقت في الصباح. لم ترتفع درجات الحرارة في أواخر الخريف فوق خمسين درجة فهرنهايت. السماء ملبدة بالغيوم ورذاذ خفيف يغطي زجاج سيارتها الأمامي وهي تركنها أمام مضخة البنزين. قالت للصرَّافة: «أريد عشرين لترًا من الفئة الثانية، من فضلك»، وهي تبتسم وتحاول جذب انتباه الشابة بعيدًا عن حجابها. لا تقول الصرَّافة أي شيء، وتدس ورقة عفاف النقدية في درجها، وتضغط على بعض الأزرار. «*ذات خرقة الرأس*[1]». تستدير عفاف وقلبها يخفق بقوة. من قالها؟ مجموعة من المراهقين يضحكون بالقرب من ماكينة عصائر. رجل يرتدي بدلة يثبت عينيه على الصحيفة التي يشتريها، ويرفض النظر إلى عفاف. الصرَّافة تمنحها ابتسامة خبيثة. تتجه عفاف إلى المخرج، وقد احمرَّ خداها. اختفت القناعة العميقة التي شعرت بها منذ مدة وجيزة في منزل سهى بكري، كأنها كانت تسير على حبل مشدود انتُزِعت شبكة الأمان من تحته. هل هذه مقدمة لما ستكون عليه الحياة من الآن فصاعدًا؟ تظل عفاف متسمرة في مكانها عند المدخل وهي تضخ الغاز في سيارتها. المارة يدخلون ويخرجون، بعضهم يلقي نظرة إليها، فيما البعض الآخر غافل

(1) Raghead : كلمة بذيئة تُطلق على أحد أفراد جماعة دينية أو عرقية مثل المسلمين والهنود السيخ والهندوس الذين يعتمرون غطاء للرأس (حجابًا أو كوفية أو عمامة) (المترجم).

عن هذه المرأة ذات الرأس الملفوف. هل هي قوية بما يكفي لتحمل التهكمات؟ عفاف تفكر في كوكب وأم زريب: *الله سيعيننا على تجاوز أي شيء*. هذا ما تخبر به كل منهما الأخرى في دائرة النساء، عندما تصبح الأمور صعبة. مثل بهية عدوان واستسلام والدها المؤلم للخرف. أو رندة عبد العزيز، التي ما زالت تترنح من تجربة طلاق قاسية. وعندما يفقدن أطفالهن بسبب المرض والمجهول، يُنصحنَ بقراءة سورة البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

تصعد عفاف إلى داخل سيارتها، وتقلب حاجب الشمس لتفتحه وتنظر في المرآه المثبتة فيه. فقط عيناها وأنفها ظاهران، يؤطر وجهها قماش أخضر. تحرَّكت في مكانها، محاولة التقاط صورة رأسها بالكامل، لكن هذا مستحيل. تقلب الحاجب للخلف لتغلقه. تقول لنفسها: *أستطيع أن أفعل هذا - إنه شيء صغير. شيء هين.*

عندما تصل عفاف إلى المنزل، تجد أمها جالسة إلى مائدة المطبخ، تحتسي فنجانًا من القهوة. على ذات التلفاز المحمول القديم، تشاهد برنامج صباح الخير يا أمريكا Good Morning America وفيل دوناهو. تمكث الأم في المطبخ طوال اليوم، تنظف وتطبخ وتشاهد برامج المسابقات، وتمسح المنضدة باستمرار رغم أنها نظيفة. في الليل، تغلق باب غرفة نومها، وتشاهد مزيدًا من برامج التلفاز على جهاز آخر اشتراه لها الأب. لا يهم في أي غرفة هي، صوت التلفاز يطمس الهدوء، كأن والدتها لا تستطيع أن تحتمل أن تكون وحيدة مع أفكارها.

تقول الأم، عيناها الخضراوان تلمعان بالسخرية: «ألف مبارك. تهانينا على الخطوة الأخيرة في عملية التحوُّل. ليفدِ الرب روحك». نغمة الازدراء نفسها التي سمعتها في محطة الوقود: *ذات خرقة الرأس*. تمسك الأم فنجانها وتشطفه في الحوض. حاشية عباءتها السوداء تفترش الأرض، وأكمامها الطويلة واسعة ومسترسلة. صدر العباءة مرصع بخيوط فضية وذهبية، وتحتوي الياقة المفتوحة على حلقات من زهور صغيرة مطرزة. واحدة من دزينة من العباءات التي أحضرتها الخالة نسرين للأم من البلاد- فلسطين. آخر مظلمة للأم –المظلمة الأكثر إهانة، كما أدركت عفاف- رحلة الأب إلى الحج العام الماضي. بفضل مساهمات من المركز الإسلامي، جمع والدها عدة آلاف من الدولارات. وسافر إلى مكة المكرمة لإنجاز أحد أقدس أركان الإسلام. كانت تكلفة شراء تذكرة سفر الأم إلى فلسطين أقل، مع تخصيص بضع مئات من الدولارات لشراء الهدايا من أجل عائلتها. يقول الأب للأم ردًّا على شكواها: «كيف تنكرين يا منتهى ما فرضه الله علينا؟» لكن عفاف تدرك أن الأمر لا يتعلق حقًّا بالالتزام الديني أو حتى المال. تتعرف عفاف على الخوف المبهم ذاته في عيني الأب -*لو ترك الأم تسافر إلى وطنها، فقد لا ترجع قطّ*.

توفي والد أمها بعد وقت قصير من زواجها. وتوفيت والدتها العام الماضي بسبب التهاب رئوي. مضى أكثر من عشرين عامًا منذ أن رأتها الأم آخر مرة. ثمة صورة مؤطرة لها معلقة فوق خزانة ملابس الأم. في تلك الصورة، ترتدي جدة عفاف بدلة رسمية بكتفين عريضتين، وتحمل رضيعة بين ذراعيها - الخالة

نسرين، آخر أطفالها. فتاة صغيرة -الأم- تحدق باستحياء في الكاميرا، ممسكة بحاشية سترة والدتها. تتساءل عفاف فيمَ كانت تفكر تلك الفتاة الصغيرة في الصورة - *هل تنبأت الأم بالفعل حينذاك بحياتها البالغة؟ هل هذا ما جعل ملامح وجهها كئيبة جدًّا؟*

كما جرت العادة، أقامت الخالة نسرين أمسية حداد على الجدة في منزلها في كينوشا، واستقبلت هي والأم الأصدقاء والأقارب البعيدين الذين أتوا لتقديم تعازيهم، ومعهم أطباق مغلفة بورق الألمونيوم ملأى بالأرز والخضراوات. أرسل المسجد كرتونة من البلح الطازج ومبلغ تبرع صغيرًا. ساعدت عفاف الخالة نسرين في تقديم القهوة المرَّة في فناجين صغيرة الحجم، فيما كان مجيد والأب يجلسان مع الرجال في غرفة المعيشة، الأب يحرك بإبهامه مسبحته، وهي مجموعة من خرز الجَزْع الأسود أحضرها معه من الحج. كان شقيقها يحدق في قدميه طيلة الوقت فيما يفرِّج العم يحيى زميله على خريطة قديمة للقدس وجدها في معرض فنون في ميلووكي.

في المطبخ حيث تجمعت النساء، كوَّرت الأم المناديل الورقية في يديها، وهي تولول لعدم رؤيتها والدتها قبل أن تموت، وتشكو كيف كان من واجبها استضافة العزاء بصفتها الابنة الكبرى - ولكن أنَّى لها ذلك وشقتها صغيرة جدًّا بحيث لا تكاد تستوعب العائلة المباشرة؟ تبادلت صديقات الخالة نسرين نظرات مختلسة فيما بينهن، حواجبهن مرفوعة من الاستياء.

«خلاص (كفى) يا أختي!» الخالة نسرين تنفعل في الأم. تجهز طبقًا من التمر الطازج وتسلمه إلى عفاف. «إن شاء الله سيرحم المولى روح أمنا».

منذ وفاة والدتها، أصبحت الأم أكثر اضطرابًا. تمضي أيامًا دون استحمام، وعلى الأب أو عفاف تذكيرها بلطف، وتوجيهها نحو الحمام، وتشغيل الصنبور، ومساعدتها على خلع ملابسها. تحدق بجمود حتى تسحب عفاف ستارة الحمام البلاستيكية وتدعوها لولوج البانيو.

تجأر بازدراء وقد استفاقت مرة أخرى: «هل تعتقدين أنني بلهاء؟ أستطيع الاعتناء بنفسي».

في الأيام السيئة، تقضي الأم ساعة في تنظيف الموقد باستخدام قطعة سلكية من الصوف؛ تنجح في تنظيف معظم الوسخ الموجود على شعلات الموقد. ثم تقف أمام حوض المطبخ وتنزع الأسلاك الصغيرة العالقة من أطراف أصابعها، يداها النحيفتان متوردتان بسبب تمريرهما مدة طويلة تحت الماء الساخن.

اليوم عفاف قلقة. تميل الأم إلى ارتداء العباءة السوداء عندما تكون في مزاج سيئ بشكل خاص. يجب أن تكون عفاف حذِرة؛ أي إيماءة، أي كلمة، يمكن أن تستثير الأم. والدتها مثل نمر محبوس في قفص، فائق الجمال ومميت في الآن نفسه.

على شاشة التلفاز المحمول، تصرخ امرأة في برنامج مسابقات، مسرورة. ربحت عشرة آلاف دولار، ولديها قرار عليها اتخاذه: قبول المبلغ والانسحاب من المسابقة أو مضاعفة المبلغ

ثلاثة أضعاف في الجولة الأخيرة. المضيف، رجل قصير لامع الوجه، يضع يده فوق كتفها فيما تفكر المتسابقة المذهولة مليًا في اختيارها. تكبِّر الكاميرا وجه المرأة، ثم تنتقل الصورة إلى عائلتها الجالسة وسط الجمهور. أشاروا إليها بإبهام لأعلى.

تقول الأم: «حمقاء. خذي المال واذهبي إلى المنزل». تضع فنجان قهوتها على المائدة، وتتكئ عليها. يتدلى شعرها الرمادي على جانب واحد في جديلة مسترسلة. فقط قليل من الخصلات السوداء متبقية. لا تزال جميلة -ظاهرة تجعل من الصعب على عفاف أن تكرهها.

تصب عفاف الباقي من القهوة في الإبريق في فنجان. قالت لوالدتها وهي تجلس على المائدة: «سألت النساء عنكِ».

تطلق الأم ضحكة ساخرة. «ما زلن يعتقدن أنهن يستطعن إنقاذي. الحمقاوات».

توصلت عفاف إلى فهم حقيقة لا تتزعزع عن والدتها، حقيقة تجد صعوبة في مشاركتها مع أم زريب والنساء الأخريات؛ *ليس الأمر أن أمها لا تؤمن بالله*. أنكرت ببساطة قدرته، وأطفأت أي وميض إيمان ربما تستخدمه لتجاوز بؤسها. فقدان ابنتها، زواجها المضطرب، حياتها الوحيدة في بلد لم تشعر فيه قط بأنها في وطنها -ليس لديها نية للتنازل عن مثل هذه المظالم من أجل الصلاة والصوم. ألم الأم عظيم، وألمها وحدها؛ لا يمكن لأي كائن أعلى أن يدعي ملكيته لذلك الألم.

يضجُّ التلفاز بالتصفيق فيما تقف المتسابقة أمام الكاميرا، وتخفت الأضواء خلفها. في زاوية الشاشة، يقوم المؤقت بالعد

التنازلي في حين تعطي إجابات من كلمة واحدة على الأسئلة التي يطرحها عليها المضيف بسرعة.

تقف الأم أمام حوض الغسيل فيما تشرب عفاف القهوة السوداء، عينا والدتها تخترقها. يبدو الحجاب فجأة كأنه قمطة معدنية[1] على رأسها. نظرات الأم المُدقِّقة يحوِّل الأمر برمته إلى دعابة قاسية لا يستطيع أي شخص أن يلعبها عليها. عفاف وبقيتهن حمقى في عيني والدتها إذ يمتثلن لإله دون سؤال أو تشكيك، دون عائد ملموس يخفف من آلامهن.

تلمس عفاف طرف حجابها متسائلة إنْ كانت قد ارتكبت خطأ، ويغمرها شعور بخيبة أمل بالغة؛ *ما زالت تريد موافقة الأم*. وللحظة تتفوق سلطة والدتها عليها على سلطة الرب. تغمض عفاف عينيها وتدعو في صمت: *اللهم ثبِّتني على طريق الصواب*.

في غياب موافقة الأم، تلجأ عفاف إلى أبيها -فعلت ذلك منذ سنوات- متشبثة باحترام والدها وتقديره لها كما لو كان غصنًا على حافة جرف. معًا يصليان ويصومان، ويحضران الاجتماعات في المركز، ويساعدان في تنظيم جمع التبرعات. يتحركان باحتراز حول الأم مثل مجرى مياه مشطور بصخرة. تتساءل عفاف عمَّ سيقوله مجيد عندما يراها بالحجاب. هو في الفصل الدراسي الأخير ثم سيذهب إلى كلية الحقوق. تشك في أنه سيعود إلى المنزل للعيش مرة أخرى. بقيت غرفته كما هي، سريره المرتب

---

(1) أداة لتثبيت أو ربط الأجزاء الخشبيَّة بعضها ببعض مؤقتًا ليجفّ الغراء، أو للإمساك بالكتب أو ضغطها في أثناء تجليدها أو ترميمها، أو للإمساك بالأجهزة المعمليّة (المترجم).

في الزاوية، مجلاته القديمة عن بناء العضلات واللياقة البدنية على منضدة بجانبه، وأوزان في حاوية بلاستيكية. تتذكر كم كان مرتبكًا، جسده يشغل مساحة أكبر، وسن البلوغ يزيد أطرافه طولًا وكتفيه عرضًا. لطالما بزَّ الصبي مجيد عفاف عندما كانا صغيرين– كان المتفوق، النجم الرياضي، الابن الصالح - سيمكث دائمًا في غرفته مثل الجوائز التي لا تزال مكدسة بإهمال على خزانة ملابسه. الرجل الذي أصبح عليه أخوها صعب الفهم، شخص لا تعرفه عفاف جيدًا، شخص تشتبه في أنه يضاجع فتيات في المدرسة ويشرب البيرة مع أصدقائه في الحانات خارج حرم الجامعة.

على الهاتف، ينتقد بشدة *اتفاقات أوسلو* والفشل الذريع للسلطة الفلسطينية. كلما حاولت التحدث معه عن الإسلام، يغير الموضوع. أعدت عفاف نفسها لمحاكم تفتيش صارمة بشأن قرارها بارتداء الحجاب.

في البداية كان هادئًا على الخط. «هذه خطوة كبيرة يا عفاف. هل أنتِ متأكدة؟»

«بالطبع. كنت أفكر في الأمر منذ شهور».

«إذًا أنا سعيد من أجلكِ. ما دمتِ تفعلين ذلك لنفسكِ».

بعبارة أخرى، *ليس من أجل أبينا*.

مع أن مجيد يكرس نفسه للنضال الفلسطيني -هو رئيس فرع *«اتحاد طلاب من أجل العدالة في فلسطين»* في جامعته- فإنه يرفض الانضمام إلى الأب في صلاة الجمعة. يلتقيه بعد الصلاة في مطعم لُوَر دلتا، حيث تتصور عفاف أباهما وهو يلخص خطبة

الإمام عن حرمانية ممارسة الجنس قبل الزواج، وشقيقها يتلوى خجلًا فيما يحتسي الشاي بصمت.

يرن المؤقت في التلفاز، ويتأوه الجمهور مستائين. هكذا فقدت المرأة كل شيء.

تقول الأم مرة أخرى وهي تهز رأسها: «حمقاء».

تبادر عفاف بالحديث: «الحفلة كانت ممتعة. أم زريب ترسل تحياتها». منذ أن تبنتها مجموعة النساء، كانت عفاف تأمل سرًّا أن يثير ذلك غيرة الأم قليلًا، بعض الخوف من احتمال استبدالها. والدتها عنيدة. جعل تفاني عفاف في الإسلام منها عدوة في نظرة الأم -تمامًا مثل الأب، أُجبِر كلاهما على الدخول في حرب لم يشعلاها مع الأم.

تطلق الأم ضحكة ساخرة مرة أخرى في حين تشعل سيجارة. للحظة، تتخيل عفاف النيران تضطرم في كمِّ عباءتها الفضفاض ثم شعرها، فم والدتها ينفتح في صرخة مروعة لكن لا يصدر أي صوت، في حين تقف عفاف متسمرة في مكانها وتراقب كيف تحترق الأم بتوهج قبل أن تتحول إلى كومة من الرماد.

في غرفة نومها، تفك عفاف دبابيس حجابها، وتنزعه عن رأسها. تلقي به إلى أحد جانبي منضدة زينتها حيث يلامس القماش الجزء العلوي من مشغل الأسطوانات القديم الذي تحتفظ به فوق طاولة صغيرة. تسحب أسطوانة من صندوق قديم تحته. تبدأ نينا سيمون الغناء العذب. صوتها عميق ورخيم، يغطي على ضجيج برنامج المسابقات والإعلانات التجارية القادم من المطبخ. كانت واحدة من آخر أغاني نينا سيمون *-هنا تأتي*

الشمس Here Comes the Sun- اشترتها عفاف من متجر في شيكاغو كان يبيع الكتب المصورة وأسطوانات الموسيقى القديمة. بحثت عن فريد الأطرش وأم كلثوم على أمل مفاجأة الأب. كانت قد احتفظت بجميع الألبومات المبكرة التي أحضرها الأب إلى المنزل في ذلك اليوم من أحد مزادات بيع الجراج. أغلفتها الآن باتت بالية ومهترئة عند الأطراف.

تلتقط عفاف كتاب تحضير الدروس من حقيبتها *ساعي البريد*. في الأسبوع القادم، سيعمل طلابها في الصف الثالث على صقل مهاراتهم في عمليات الضرب الحسابية، واستعمال الظروف في كتابة سيرهم الذاتية، ملتزمين اتباع قواعد دونوها معًا على أوراق لاصقة.

هل تخيلت حياة في التدريس قبل معرفة أم زريب؟ هي مدينة للأبد إلى هذه المرأة التي صارت بمنزلة أم أخرى لها. شجعتها بجانب تشجيع صديقتها العزيزة كوكب، خلال الدورات الدراسية الصعبة. *لديك كثير من العطايا والمواهب لتشاركيها مع العالم يا عفاف*. استغرق الأمر منها خمس سنوات لإكمال شهادتها -كان عليها العمل لمعاونة الأب في سداد الفواتير- ومع ذلك تخرجت بدرجة جامعية مع مرتبة الشرف في التعليم الابتدائي.

وجدت أن الأطفال مخلوقات رائعة؛ حريصون على التعلم، سريعون في نسيان الألم، منفتحون على التغيير. على الأقل حتى المرحلة الثانوية، عندما يصبح عالم المرء فجأة أضيق، ويتحرك بارتباك خلال أيامه، مكشوفًا للجميع مثل عصب عارٍ. في سن

العاشرة، كان كل ما تريده عفاف هو أن تُرى وتُقبل، أن لا ينظر المعلمون من فوق رأسها كما لو كانت غير مرئية.

بدأت مسيرتها التدريسية بالتطوع في برنامج الرعاية النهارية لتعليم أطفال الأسر ذات الدخل المنخفض، البرنامج الذي تديره جمعية نور للأخوات المسلمات، لجنة من المسلمات مكرَّسة للقيام بأعمال خيرية. قرأت عفاف على الأطفال جميع الكتب التي أعجبتها في سنهم، القصص التي قدمت لها هدنة مؤقتة من الشقة القديمة في ضاحية فيرفيلد حيث سادت غيوم الحزن والغضب على عائلتها. كتابها المفضل لا يزال *كشك الأشباح* The Phantom Tollbooth، الدموع تملأ عينيها في الجزء الذي كان يعني لها كثيرًا كلما شعرت بأنها تائهة تمامًا:

قال الملك وهو ينظر إلى الساحر عالم الرياضيات: «كان ذلك مستحيلًا».

قال الساحر عالم الرياضيات وهو ينظر إلى الملك: «مستحيل تمامًا».

«هل تقصد -» تلعثمت الحشرة، التي شعرت فجأة بالإغماء قليلًا.

رددا معًا: «نعم، حقًا. ولكن لو قلنا لك حينها، فربما ما كانت ذهبت - وكما اكتشفت، يوجد كثير من الأشياء الممكنة ما دمت لا تعرف أنها مستحيلة».

تغير شيء ما في صدرها الصغير طوال تلك السنوات وهي جالسة على أرضية غرفة نومها منهمكة في القراءة. قرأت

هاتيك الكلمات مرتين، ثم ثلاث. سارت إلى المكتبة بمفردها في اليوم الذي اختارت فيه هذا الكتاب. أوضحت لها ندى الطريق مرات كافية، وصارت تزور المكتبة مرتين في الأسبوع على الأقل، وتطالع أكبر عدد ممكن من الكتب التي تستطيع استعارتها وحملها إلى المنزل.

تردد صدى الكلمات في قلبها، مزيج من الحنين والحزن: يوجد كثير من الأشياء الممكنة ما دمت لا تعرف أنها مستحيلة.

أرادت أن تجعل كل طفل يشعر بأنه ليس بمفرده، أرادت أن تؤجج إمكاناتهم حتى تصير شعلة هائلة من الآمال والوعود القابلة للتحقيق يومًا ما. يمنحها التدريس إحساسًا بالغاية، وبشكل غير متوقع استقلالية مُسكِرة: *مهما كان الأمر، فهي تعلم أنها ستنجو.*

تنظر إلى الحجاب الأخضر، وتفكر في أغطية الرأس الأخرى المطوية بدقة في درجها - ظلال من الأصفر والميرمية والورد الفرنسي.

هذه الكلمة القبيحة تهسهس فجأة مرة أخرى في أذنها، وينتصب لها شعر رقبتها: *ذات خرقة الرأس.* حاولت إخراج الواقعة من ذهنها، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل. تفتح كتاب تحضير الدروس، وتتساءل عمّ سيجلبه الغد لها في المدرسة.

4

في صباح يوم الاثنين، تدخل عفاف إلى قاعة المعلمين، ويتراءى لها زملاؤها في حيرة من أمرهم لرؤيتها بالحجاب. تبتسم وتخزن صندوق غدائها، متظاهرة بأن شيئًا لم يتغير، متجاهلة عقدة الترقب التي تعتصر معدتها. لن تبادر بقول أي شيء؛ إنْ كانت لديهم أسئلة، يمكنهم طرحها. لكنهم فقط يومئون إليها بابتسامات واهنة وحواجب مرفوعة. ينقل صمتهم الأسئلة التي تتخيل أنهم سيطرحونها بمجرد مغادرتها الغرفة: *هل يمكنها ارتداء ذلك الشيء في مدرسة عامة؟ ألا يتعدى هذا الخط الكنيسة والدولة؟ هل هي متطرفة؟*

بعد مدة وجيزة، يعودون إلى تبادل شائعاتهم الصباحية المعتادة، ويضحك عديد منهم على خطأ إملائي ارتكبه أحد الطلاب أدى إلى تحويل كلمة يحرر Liberate إلى يشحِّم lubricate، وتشارَك الآخرون آراءهم بخصوص نتيجة مباراة فريق شيكاغو بيرز الليلة الماضية. تتناول عفاف قهوتها، وتسير في الممر إلى حجرة الفصل.

ينظر طلاب الصف الثالث إلى عفاف بدهشة. لا يخفي أي منهم عواطفه. يبدو الأمر كما لو أن شخصًا غريبًا قد اقتحم حجرة الفصل. سرعان ما تطمئنهم أنها لا تزال هي، وتشرح سبب تغطيتها شعرها.

«إذن أنتِ لا تنامين وأنتِ ترتدينه؟» يسأل جيريمي مان، دائمًا ما يكون أول من يطلق سؤالًا. سأل ذات مرة لماذا يجب أن يموت

النحل حالما يلدغ الناس. بدا الأمر غير عادل على الإطلاق بالنسبة إليه.

عفاف تهز رأسها وتكتم ضحكة.

«هل تستحمين وأنت ترتدينه؟» هذا السؤال يأتي من ميكيلا كامينغز، شعرها الأشقر المحمر مُسرَّح في ضفيرتين عاليتين.

«أوه، لا، يا ميكيلا! آمل أنكِ لا تستحمين بملابسكِ!»

يضحك الأطفال ويضعون أيديهم على أفواههم ويهزّون رؤوسهم بقوة. يمكنها أن ترى أنهم صاروا مرتاحين. يمكنهم الانتقال إلى درس الأسماء والصفات.

مساعدة عفاف السيدة والش تبدو مرتاحة أيضًا. تهمس وهي تضغط على يد عفاف: «تبدين جميلة يا عزيزتي». زوجها مقدم جيش متقاعد خدم في حرب الخليج. يتذمر باستمرار من الرئيس كلينتون وتداعي البلاد. لا تستطيع السّيدة والش تحمل المكوث معه في المنزل كل يوم.

قالت مازحة في اليوم الأول من المدرسة، وهي تحمل جانبًا من إطار لوحة الإعلانات في حين عفاف، معلمة جديدة متوترة، تدبِّس زوايا اللوحة بالجدار: «اعذري ما سأقول، لكنني كنت لأطلق النار على نفسي من بندقيته لو لم أتولَّ هذه الوظيفة».

في أثناء تحية العلم، تلمس عفاف حجابها، وتتفحص الدبابيس، وتنزلق بإصبعها داخل الحواف، كأن شعرها قد يتلاشى. تلمحها السّيدة والش، وتبتسم.

مع مضي الصباح، تنسى عفاف حجابها، وقد شغلها الروتين الذي طورته من أجل طلابها. تسير في الممرات بين مناضد

الدراسة الصغيرة، وتوجههم في أثناء حل التدريبات، وتنتظر مجموعة من الإجابات. ليلى حمد، زيتونية البشرة وضئيلة الحجم، تركز بشدة عندما تمر عفاف أمامها. هي إحدى فتاتين عربيتين في فصلها. تتوقف عفاف عند منضدتها. تلمح كدمة على شكل نجمة على خد ليلى الأيسر. تربت عفاف على كتفها، وتشير إلى الطفلة حتى تتبعها إلى الممر خارج الفصل. يواصل باقي الطلاب أداء تدريباتهم دون أن يشتتهم هذا الاضطراب الهادئ. امتثالهم المنضبط يُسعِد عفاف. أومأت برأسها إلى السيدة والش التي تواصل بسرعة من حيث توقفت عفاف.

تخبر عفاف ليلى على الفور خارج باب الفصل: «أنتِ لست في مشكلة يا ليلى». يأخذ الخوف في عيني الفتاة الصغيرة العسلية في التلاشي لكن لا يختفي تمامًا. «لاحظت تلك الكدمة على خدك. هل يمكنك إخباري بما حدث؟»

شعر ليلى كثيف ومموج، ما يذكر عفاف بكل أيام طفولتها حين كانت أمها تصارع من أجل تصفيف شعرها المتشابك في ضفائر. ترتدي ليلى عصابة رأس لامعة، قرطان ذهبيان صغيران يتدليان من شحمتي أذنيها الرقيقتين. معظم الفتيات في فصل عفاف لم يسمح لهن آباؤهن بعد بثقب آذانهن -جمانة عودة، الطالبة العربية الأخرى، تتقلد أحجار زركون مكعبة الشكل. تشعر عفاف برابطة خاصة مع هؤلاء الفتيات. تعرف جيدًا شعور أن تكون زهرة الخشخاش في حقل من الزنابق.

تتحرك شفتا ليلى مع التكرار الكورالي للطلاب في أثناء تمرين الرياضيات الذي يصل إليهما في الممر. تلقي عفاف نظرة داخل

الفصل. السّيدة والش تمشي في صف، وتحرك يديها مثل قائد أوركسترا.

«لا تخافي يا ليلى». تبتسم عفاف وتضع يدها على كتف الطفلة. ترتعش ليلى، عيناها واسعتان. «هل جرحك أحد؟»

هزت رأسها بسرعة مؤكدة شكوك عفاف. «ليلى، من فضلك استمعي إليّ بعناية». نبرة صوتها لطيفة، مع أن ليلى أصبحت الآن في حالة انتباه تام، فإن شفتيها الصغيرتين مطبقتان تمامًا. تصبح تمارين الرياضيات ضوضاء بيضاء في الخلفية.

«وقعت البارحة. سقطت في المنزل». اندفعت ليلى قائلة، عيناها تتحركان بسرعة في كل مكان إلا باتجاه عفاف. «لا يؤلمني».

«أنا سعيدة لأن ذلك لا يؤلمكِ يا ليلى، لكني قلقة بشأن كيفية حدوثه». تضع عفاف يدها الأخرى على كتف الطفلة وتجبرها على النظر إلى أعلى. «هل ضربك أحدهم في المنزل؟»

ترى عفاف كل الأعذار التي تدربت عليها ليلى تتجرف فوق وجهها مثل أوراق الشجر، وتستقر في عينيها. تعض الفتاة الصغيرة شفتها العليا. تعرف عفاف جيدًا كيف أن اكتشاف الأطفال الحقيقة بسرعة لا يمكن إلا أن يزيد الأمر سوءًا.

هذه ليست المرة الأولى. في الأسبوع الماضي، كان منخار ليلى ملطخًا بالدم الجاف. أخبرت عفاف أنها سقطت عن دراجتها، واصطدمت جبهتها بالرصيف. تغاضت عفاف عن الأمر. اليوم أصرَّت. «إذا كنت لا تستطيعين إخباري يا ليلى فسوف أحتاج إلى توجيهك إلى مكتب المدير والكر، علينا الوصول إلى حقيقة الأمر».

«أرجوك يا آنسة رحمن لا تخبري عني»، تتوسل الفتاة الصغيرة كأنها ارتكبت خطأ.

«هل ضربكِ أبوك على وجهكِ؟»

طفل صغير يجري أمامهما في الممر، وصندوق غدائه يصدر صوت قعقعة. تتشتت ليلى لثوانٍ.

تضغط عفاف على كتفي الفتاة: «ليلى، هل ضربكِ أبوكِ على وجهكِ؟» تشهق، ثم تومئ برأسها. تتقبض معدة عفاف رغم أنها كانت تتوقع ذلك. «هل لكم أنفك الأسبوع الماضي؟»

إيماءة أخرى.

«هل يضرب أمكِ؟»

تتذكر عفاف حضور السيدة حمد اجتماع أولياء الأمور بمفردها. امرأة قصيرة بجسم أشبه بالكمثرى، وشعر بني مجعد مشدود إلى الخلف بشريط مرصع، على غرار ما ترتديه ليلى كل يوم. بدت مضطربة مثل قطة تفزع من كل صوت. كانت تستمع وتومئ برأسها بلهفة في أثناء تقديم عفاف عن الأهداف التعليمية والمعايير السنوية للمدرسة. وقعت السيدة حمد على الاستمارات التي وضعتها عفاف على منضدة طويلة بموافقتها على المشاركة في كل حفلة عطلة ونشاط مدرسي، مع أنها لم تحضر أي حفلة، لم تحضر موكب عيد الهالوين أو الرحلة الميدانية إلى متحف العلوم والصناعة.

تنهمر الدموع على وجه ليلى. «من فضلك لا تشي بنا». مرة أخرى تتوسل ليلى كأنها ووالدتها متطورتان في جريمة مروعة.

حلق عفاف يختنق بالشفقة. «اسمعي يا ليلى، أريدك أن

تأخذي نفسًا عميقًا. انظري إليّ يا ليلى. تنفسي. هكذا». تتنفس عفاف من أنفها. تتبع الطفلة بعينيها حجاب عفاف وهو يرتفع وينخفض. سرعان ما تهدأ. «اذهبي إلى الحمام ورشي بعض الماء على وجهك. اشربي بعض الماء من النافورة، وعودي إلى الفصل مباشرة. سنتحدث عن الموضوع لاحقًا، لكن ليس لديك ما يدعو للقلق الآن. تمام؟» تعليمات عفاف دقيقة وواضحة. تطيع ليلى دون سؤال.

على الغداء، ترمق السيدة والش عفاف بنظرة صارمة. «عليك الإبلاغ عن ذلك يا عزيزتي». تأخذ رشفات بصوت مسموع من شاي الأعشاب من كوب ترمسها، وتتصفح مجلة «*تدبير منزلي جيد Good Housekeeping*».

تتذكر عفاف المحاضرة المحرِجة حول المراسلين المفوضين من الولاية[1] عندما كانت في الكلية، حيث كانت الأستاذة تشير بالليزر إلى شاشة. علت الشاشة قائمة طويلة من المناسبات والظروف التي تحدد متى من المفترض أن تبلغ فيه إدارة خدمات الأطفال والأسرة في إلينوي عن وجود حالة إساءة معاملة أو تعنيف. انقبض صدرها من الخوف في أثناء المحاضرة في ذلك الصباح. اكتشفت وجود أشياء أسوأ من العيش مع أم تجعلك تشعرين بأنكِ غير مرئية. أثارت الأستاذة قضية تلو الأخرى

(1) المراسلون أو المبلِّغون المفوضون من الولاية: هم الأشخاص الذين لديهم اتصال منتظم مع الأشخاص المعرضين للخطر مثل الأطفال والمعوقين وكبار السن، لذا يتعين عليهم قانونًا ضمان تقديم تقرير عند ملاحظة سوء المعاملة أو الاشتباه فيه (المترجم).

تتعلق بالإهمال وسوء المعاملة والتعنيف - آثار حروق سجائر على رقبة طفل، وعدم وجود طعام في الثلاجة لأيام، وعشيق مخمور يحشر فتاة صغيرة في ركن ويتحرش بها في كل مرة تكون فيها والدتها غير موجودة. كانت عفاف تأمل ألا تكون أبدًا في مثل هذا الموقف الذي يُلزمها إجراء تلك المكالمة الهاتفية.

تومئ عفاف برأسها للسيدة والش، وتراقبها بصمت وهي تصب كوبًا آخر من الشاي وتحتسيه. تلف عفاف سندويشتها مرة أخرى في غلافه البلاستيكي المجعد. فقدت شهيتها.

تردد صدى كلمات أستاذتها لها: *في حين أنه من المهم التزام السرية في مثل هذه المواقف، إلا إنه من الأفضل دائمًا أن تكوني آمنة على أن تكوني آسفة.*

تتبادر إلى ذهن عفاف ستيفاني رومان فتاة تعرفها عفاف في الصف السابع. توقفت عن الذهاب إلى المدرسة مدة أسبوعين بعد أن أُخِذت من حضانة والديها. أفاد أحد الأقارب الحاقدين أن ستيفاني وشقيقها تعرضا للاعتداء الجنسي من والدهم. في النهاية، اتضح أن البلاغ عارٍ من الصحة، لكن ستيفاني لم تعد كما كانت من قبل؛ صارت متجهمة ومنعزلة عن الأطفال الآخرين قبل أن تحوَّل أخيرًا إلى مدرسة أخرى بعد أن انتقل والداها بالأسرة بعيدًا.

لكن الدليل ليس غير مرئي هنا، مختبئًا تحت جلد ليلى، بل يحدق في عفاف على شكل نجمة فوق خدها. لم يكن الأمر مثل اكتئاب أمها أو إدمان أبيها الكحول - أشياء كانت قادرة على إخفائها إلى الأبد ما دامت لم تظهر في صورة جروح وكدمات.

ومع ذلك، ثمة شيء يمنع عفاف من السير إلى المكتب وإجراء تلك المكالمة. يبدو الأمر كأنه خيانة من نوع ما، كما لو أنها تشارك شيفرة صامتة مع ليلى، العربية مثلها. مجتمعهما صغير جدًّا -بشكل خانق تقريبًا. من خلال المركز الإسلامي، تعلمت عفاف مدى السهولة التي يمكن تتبع كل عائلة عربية وصولاً إلى العشائر الفلسطينية.

قالت عفاف: «سأجري المكالمة»، مع أن السيدة. والش كانت قد غادرت بالفعل لتغسل يديها قبل أن يرجع الأطفال إلى الفصل يركضون ويضحكون في طريقهم إلى مناضد دراستهم.

5

لا تتذكر عفاف القيادة إلى المنزل. كانت قد بدأت يومها في تخيل كيف سيلفت الحجاب انتباه الآخرين إليها، لكن اتضح أن ذلك صار مع نهاية اليوم آخر همّها. تعيد المحادثة في الممر مع ليلى مرارًا في رأسها. تجد نفسها تُوقِف السيارة بمحاذاة الرصيف، تهب الرياح على سياج الأشجار خارج الشقة، وقد تفاجأت بمدى سرعة وصولها إلى المنزل.

أخبرتها أمها فور دخولها المنزل قبل أن تستطيع حتى أن تقول مرحبًا: «اتصلت بكِ امرأة ثلاث مرات».

«من هي؟» تفك عفاف حجابها، وتزيل الطرحة.

تراقب الأم ما سيصبح طقسًا لعفاف كل يوم تعود فيه إلى المنزل. تنفث دخان سيجارتها وتحرِّك القرنبيط الذي تقليه في مقلاة عميقة مدهونة بالزيت. «لا أعرف. اسمها صابرين. شديدة الإلحاح». أعطتها الأم الرقم الذي كتبته على قائمة أكلات مطعم صيني.

«شكرًا». تأخذ عفاف الورقة. «لماذا لا تغيرين تلك العباءة؟ يمكنني غسلها لكِ حتى تعود نظيفة ومنعشة من جديد».

من السهل في الغالب القيام بأشياء من أجل الأم، ومساعدتها على البقاء نظيفة، والحفاظ على الشقة مرتَّبة. ذلك أسهل من معانقة الأم أو إمساك يدها، والربت على خدها. علاقتهما عمليَّة ومجردة من العاطفة. لكنها اليوم تريد إخبار الأم بما حدث في المدرسة. مع أن عفاف تعرف بالضبط ما يجب أن تفعله، لا

يزال من الجيد أن تسمع أمها تقول، خير *إن شاء الله*. سيصبح كل شيء على ما يرام. لا تزال تتوق بشدة إلى هذه الثقة التي تمنحها أمها إياها - بغض النظر عن مقدار اهتمام أم زريب أو أي من النساء الأخريات بها، فلن يكون ذلك أبدًا مماثلًا للاهتمام الذي يأتي من أمها.

تتمتم الأم بصوت منخفض، وتذهب إلى غرفة نومها. تعود وقد ارتدت ثوبًا منزليًا ورديًا بلا أكمام. تمسك عباءتها وملابسها الداخلية المتسخة كطفلة.

تضعها عفاف في غسالة صغيرة قابلة للتكديس بجانب الحمام، وتطلب الرقم باستخدام سماعة الهاتف اللاسلكية. «سلام، هذه عفاف رحمن». تقيس مقدار كوب من المنظف، وتضبط الغسالة لتبدأ دورة الغسيل، في حين توازن سماعة الهاتف بين أذنها وكتفها.

«عفاف! سلام يا حبيبتي! أنا صابرين خليل».

تفتش عفاف في ذاكرتها. «أنا آسفة، يا سيدة خليل، هل التقينا في المسجد؟»

صوت أطفال يصرخون ويلعبون في الخلفية. «يا أولاد، هدوء! اذهبوا إلى الخارج!»

تتنحنح المرأة. «أنا آسفة يا عفاف. لم نتحدث من قبل فعليًا. أنا سكرتيرة جمعية نور للأخوات المسلمات».

تتذكر عفاف فجأة؛ صابرين خليل، امرأة نحيلة بنظارة ذات إطار قرني. ابن عمة أم زريب. «نعم بالتأكيد! سلام يا صابرين! هل رسوم تسجيلي في الجمعية قد حلَّ ميعاد تسديدها؟»

تتولى صابرين خليل شؤون عضوية جمعية نورو وترسل بطاقات بريدية تخص الفعاليات القادمة. لم تتحدث عفاف معها كثيرًا من قبل.

«لا، لا، الحمد لله، أمور الجمعية على ما يرام». تتوقف المرأة عن الكلام، وتتنحنح مرة أخرى. «أنا أتصل بشأن موضوع حساس إلى حد ما يا حبيبتي».

تحمل عفاف سماعة الهاتف اللا سلكي إلى غرفتها. استقرت الأم أمام التلفاز، تتبعث أغنية بداية برنامج مسابقات آخر في المطبخ. «ما الأمر يا صابرين؟»

«ابنة أخي إحدى طالباتكِ في الصف. ليلى حمد ابنة أخي».

تتقبض معدة عفاف كما حدث سابقًا ذلك اليوم عندما اعترفت لها ليلى. تنتظر أن تقول المرأة المزيد.

«عفاف، أخي وزوجته مرا بأوقات عصيبة جدًا. فقد وظيفته منذ مدة وجيزة، ولديه خمسة أطفال... تعرفين يا حبيبتي؟»

تريد عفاف إخبار المرأة: لا، لا أعرف. نشأت مع أب شرب الخمر حتى كاد يقتل نفسه في حادث اصطدام بمصباح الشارع، لكنه لم يمد يده عليها أو على مجيد. لم تعرف أي شيء عن ضرب أب طفله بقوة حتى تتشكل ندبة تشبه النجمة على خده. *إذًا لماذا لم تهاتفي اليوم إدارة حماية الطفل؟* تسأل عفاف نفسها. كذبت على مساعدتها.

تشعر بالسخونة، كأن مسامها تنغلق من العار. تفتح أزرار سترتها، وتخلعها بإحدى يديها، والأخرى لا تزال تمسك بالهاتف. كلمات المرأة تخترق أذنيها.

«قالت أم زريب إنه يجب أن أتصل بكِ وأشرح لكِ الموقف. إنك ستتفهمين».

أم زريب؟ بالطبع. كانت أم زريب من أعطتها رقم عفاف - وإلا كيف ستعرف هذه المرأة أي شيء عنها؟

تشعر عفاف بأنها محاصرة، ظهرها يلتصق بالجدار. هؤلاء النساء لا يطلبن تعاطفها بل صمتها. لكن عفاف لا تستطيع أن ترضخ لهن.

«خرجت الأمور من بين يديّ يا صابرين. أنا آسفة». تغلق عفاف الخط لتضع حدًّا لاحتجاجات المرأة. يرن الهاتف عدة مرات. تتجاهله وتستلقي على سريرها.

تظهر الأم أمام باب حجرتها، ودخان سيجارتها يتموج داخلًا غرفة عفاف.

«من الذي يواصل الاتصال؟ أهي المرأة نفسها؟»

تحدق عفاف في الدخان الرمادي ثعباني الشكل الذي يتلوى ويختفي.

«أجيبيني يا عفاف!»

«لا شيء يا ماما. اعتنيت بالأمر». لكنها لم تفعل حقًّا. انكمشت مختبئة تحت شعور أحمق بالكبرياء. «عليّ أن أصلي العصر».

لاحقًا ذلك المساء، تبكي عفاف خلال مكالمة هاتفية مع بلال.

«أنتِ تفعلين الصواب بالإبلاغ عن الحادثة يا عفاف»، يواسيها. «يجب أن يأتي الأطفال دائمًا أولًا».

ترى عفاف ومضة من الغابة التي اختبأت أخت بلال ووالدتها لأسابيع فيها. كم عدد الأطفال الذين جلسوا القرفصاء خلف تلك الأشجار بجانبهما؟ أين تختبئ ليلى وأمها من أبيها؟

تسمع طرقة ناعمة على باب حجرتها. قال الأب وهو يطل برأسه داخل الحجرة: «خير إن شاء الله. أمكِ تقول إن امرأة كانت تزعجك على الهاتف». يدخل غرفتها ويجلس على المقعد أمام مكتبها، عظامه تئن تحت وطأة الشيخوخة. شعره المرقط حليق تحت الطاقية التي يعتمرها هذه الأيام.

تحبس عفاف دموعها. «اعتنيت بالأمر يا بابا».

«أخبريني ماذا حدث».

«فتاة صغيرة في فصلي. ليلى. أتت إلى المدرسة وهي مصابة بكدمات».

يمسك بمسبحته، ويلفها حول راحة يده، كل خرزة سوداء لامعة تدور عبر أصابعه. «ليبعد الله الشر عنا».

«يضربها أبوها هي وأمها».

يهز الأب رأسه، الخرزات تواصل الدوران دون توقف: «لا، لا، لا».

«يجب أن أبلغ عن ذلك يا بابا. القانون يُلزمني ذلك». تقف كأنها يجب أن تؤكد هذه الحقيقة لوالدها.

«حتى لو لم تكوني ملزمة بالقانون، فأنتِ مسؤولة عن هذه الطفلة». يشير إلى عفاف، ويقول بالإنجليزية «أنت صوتها».

عفاف تجلس على سريرها.

«صارت أم زريب جزءًا من الموضوع. عمة ليلى تعمل في المسجد. هي من تتصل بي طوال اليوم».

يستمع الأب، ويمكنها أن ترى كيف أضحى مأزقها واضحًا له. «ثمة طفلة تتعرض للأذى». يقف ويعبر الحجرة إليها. «لديك خيار واحد فقط. مساعدتها». يقبل جبهتها، ويغلق الباب خلفه.

***

اليوم الخميس، وقد رحلت ليلى حمد من المدرسة.

أجرت عفاف المكالمة الهاتفية بإدارة حماية الطفل صباح يوم الثلاثاء في مكتب الاختصاصية الاجتماعية بالمدرسة. ثم انتظرت، بائسة وقلقة، تراقب ليلى من كثب خلال الأيام القليلة التالية وهي تظلل بدقة داخل الخطوط في ورقة اختبارها وتستمع إليها وهي تردد الإجابة الصحيحة مع زملائها في الفصل. تلاشت النجمة من فوق خدها قليلًا. تساءلت عفاف إنْ كانت الفتاة الصغيرة تعلم مدى التغيير الذي على وشك أن يطرأ على حياتها.

اليوم منضدة دراسة ليلى فارغة.

السّيدة والش تربت على كتف عفاف في أثناء فرز أوراق الاختبار المكتملة. ألصقت عفاف فوق بعضها قصاصات لاصقة ذات ألوان زاهية، بعضها مختومة بعبارة «بحاجة إلى تحسين». تدسان الأوراق داخل صناديق صغيرة مثبتة فوق أحد جدران الفصل. الطلاب في حصة الرسم، يثنون أنابيب رفيعة ملوَّنة لصنع أشكال حيوانات وزهور.

تخبرها السيدة والش: «ستكون ليلى في مكان آمن يا عزيزتي».

قالت الاختصاصية الاجتماعية بالمدرسة لعفاف أمس: «العواقب تبدو قاسية على الأسرة في مثل هذه الحالات، لكن بالنظر إلى أحداث الماضي، فإنها ضرورية». ثم خفَّضت صوتها.

«أعلم بوجود عُرف بالتزام الصمت ضمن مجموعات عرقية معينة. فعلتِ الشيء الصحيح يا أ-فاف». ظلت عيناها على حجاب عفاف.

جماعات عرقية. عرف بالتزام الصمت. مثل هذه المصطلحات تستحضر على الفور صور جرائم الشرف والعرائس القاصرات. هل هذا ما تفكر فيه الاختصاصية الاجتماعية والموظفون الآخرون عندما يرونها؟ هل يعتقدون أن ليلى حمد تختلف عن مئات الأطفال الآخرين المحتجزين في ولاية إلينوي فقط لأنها مسلمة؟

وماذا عن حجابها؟ هل يتصورون أن والد عفاف أو أخوها، رجلان داكنا البشرة وخطِران، فرضا عليها ارتداء الحجاب؟ هل يهمسون من وراء ظهرها، *أ-فاف المسكينة، امرأة عربية مضطهدة أخرى؟*

في النهاية، هي سعيدة لأنها كانت من أجرى المكالمة، وليست السيدة والش أو أي موظف آخر. تخجل من أنها كادت تؤكد افتراضاتهم الجاهلة.

لكن لا يزال على عفاف مواجهة دائرة النساء في المركز الإسلامي.

6

تفكر في تخطي محاضرة الحديث الشريف للنساء في المركز الليلة. لم يتصل أحد منذ أن أغلقت الهاتف في وجه صابرين خليل. الصمت يتراءى لها خطِرًا. ولا كلمة من أم زريب أيضًا. هل استاءت من تورط عفاف أم تعتبره تطفلًا غير مرغوب فيه؟

تقرر عفاف الذهاب ومواجهة ما لا مفر منه. يوحي الاختباء بأنها اقترفت شيئًا خاطئًا. اتصالها بإدارة حماية الطفل أمر يفرضه عليها القانون. كل ما فعلته أنها اختارت فعل ذلك بنفسها، ولم تترك الأمر لموظف آخر للتدخل.

تتقدم عفاف بالسيارة داخل المرأب حيث تمسح الأفق الضربات البرتقالية والوردية الأخيرة للشمس الغاربة. تقلصت ساعات النهار مع بداية نوفمبر. نمت أشجار جارات الماء السوداء المصطفة على الرصيف حول المسجد وصولًا إلى حجمها البالغ منذ بنائه. أوراقها بنية الآن.

لا يزال مركز الصلاة في تيمبست يسحرها. شُيّد على هيئة قبة الصخرة في القدس؛ القبة الذهبية تومض في النهار وتتوهج نوافذها المقوسة ليلًا. مثل تلك الموجودة في لوحة الرجل العجوز الذي يحمل المدينة المقدسة على ظهره. المبنى مثل أطلال عتيقة سقطت في وسط ضواحٍ بيضاء. يواجه المبنى طريقًا رئيسة، ومنازل من الطوب مع مناظر طبيعية خلابة تمتد خلفه.

تتذكر عفاف مدى فخر الأب في حفل الافتتاح منذ سنوات في حين يقف بجانب الإمام والرجال الآخرين الذين أعانوه على

الرجوع إلى الحياة من جديد بعد حادثة السيارة. استغرق الأمر كثيرًا من الوقت والصبر للتغلب على البيروقراطية العنصرية في تيمبست، والعثور على قطعة أرض ميسورة التكلفة. كانت مخصصة في الأصل من أجل الإنشاءات السكنية والمؤسسية - كنيسة أو مركز ترفيهي. أكد المحامي -الذي عُيِّن لتمثيل المركز- هذه الحقيقة لأعضاء مجلس البلدة الذين احتجوا على إنشاء «مركز ديني» رغم وجود الكنيسة اللوثرية على بعد ثلاث بنايات فقط.

يوجد مدخلان مقنطران. أحدهما يؤدي إلى غرفة صلاة ضخمة للرجال؛ تعبر النساء المدخل الآخر، الذي يؤدي بهن إلى أسفل سلم حلزوني وصولًا إلى الطابق السفلي. ألواح من الرخام الأبيض تغطي الأرضية. يحتوي الطابق الأول على مكتب كبير حيث يؤدي الإمام مراسم *كتب الكتاب* للأزواج قبل زفافهم، أو يفصل بين العائلات المتناحرة التي تتنازع على أراضي الأجداد في أوطانهم. ثمة نقوش زهور هندسية زرقاء على الجدران، ونوافذ كبيرة من الفسيفساء ينفذ منها الضوء الخافت إلى الداخل. أُلحق مبنى ترفيهي بالمبنى الأصلي، يتضمن صالة كرة سلة وغرف اجتماعات.

وتبع ذلك مزيد من التقدم؛ على بعد أميال قليلة، افتُتِحت مدرسة نور الدين، التي كانت ديرًا قديمًا، تحت رعاية السيد علي أبي نمر، وقدمت للعائلات سبيلًا للحفاظ على إيمانهم وتقاليد دينهم في أثناء تعليم أطفالهم.

ولكن كانت ثمة خطوات قليلة إلى الوراء أيضًا، مثل رفض اختلاط الجنسين في المناسبات الاجتماعية العامة ومنع أي

مناقشة عن وسائل منع الحمل. والآن قضية ليلى. إسكاتها لحماية والد الفتاة يبدو كأنه ممارسة قديمة أخرى تحدَّتها عفاف ورفضتها. تأمل عفاف أن لا تكون العواقب قاسية جدًّا.

في الطابق السفلي تخلع حذاءها وتضعه فوق رف كبير مقابل أحد الجدران. تبدأ المحاضرة بعد صلاة المغرب. تتوضأ في حمام النساء المشترك، وتحيي المسلمات الأخريات اللاتي يقرفصن بجانبها على الأرض المبلطة، ويحملن أوعية بلاستيكية، تتدفق المياه من تحتهن إلى مصرف كبير. فتاة صغيرة تقف حاملة مناشف بيضاء، وتبتسم كاشفة عن أسنان مفقودة.

تجد عفاف بقعة بجوار كوكب. تشد صديقتها حزام الخصر المطاطي فوق النصف السفلي من ثياب صلاتها. تبدو كأنها برميل كبير مهتز. ترتدي معظم النساء ثياب صلاة تخفي أشكال أجسادهن تمامًا، فيما ترتدي أخريات عباءات بأكمام طويلة بتصميمات برَّاقة. مكتبة سُر مَن قرأ

تهمس صديقتها: «ما الخطب؟»

لم تخبر عفاف كوكب بما حدث، لكن صديقتها تشعر على الفور بوجود خطأ ما. تهز عفاف رأسها وتضغط على يد صديقتها في حين تحاول رسم ابتسامة على وجهها.

كالمعتاد، أم زريب في مقدمة الصفوف، جالسة على كرسي لأنها غير قادرة على الوقوف مدة طويلة أو السجود. يوجد صف مخصوص لها وللنساء المسنات؛ أم ساجي، أكبر النساء سنًّا في دائرتهن، هربت من القوات الإسرائيلية عام 1948 وعاشت في مخيم لاجئين في لبنان مدة ثلاثين عامًا. أم وهاب، التي

فرَّ ابناها من الولايات المتحدة بعد أن ارتكبا جريمة احتيال في أسعار السلع في متجر بقالتهما، وأم محمد التي دفع زوجها أكبر مبلغ -لم يكشف عن مقداره- لبناء المسجد. تتمنى عفاف أن تستدير أم زريب وتراها وتمنحها إيماءة مطمئِنة. تحدق السيدة العجوز إلى الأمام مباشرة، ورأسها الملفوف بالحجاب مثبَّت في اتجاه مكبر الصوت الذي سينبعث منه صوت الإمام بعد قليل، حتى يؤم المصلين في الصلاة. تمسح عفاف الغرفة بعينيها مرة أخرى، نحو عشرين امرأة يجهزن أنفسهن لأداء الصلاة، أيديهن معقودة فوق بطونهن، اليد اليمنى فوق اليسرى. ما من دليل على وجود صابرين خليل. تغمر الطمأنينة عفاف وتحاول الاسترخاء والتركيز فيما يتلو الإمام الفاتحة. *سبحانك اللهم*. لبضع دقائق، تشعر عفاف براحة تستمدها من الأجساد المحيطة بها، يشع الإيمان منهن في كل مرة يرفعن فيها أيديهن، ويسجدن على الأرض.

يغمر إحساس بالوضوح ذهن عفاف، ويسري وصولاً إلى أطراف أصابع يديها وقدميها. مع الركعة الثانية، تتنفس عفاف بعمق، ويستقر هدوء عميق في عظامها. يمكنها أن تنسى إحباطاتها لحظات، وتتخلى عن القلق الذي كان يعتريها قبل أن تبدأ الصلاة.

في المرة الأولى التي صلَّت فيها عفاف داخل هذه الجدران، استطاعت شم رائحة الطلاء الجديد. كانت تقف وسط كوكب وأمها وشقيقتيها، تتخذ أم زريب موقعها كالعادة في الصف الأمامي. بحلول ذلك الوقت، كانت عفاف قد تعلمت الصلاة بمفردها، وصامت كل يوم من شهر رمضان باستثناء أسبوع واحد خلال مدة

حيضها. الآن، بينما تلمس جبهتها السجادة الزرقاء، تغلّب عليها ذلك الإحساس الأول بالتفاؤل الذي اتقد بداخلها قبل سنوات.

عندما تقترب عفاف من أم زريب بعد الصلاة، يتلاشى تفاؤلها تمامًا. تبحث عن الفهم في عيني المرأة العجوز، الكاتاراكت (إعتام عدسة العين) يغبش زوايا عينيها. لكنها لم تجد أي أمارة على الفهم. تخبرها أم زريب: «كان والد ليلى يخطط للقاء الإمام».

«لأن أمره افتُضِح؟!» يتورد خدّا عفاف.

تتجاهل أم زريب سؤالها الحاد. «الأمر خارج أيدينا الآن. ليلى وإخوتها وأخواتها في دار رعاية. مع الأمريكان». *ليس مع أُناسهم*، هذا ما تعنيه. اقتُلِعوا من محيطهم المألوف، في حالتهم المضطربة تلك. انتزعوا من بين أحضان أمهم، وانتقلوا بصورة محفوفة بالمخاطر للإقامة في منازل أشخاص لا يفهمونهم. ماذا لو كانت النساء على حق؟ ماذا لو أرسلت عفاف ليلى وإخوتها إلى مصير أسوأ؟ من الصعب النظر إلى عيني أم زريب. لا ترمش، يتلاشى اللطف من عينيها مثل النجوم التي يخبو بريقها في سماء الليل. تهمس عفاف: «كان يضربهم. كان عليَّ إجراء المكالمة».

تقبلها أم زريب على الخدين. «فعلتِ ما اعتقدتِ أنه الأفضل. فقط الله سيحكم». ابتعدت بخطوات عرجاء، بضع نساء يتنافسن بضراوة للفوز بانتباهها، ويوجهنها إلى كرسي للجلوس من أجل المحاضرة.

ترتمي عفاف على الأرض، وتلف ذراعيها حول ركبتيها. تبدأ أم موسى المحاضرة بمقتطف من حديث الرسول الكريم:

ومن ستر إثم مسلم، ستره الله يوم القيامة.

7

يأتـي مجيد إلـى المنـزل لقضـاء عطلـة نهاية الأسـبوع. لا بـد أنـه استشـعر بـؤس عفـاف عبـر الهاتـف يـوم الجمعـة.

تعـود عفـاف بعـد أداء المأموريـات الصباحيـة لتجـد مجيـد جالسًـا فـوق مائـدة المطبـخ برفقـة الأم، يمسـك بيدهـا فـي حيـن تدخـن سـيجارتها. هـذا القـرب لا يـزال يثيـر غيـرة عفـاف. يمكنهـا أن تـرى كيـف بوسـع مجيـد، ولـو لمـدة قصيـرة، إزاحـة شـبكة الاكتئـاب الأشـبه بخيـوط العنكبـوت المتدليـة برقـة شـديدة فـوق الأم، الشـبكة التـي لـم تسـتطع هـي والأب تحـريكهـا قـط. كان زوجهـا وابنتهـا خيبـة أمـل رهيبـة بالنسـبة إليهـا، لكـن لا يـزال بإمـكان ابنهـا رسـم ابتسـامة علـى وجههـا.

يحتضـن مجيـد عفـاف. شـعره قصيـر ومهنـدم. وجهـه نحيـل وعينـاه العسـليتان أكثـر شـقاوة ممـا مضـى. تحـاول أن تتخيلـه مـع عائلـة ذات يـوم، مسـلمة جميلـة إلـى جانبـه، لكـن الصـورة تأبـى التجسـد بالكامـل. كان رفضـه للإسـلام فـي الغالـب هادئًـا ووقـورًا؛ يتـرك أباهمـا يتحـدث مطـولًا عـن التوبـة، ونعمـة الـزواج مـن امـرأة سـتربي أطفالـه حتـى يكونـوا مسـلمين صالحيـن. يهـز مجيـد رأسـه فقـط، مـع أن عفـاف تلمحـه أحيانًـا عابسًـا عندمـا يذكـر الأب معصيـة شـرب الكحـول.

يخبر عفاف على انفراد: «هل يعظني؟»

«ليسـت موعظـة يـا مـج. يعـرف سـلفًا كيـف يمكـن أن يدمـرك الكحـول».

يضحك أخوها بسخرية. «أشرب قليلًا من البيرة مع الأصدقاء؟ أنا لا أشتريها يا عفاف. الرجال يفعلون أسوأ بكثير من ذلك باسم الدين».

اكتشفت أنه لا يزال بإمكانها أن تكون قريبة من مجيد ما داما لا يناقشان الدين. تتلو عفاف دعاء إضافيًا لأخيها في نهاية كل صلاة، على أمل أن يرى الطريق الذي أضاءه الله لها. ألا يستطيع أن يرى كيف غيَّر الدين أخته؟ هل كانت ذاكرة شقيقها قصيرة جدًّا؟

الآن يسحبها مجيد بين ذراعيه ويلمس ثنية في غطاء رأسها. «انظري إليك يا أختي! لم أكن أعتقد أنكِ تستطيعين فعل ذلك».

تحتضنه بشدة ويتركها تتشبث به. «لم تعتقد أنني أستطيع فعل ذلك أم أنني سأفعل ذلك؟»

يضحك. «ستفعلين ذلك، كما أظن. ما شعوركِ بعد ارتدائه؟»

تتراجع عفاف بخجل وقد صارت واعية بذاتها فجأة. يمكنها قراءة المكتوب على وجه أخيها: *يعتقد مجيد أنها تعرضت لغسيل دماغ أيضًا، مثل كل النساء اللواتي يعتقد أنهن تعرضن للخداع من أجل الاستسلام لرجال لا قيمة لهم.*

تتوجه الأم إلى الموقد، وترش الكمون في قِدر يغلي، رغم أنه كان يُفترض أن تستخدم البهارات. تنفعل: «يا ربي!». تغلق أبواب خزانة المطبخ بقوة، وتتخبط الأطباق المتسخة في الحوض.

تتجاهل عفاف ضجيجها. «إنه شعور جيد. أعني - كان غريبًا بعض الشيء في البداية، لكنني اعتدته». لا تخبره عن السخرية والمضايقات التي تعرضت لها في محطة الوقود، أو النظرات غير المريحة والمُنذِرة من زملائها.

تقذف الأم ملعقة. تصطدم بطبق. «أنت حمقاء يا عفاف. فتاة شديدة الغباء». ترمي رأسها إلى الوراء وتضحك، وهي تحاول عبثًا إشعال سيجارة أخرى بأصابعها المبللة.

«ماما، هيا. اجلسي». يسترضيها مجيد بسيجارة أخرى ويوجهها إلى كرسي. يضعها في فمها ويشعلها من أجلها.

«منذ متى تتصرف ماما هكذا؟» يهمس لعفاف

تهز رأسها. تحاول عفاف عدم الاستياء من شقيقها. أعفى مجيد نفسه من التحديات اليومية للحياة مع الأم -غضبها المتفجر، المفاجئ والمستنزِف، وتحديقها المجرد من المشاعر فيما لا تنطق بكلمة طوال اليوم. حصل مجيد على منحته الدراسية، وعمل بجد كل يوم من تعليمه، لكن لم يغير أي من ذلك نمط الحياة في المنزل. هرب شقيقها تاركًا وراءه عفاف. مع ذلك تشتاق والدتها دومًا إلى الراحلين -ندى ومجيد- وتنكر وجودها وأبيها؛ من بقيا.

تلاحظ الأم كلامهما الخافت. «بماذا تتهامسان عني؟» ترمي سيجارتها في حوض المطبخ. «هل تعتقدان أنني غبية؟ أنني لا أرى ما يحدث؟ أنا أعرف أكثر مما ستعرفانه في حياتكما كلها!»

ترد عفاف عليها بحدة: «ماذا تعرفين؟» نادرًا ما تتفاعل مع نوبات غضب والدتها. تريد أن تصرخ في أمها: *أنتِ لا تحتكرين المعاناة، كلنا نتألم*، لكن مجيد يمسك بذراعها.

تقف الأم بالقرب من عفاف، أنفاسها كريهة، تحمل رائحة السجائر والقهوة، جسدها نتن. «هل تعتقدين أنك مميزة جدًّا الآن وأنتِ ترتدين هذا الشيء؟ ها! لو لبست واحدًا على رأسي

فهل سيعيد الله ندى؟ هل سينتهي هذا البؤس في النهاية؟»

تدهش عفاف من ذكر أختها وتستدير نحو مجيد الذي يبدو كمن تلقى صفعة على وجهه. حضور غير مرئي يملأ المطبخ فجأة ويضغط على عفاف.

قبل أن يتمكن أي منهما من الرد، تندفع الأم إلى عفاف، وتغرس أظافرها في حجابها. دبوس كانت قد ثبتته عفاف بإحكام على أحد جانبي الحجاب يخترق فروة رأسها.

يبعد مجيد الأم عنها، وتترنح عفاف إلى الخلف في مقابل الموقد، وترتطم بالمقبض الطويل للقِدر. السائل المغلي يحرق ذراعها.

يقول أخوها بنبرة آمرة: «عفاف! مياه باردة!»

يقودها إلى حوض المطبخ، ويُشمِّر كُمَّها برقة. لحسن الحظ، امتص القماش معظم الحساء المغلي لكن ذراعها تلوَّن بالوردي. تجفل عفاف من الألم لكنها ترفض البكاء في حين أمهما تشاهد بعينين مذعورتين. يمسك مجيد مرفقها بحزم تحت المياه الجارية.

«لا تتحركي».

عيناها مثبتتان على الأم، مرعوبة من أن تهاجمها مرة ثانية. تحدق الأم بنظرات فارغة إلى الفوضى على الأرضية، صلصلة الطماطم تتقاطر على واجهة الموقد. تخطو خطوة إلى الأمام تجاه عفاف التي تنتفض، لتحذر مجيد الذي يرفع رأسه.

يصرخ أخوها: «ماما!» يبدو مثل سؤال كأنها شخص لم يعد يتعرف عليها.

تتمتم أمهما بشيء قبل أن تستدير وتختفي داخل غرفة نومها. تشغل التلفاز وترفع مستوى صوته. يرفض مجيد النظر إلى عفاف. يصب تركيزه كله على ذراعها، رغم أنها تشعر بسخطه.

ما إن تغلق الأم باب حجرتها، تتنهد عفاف. يهدِّئ الماء البارد مؤقتًا مسامها المحترقة. لا يزال جلدها يخفق ألمًا -ظهرت بقعة من البثور- لكنها تحسنت فجأة بسبب هذا الهجوم الجسدي، كما لو كانت تحبس أنفاسها على مدى السنوات العشرين الماضية. *ضربتها أمها أخيرًا*. لم يعد لدى عفاف ما تخشاه.

يعود الأب إلى المنزل حاملًا معه الفطائر هدية بمناسبة زيارة مجيد. صُدم من المشهد في المطبخ؛ مجيد يزيل الفوضى عن الأرض، ويد عفاف ملفوفة في قطعة من المناشف الورقية. قبل ساعة فقط، تركهم الأب في حالة معنوية جيدة.

«لا، لا، لا». يفحص الأب ذراع عفاف بعناية ويصر على ذهابهما إلى الطوارئ. تتدلى مسبحته من جيب سترته، وتريد عفاف أن تخرجها، أن تتمسك بشيء يمنعها من الارتعاش.

«لا بأس يا بابا. أنا - الحمد لله». عفاف تتمتم. «وضع مجيد عليها بعض المرهم».

«اغفري لأمك. ليست على ما يرام يا حبيبتي». يضع كلتا يديه على كتفيها. «ارحمي الآخرين يرحمكِ الله. اغفري لغيرك، يغفر الله لك».

تريد أن تخبر والدها أن يكف عن وعظها - *أن الأم مخطئة، هي من دمرت حياتهم*. أرادت أن تسأله: *هل توجد آية في القرآن تتحدث عن مثل هذه الخسائر؟ هل يحفظ الأب تلك الآية أيضًا؟*

تنكس عفاف رأسها، وتنظر بعيدًا عن عيني الأب الدامعتين. رغم غضبها، تدعو في صمت لأمها. تفعل كل ما في وسعها حتى تكون إنسانة جيدة، رغم محاولة الأم عرقلتها في كل منعطف. *هل فقدان طفل ينفي وجود طفل آخر؟ هل حياة عفاف لا تستحق أيضًا؟*

* * *

ضوضاء توقظها. صوت كالقرقرة، مثل تدفق ماء داخل بالوعة. تتقلب عفاف في فراش، متناسية ذراعها المحترقة، وتجفل على الفور من شدة الألم. تجلس وتتعمّ حواف الضمادة. يومض المنبه الرقمي. الساعة الرابعة والنصف صباحًا.

الصوت مرة أخرى. تتفقد الممر خارج غرفتها، ممسكة بذراعها مثل جناح مكسور. الممر مظلم باستثناء شعاع رفيع من الضوء ينفذ من تحت باب الحمام. تقرع باب الحمام متوقعة أن يجيب الأب، رغم أن الوقت لا يزال مبكرًا على الوضوء وصلاة الفجر. «مرحبًا؟»

تأتي تلك القرقرة الغريبة من وراء الباب. تدير عفاف المقبض. الأم ترقد في البانيو، نصفه ممتلئ بالماء. عارية تمامًا.

عفاف تصرخ: «ماما!»

تتدلى ذراع واحدة نحيلة خارج البانيو. توجد زجاجة فارغة من منظف درانو Drano على الأرض. تطفو كتل من القيء على سطح الماء، على امتداد ساقي والدتها المتباعدتين.

«خير إن شاء الله!» يدفع الأب عفاف جانبًا. «منتهى! منتهى الرمحي! ماذا فعلتِ بنفسكِ؟»

يظهر مجيد في المدخل. «ماذا يحدث بحق الجحيم؟»

«اتصل ب 911!» تصرخ عفاف من فوق كتفها. «بسرعة! بابا، ساعدني على إخراجها!»

يرفع الأب وعفاف الأم من البانيو، تتسى الألم في ذراعها. مع أنها لا تزيد على مئة وعشرين رطلًا، يتراءى جسد الأم منتفخًا وثقيلًا مثل كيس من الأرز المنقوع. يتدفق الماء من بين ثدييها المترهلين إلى أسفل معدتها التي ما زالت مسطحة. شعر عانتها، الذي لا يزال داكنًا وكثيفًا في مقابل بشرتها الشاحبة، يشبه عش طائر هش. يريح الأب رأسها بعناية على بلاط الأرضية، ويمسد شعرها المسترسل. ذراعاها يتخبطان على جانبيها مثل دمية قماشية.

يصرخ: «منتهى! استيقظي! استيقظي يا حبي!»

«ماما، افتحي عينيك. يلا (هيَّا) يا ماما!» تلطم عفاف خدي والدتها. رفرفة من الحركة تحت جفنيها. «هيّا يا ماما! استيقظي! استيقظي!»

يناول مجيد عفاف منشفة تغطي بها جسد أمها. يقول: «إنهم في الطريق».

«يلا (هيّا)، يا ماما! عليك أن تفتحي عينيك».

«هل ستكون بخير؟» عينا مجيد جاحظة تعكس رعبًا تتعرف عليه عفاف، ذلك الرعب الذي يعود إلى تلك الليلة عندما كانا طفلين حين سمعا المحقق يخبر والديهما عن *العثور على جثة* في حظيرة الماشية القديمة. أو في المستشفى عندما اقترح ضابط الشرطة أن أباهما ربما مات في حادث السيارة.

تستمع عفاف إلى صدر أمها. قلبها ينبض بخفوت ولكن بثبات.

تنطلق صافرة سارينة من بعيد، ثم يرتفع دوي خطوات أقدام تصعد الدرج. قبل أن تتاح لهم الفرصة لطرق الباب، يفتحه مجيد ويسمح للمسعفين بالدخول.

أمرت إحدى المسعفات: «آنسة، امنحينا بعض المساحة».

تُنزل عفاف رأس والدتها برفق على الأرض.

«عليكم جميعًا البقاء في الممر حتى نتمكن من مساعدة والدتكم». تضع سماعة طبية في أذنيها وتميل فوق صدر الأم. تنظر إلى الأب. «سيدي، هل هذه زوجتكَ؟»

وجه الأب شاحب. تمسك عفاف بذراعه. يومئ إيماءة واهنة كأنه عندما يعترف بذلك، سيُلام على اقترابها من الموت.

«هل لديك أي فكرة متى تجرعت السائل؟»

يهز الأب رأسه مرة أخرى.

قميص بيجامة عفاف مبلل تمامًا. تتحسس رأسها العاري، مدركة أن المسعف الذكر قد رآها دون حجابها لكنه لا يوليها أي انتباه. هو مشغول بتغطية أنف الأم وفمها بجهاز تنفس بينما تفحص شريكته ضغط دمها. يرفعانها على نقالة ويوثقانها.

تتشبث عفاف بالمنشفة المبللة أمام صدرها. لا يزال بإمكانها الشعور بنبضات قلب الأم تتردد داخل أذنها مثل قرع طبلة خافت.

8

يركن الأب السيارة في مرأب المستشفى تحت الأرض، ويخرجون من السيارة. يتضخم صدى إغلاق أبواب السيارة بشكل مخيف داخل الهيكل الأسمنتي. يدخلون جناحًا مختلفًا عن آخر مرة كانوا فيها هنا، بعد حادث السيارة الذي تعرض له الأب. كم كانت عفاف ومجيد مذعورين تلك الليلة في غرفة الطوارئ.

يضغط الأب على زر المصعد ويلج ثلاثتهم فور انفتاح بابه. تبحث عفاف بعينيها في دليل الطوابق عن اللوح الصفيح المثبت على جدار المصعد.

الطابق رقم 3: الصحة والرعاية النفسية

بعد أسبوع نُقِلت الأم من وحدة السموم إلى هناك. تتساءل عفاف إنْ كان هذا هو الطابق الذي أقامت فيه الأم عندما أصيبت بانهيار عصبي. تتساءل هل هذا التسلسل الطبيعي للأحداث. *تفقد طفلًا، تعاني انهيارًا عصبيًا، ثم تحاول الانتحار*. كيف يعود المرء إلى حياته الطبيعية بعد أن يفشل في وضع حد لها؟ هل ينتظر ببساطة حتى يبتلعه البؤس يومًا ما؟

سمعت عفاف عن شرب نساء عربيات منظف *درانو* أو *مستر كلين* في محاولة منهن لتلقين الزوج الخائن أو المُعنِّف درسًا. سمعت ذات مرة الخالة نسرين وهي تخبر الأم عن امرأة كانت تعرفها من ميلووكي التي نجحت في مسعاها. عاد أطفالها إلى المنزل من المدرسة ليجدوا جسدها الهامد المسموم ملقى على الأرض.

زوجان من البيض يدخلان المصعد خلفهما. يحدقان بها فتلمس بشكل غريزي طرف حجابها، عادة طورتها. اعتادت الحجاب، حتى إنها نسيت أنها ترتديه في بعض الأحيان، حتى يذكِّرها به الآخرون بحواجبهم المقطبة وشفاههم المزمومة. يحدقون في الأب أيضًا بطاقيته ومسبحته الملتفة حول يده. يمكنها أن تشعر بجسد مجيد يتشنج، مستعدًا للشجار. عفاف تلف إصبع خنصرها حول إصبع مجيد، وتشده برفق لتُحجِمه.

يخرجون إلى جناح مستشفى مزين باللونين الأزرق والأخضر الفاتح. تغطي الجدران نسخ مؤطرة من سلسلة لوحات *أكوام التبن* للرسام مونيه. في إحدى المقصورات، تبتسم لهما ممرضتان ترتديان أردية تمريض زاهية الألوان ومنقوشة عند اقترابهم من مكتب المقصورة. تتوقع عفاف حالة مزاجية صامتة، تتناسب مع الفراغ الذي تشعر به بداخلها.

يمشون في الممر مرورًا بغرف المرضى، الستائر ملفوفة حول الأسرَّة؛ بعض الأبواب مغلقة. طبيب يتحدث مع امرأتين - أم وابنتها، كما تخمن عفاف، خارج إحدى الغرف المغلقة. تنهمر الدموع على وجه الفتاة.

باب غرفة الأم مفتوح، والستارة منزاحة، كاشفة عن سريرها. تحيط بعيني الأم هالات سوداء، خداها هزيلان. تبدو مثل مشعوذة عجوز، كانت جميلة ومشرقة ذات يوم. يتدفق شعرها الرمادي مثل الحرير على الوسائد البيضاء. محلول وريدي معلق بجانب السرير. يدا الأم مقيدتان، وأصفاد سوداء تحيط بمعصميها النحيلين.

يحييها الأب بهدوء: «سلام». يضع مصحفًا صغيرًا فوق سريرها.

تميل ماما برأسها في اتجاه صوته، مُبعِدة نظرتها عن النافذة. يتحرك مجيد على الفور إلى جانبها ويرفع يدها برفق. يختنق لمرأى معصمي الأم المقيدين. يسأل وهو يشهق: «هل هذه ضرورية حقًّا؟»

عفاف هادئة وتبقى متجمدة في مكانها عند الباب، في حين تمرر أصابعها على حافة ضمادة جديدة لفها مجيد برفق حول ذراعها المحترقة.

تبدو الأم محمومة، مقلتاها متسعتان. تقول بصوت أجش: «أريد أن أذهب إلى المنزل».

يمسك الأب بيدها الأخرى، الأصفاد تخدش أصابعه. «إن شاء الله ستخرجين قريبًا، و...».

«لا. أريد العودة إلى المنزل الآن». تحاول رفع ذراعيها، لكن الأصفاد تسمح لهما بالتحرك بضع بوصات فقط فوق جسدها. تكرر: «المنزل»، بكل التركيز الذي يمكنها حشده لنطق كلمة واحدة.

تنظر عفاف إلى مجيد، ويشاهدان وجه الأب الممتقع، تمامًا مثلما كان عندما عثروا عليها في البانيو قبل أسبوع فقط. يفهمون ما تطلبه الأم.

طوال هذا الوقت، كانت الأم شبحًا، تتجول في الحاضر، بحثًا عن بوابة إلى الماضي حيث كانت ذات يوم فتاة صغيرة، خالية من الهموم. ولم تكن أمًّا لأحد، أو زوجة لأحد. منتهى فحسب،

بلا حزن، تخطو بخفة كطفلة لم تعرف ألمًا يتجاوز ألم ركبة مخدوشة أو كاحل ملتو، ولم يُسرق جزء من ذاتها منها.

لم تتخيل عفاف قط أن لدى الأم أي تطلعات أخرى بخلاف الأمومة – التي أخفقت فيها تمامًا من وجهة نظر عفاف. هل قمعت الأم أحلامها الأخرى في أن تكون إنسانة أخرى، وليست أمًّا لطفلة مفقودة؟ أو زوجة رجل محطم؟ شيء يغمر عفاف وهي تتأمل والدتها المقيدة بالأصفاد يحرمها من أي سيطرة. لأول مرة، ترى عفاف أمها امرأةً محطمة.

يومئ الأب برأسه استجابة لطلب الأم، ويقول بصوت مختنق: «أيًا كان الذي ترغبين فيه سنحققه لكِ يا حبيبتي».

تستدير الأم برأسها إلى النافذة، وتنزلق أصابعها من أيديهم، تتركها.

الجزء الرابع

مدرسة نور الدين للبنات

كانت امرأة نحيفة. ثوبها طويل الأكمام فضفاض، يكشف عن انتفاخ طفيف في صدرها. تحدد طبقات من القماش شكل أطرافها، وثمة حجاب أسود مشدود حول رأسها، ثنياته تتجمع عند رقبتها. كان المشهد موترًا له؛ وجهها ويداها هما الجزآن الوحيدان اللذان يستطيع رؤيتهما من جسدها. كانت عيناها البنيتان مثل حبتي البندق مثبتتين عليه، ينعكس رعبها في كل منهما مثل برك من الماء. تنهمر الدموع على وجهها. تمسحها باستمرار بأكمامها. تكافح لتحافظ على رباطة جأشها، رغم أنها لا تصدر أي صوت - ولا أنين.

سأل المرأة المسلمة: «ماذا تفعلين هنا؟» بدا من غير المرجح بالنسبة إليه أنها اختارت هذا المكان للاختباء. كان مخرج الطابق الأول على بعد أمتار قليلة فقط. كان من الممكن أن تندفع بسهولة عبر الأبواب بمجرد سماعها صوت إطلاق النار، وتنضم إلى الأخريات اللاتي غدون الآن في الخارج، في أمان. لا بدّ أنها كانت تشغل هذه المساحة قبل دخوله المبنى. ربما أغفل عن رؤيتها قبل لحظات حينما انعطف عند الزاوية.

تلعثمت: «أنا.. لا شيء». يمكنه أن يرى أنها تفكر في إجابتها، وتقيس ردة فعله. نظرت إلى السجادة الخضراء الصغيرة المفروشة

على الأرض، زوج من النعال الجلدية مصفوفان بعناية على الأرض بجانبها. «كنتُ أصلي».

أشار ببندقيته إليها حتى تجلس على الكرسي الوحيد في الحجرة. ترددت للحظة، وهي تنظر إلى حذائها مرة أخرى. عندما استقرت على وسادة الكرسي، تشبثت بمسندي الذراعين، جذعها مستقيم وصلب. ارتجف النصف السفلي من جسدها، وارتعش ذقنها. كانت في كامل انتباهها.

جال ببصره في فضاء الحجرة. مائدة فوقها كتاب غلافه مزخرف بنقوش ذهبية. لا يوجد أثاث آخر. تابع بعينيه مسارًا معدنيًا يمتد من جانب إلى الآخر، يقسم الغرفة إلى نصفين.

تخيل ستارة كانت معلقة هناك ذات يوم، تفصل الكاهن عن المعترِف بذنوبه.

مقت الذهاب إلى الاعتراف عندما كان طفلًا. كانت والدته تجره هو وأخاه جو مساء كل خميس فيما كان والدهما ينتظر في شاحنته الصغيرة خارج دير سانت ماثيو. جلس هو وشقيقه بجمود على دكة خشبية أمام غرفة الاعتراف، في حين كانت والدتهما في الداخل. كان يتساءل عمَّ يمكن أن تعترف به. عملت بجد لتصنع لهم منزلًا، وماذا حصلت في المقابل؟ رجل بدا أنه يحتقر العالم. لماذا لم يكن والده في الداخل هناك يعترف بخطاياه؟

كانت ذنوبه طفيفة نسبيًا؛ شتم جو وشرب زجاجة إضافية من تموين الحليب. لم يعترف قط بالأفكار اللا-أخلاقية التي راودته بشأن إيذاء والده، أو ممارسته العادة السرية في أثناء الاستحمام. بينما كانا ينتظران دورهما، رسم هو وجو وجوهًا مضحكة من

أجل بعضهما بعضًا، كل منهما يتحدى الآخر حتى يضحك أولًا ويكسر هدوء الكنيسة الكئيب. خلفهما في مقاعد منعزلة، تمتمت نساء مسنات يرتدين غطاء رأس قصيرًا من الدانتيل الصلوات، جاثيات على ركبهن، ومسبحات ملفوفة بين أيديهن المطوية.

لم يستطع استشفاف أي شيء عن هذه المرأة المسلمة بعينيها الدامعتين وذقنها المرتعش. ارتجفت يداها الزيتونية البشرة، المعقودتان في حِجرها. أمعن في النظر إلى خاتم زواج من الذهب الخالص كانت تفركه بإصبعها.

لم يتحدث هو وإيلين قط عن الزواج، وقد دخلا في حياة من المساكنة تشبه الحب إلى حدٍّ ما - برفقة حميمية وبسيطة. في المرة الأولى التي تطارحا فيها الغرام، تتبع بإصبعه مسار ندبة رفيعة وطويلة في فخذها، مثل ضربة من فرشاة رفيعة الأطراف.

قالت ساخرة: *شجار مع عشيق سابق*. استلقت على ظهرها، وذراعها فوق صدره، وأخبرته عن عشيقها السابق المعنِّف الذي ضربها بشدة لدرجة أنها مكثت في المستشفى مدة أسبوع. فقدت وظيفتها سكرتيرة، وعملت نادلة وقتًا طويلًا حتى تجد شيئًا أفضل.

سأل المرأة المسلمة: «ألديك أطفال؟»

«نعم. ولدان وبنت». لم ترفع عينيها عن البندقية - هل نظرت إليه من كثب؟ لو نجت بمعجزة، هل ستستطيع التعرف عليه؟ كان غير مرئي طيلة حياته. اليوم من شأنه أن يتغير ذلك إلى الأبد.

اتكأ على الباب، بندقيته لا تزال مصوبة إليها. داهمه الإنهاك فجأة، لكنه ظل يقظًا.

«ابنتي ترتاد هذه المدرسة». تمهلت قبل أن تردف: «هي في السنة الأخيرة.. اسمها عز—».

«اسكتي. هل تعتقدين أنني سأشعر بالأسف من أجلكِ إذا أخبرتني بأسمائهم؟ أنتم تدمرون هذا البلد. شعبك، ودينك الشرير».

تذكر ذلك اليوم. كان في المنزل صباحًا. كان لديه مناوبة مسائية في وظيفته بشركة التدفئة والتبريد. وحده شاهد فيديو غير مُمنتج لطائرتين اصطدمتا بمئتي ألف طن من الفولاذ. كان مشهدًا سرياليًّا، مثل مشهد غزو من رواية خيال علمي – مشهد يناقض أي شيء منطقي يمكن أن يحدث في بلده، أقوى دولة في العالم. انتقلت الصورة إلى مذيعي الأخبار للإبلاغ عمّا يعرفونه حتى الآن. كان الرئيس بوش يقرأ لمجموعة من طلاب الصف الثاني في فلوريدا عندما اصطدمت الطائرة الأول بالمبنى.

اتصلت به إيلين من المطعم. همست عبر الهاتف: «يا للمسيح!». استطاع سماع زملائها في العمل ينتحبون في الخلفية.

كان كل ما تحدث عنه أي شخص في مجموعات دردشته على الإنترنت: *إرهابيو الحادي عشر من سبتمبر*. أعلن الأعضاء اقتراحات بعضها كان منطقيًّا مثل تحديث تراخيص الطيَّارين، وبعضها كان متطرفًا مثل التضييق على جميع المسلمين في البلاد حتى تتمكن الحكومة من الوصول إلى حقيقة الهجوم:

توقفوا عن البحث عن عقل مدبر واحد.. كل مسلم عدو للدولة.

الآن هل ستأخذ مني حقي في حمل السلاح؟ اللعنة على الديمقراطيين والليبراليين، والصوابية السياسية!

بدأت حرب مقدسة...

لـم يكـن لديـه أي تفاعـل مباشـر مـع المسـلمين مـن قبـل، لكـن فجـأة بـدا محاطًـا بهـم فـي بلـد تيمبسـت بعـد انتقالـه مـن شـيكاغو. اصطفـوا فـي طابـور أمامـه فـي متجـر بقالـة وول مـارت، أطفالهـم يسـحبون قطـع الحلـوى مـن الـرف بجـوار ماكينـة الصـرَّاف رغـم تحذيـر والدتهـم، أو أوقفـوا سـياراتهم إلـى جانبـه عنـد إشـارة المـرور، نسـاء محجبـات خلـف مقـود سـياراتهن الرياضيـة الفاخـرة.

بدأ يحمـل مسدسًـا فـي كل مـكان، حيـث كانـت المرحلـة القادمـة خطِـرة بشـكل متزايـد وفقًـا للرجـال فـي نـوادي الرمايـة ووفقًـا لمـا كان يقـرؤه علـى الإنترنـت. بـدأ يخـزن مسدسًـا صغيـرًا فـي حجيـرة القفـازات فـي سـيارته، وبـات متحفـزًا بشـدة عندمـا يسـير فـي موقـف سـيارات أحـد مراكـز التسـوق، ويمـر بمراهقيـن سـود يصرخـون ويصيـح بعضهـم علـى بعـض.

كلمـا انغمـس أكثـر فـي تصفـح الإنترنـت، أصبحـت المواقـع أكثـر إثـارة للمخـاوف، لدرجـة أنـه كان لا يبـرح مقعـد مكتبـه فيمـا تحبـك إيليـن قماشًـا وتشـاهد برنامـج «*عجلـة الحـظ*». كل مدونـة تنقـل معلومـات مثـل وسـيط روحـي يـرى نـذر شـؤم بمجتمـع علـى وشـك الانهيـار إن لـم ينتفـض عِرقـه فـي مواجهـة كل خصـم ظاهـر. كان ثمـة قليـل مـن الأمـل، الكامـن فقـط فـي دعـوة مدويـة بشـن معركـة ضـروس علـى المسـلمين.

بعـد ذلـك، دخـل فـي مـزاج سـيئ؛ مـا دفـع إيليـن إلـى أن تتسـاءل عنـد عودتهـا إلـى المنـزل مـن مناوبتهـا فـي مطعـم آيهـوب عـن الشـيء الـذي اسـتحوذ عليـه خـلال تغيبهـا.

قالـت لـه وهـي تصفـع أبـواب خزانـة المطبـخ: «مـاذا دهـاك بحـق الجحيم؟ إنـه هـذا الهـراء الـذي تقـرؤه علـى الكمبيوتـر، أليس كذلـك؟»

الآن، بعـد أكثـر مـن عقـد منـذ هجمـات 11 سـبتمبر والفشـل الذريع لإدارة أوباما، كان الموضـوع الأكثر شيوعًا هـو الإسـلام -*هـل ستخضع أمريكا لأحـكام الشـريعة؟*- وتـرك آلاف المسـتخدمين تعليقـات توضـح بالتفصيـل الحـوادث التـي اشـتبكوا فيهـا مـع *«الموسـى» و«الحجـي»*[1]. ذكـر أحـد الأعضـاء أنـه كاد يخنـق امـرأة باستخدام حجابها. «يسَّهل الحجـاب خنق هؤلاء العاهـرات اللاتـي ينشـرن الإسـلام – حجابهـن يزودنـا بأنشـوطة الشـنق».

عندمـا انجرفـت جثـة طفـل صغيـر علـى شـاطئ البحـر الأبيـض المتوسـط، شـعر بالخـدر. غطـت إيليـن فمهـا فـي رعـب فيمـا تشـاهد التقريـر الإخبـاري. كان قـد رأى الخبـر بالفعـل فـي صفحـة آخـر الأخبـار علـى الفيـس بـوك.

أتمنـى أن يغرقـوا جميعًا.

مثلما ابتلع البحر الأحمر الفراعنة قديمًا.

تأمـل المـرأة المسـلمة أمامـه. يتذكـر اجتماعـات مجلس القريـة التـي حضرهـا، وهـو يشـتعل غضبًـا فـي كرسـيه فيمـا يترافـع محـامٍ ذو بشـرة سـمراء أمـام المجلـس لإعـادة فتـح الديـر، وجعلـه مدرسـة لـلأولاد المسـلمين. تطـوع لتوزيـع النشـرات فـي متاجـر البقالـة المحليـة والمكتبـة العامـة للاحتجـاج علـى المشـروع.

---

(1) موسـى Mussie وحجِّـي Hajji كلمتـان بذيئتـان مشـتقتان مـن كلمتـي مسـلم وحـاج، وكلاهمـا يسـتخدم للإشـارة إلـى المسـلمين العـرب (المترجـم).

نظـرت المـرأة إلـى الـوراء، وحوَّلـت بصرهـا مـن بندقيتـه إلـى وجهـه. قالـت بهـدوء: «أنـا آسـفة لألمـك. يمكننـا أن نتحـدث عنـه».

تـدوي صفـارات الإنـذار. كـم مـن الوقـت مضـى منـذ دخولـه المبنـى؟ الشـظية الوحيـدة مـن الضـوء الطبيعـي تسـللت مـن أسـفل البـاب. يلقـي المصبـاح بظلالـه علـى رأس المـرأة- شـكل كهـف فـي جبـل بعيـد.

ضحـك بسـخرية. «مـاذا تعرفيـن عـن ألمـي؟ أنـت لا تهتميـن كثيـرًا بـي أو بهـذا البلـد. أنـتِ لا تنتميـن إلـى هنـا».

قالـت وهـي تميـل إلـى الأمـام ويداهـا ترتجفـان مثل الطيـور فـي حضنهـا: «ولـدتُ فـي هـذا البلـد - مثلـكَ تمامًـا».

«حقًّـا؟ أنـتِ بالتأكيـد لا تتصرفيـن علـى هـذا الأسـاس». هـز رأسـه بشـدة. «لا، يـا سيـدة، أنـت لا تنتميـن إلـى هنـا علـى الإطـلاق».

فـي تلـك اللحظـة صـدق مـا قالـه تمامًـا. كانـت رسـالة تـردد صداهـا فجـأة بصـوت أعلـى مـن كل المـرات التـي سـمعها فيهـا أو قرأهـا عبـر الإنترنـت علـى مـر السـنين: هـم *لا ينتمـون إلـى هنـا*.

مثـل معظـم المواطنيـن الحقيقييـن، نظـر إليهـم دومًـا علـى أنهـم مجـرد غربـاء، مصـدر إزعـاج. لكـن كل شـيء تغيـر فـي الحـادي عشـر مـن سـبتمبر. هـم الآن يقتلـون المواطنيـن الأبريـاء بعملياتهـم الانتحاريـة، مؤمنيـن بـأن اللـه الـذي يعبـدون سـوف يهبهـم عـذارى فـي الجنـة. فـي ذلـك الصبـاح الدامـي، سـجَّل وصولـه إلـى العمـل فـي دفتـر الحضـور، ثـم توجـه نحـو غرفـة الاسـتراحة لإيـداع صنـدوق غدائـه عندمـا اصطدمـت الطائـرات بمركـز التجـارة العالمـي.

صرخت المرأة فجأة: «أنا لست عدوتكَ». تحركت في كرسيها فرفع غريزيًا بندقيته مرة أخرى في مستوى الصدر.

أجاب: «بلى، أنتِ كذلك». تصادف أنها كانت من نوعية الأعداء التي واجهها عن قرب.

2002

1

تقول عفاف وهي تغرف شرائح اللوز في مقلاة مدهونة بالزبدة الساخنة: «يجب أن نلغي رحلة الحج».

يتنهد بلال وهو يرتب مائدة المطبخ. «لن أسمح للوحوش الذين يتظاهرون بأنهم مسلمون بالسيطرة على حياتنا. الرحلة مدفوعة الثمن. نحن ذاهبون».

إنجليزية زوجها -لا اختصارات أو لغة عامية- متقنة مثل ترتيبه أدوات المائدة؛ يطوي المناديل الورقية بدقة، مثلما تطوى زوايا الملاءة فوق السرير.

يتظاهر بلال بأنه لم يخسر ثلاثة عملاء آخرين هذا الأسبوع، إحداهن أخبرته بأنها ستنقل أعمالها إلى مكان آخر، إلى *أ*ميركيين حقيقيين. عميل آخر اعتذر بشدة عندما أغلق حسابه مع بلال، معترفًا بخوفه من الفدراليين. يواصل بلال طمأنة عفاف بأن شركته للاستشارات المالية ستنجو من موجة الغضب العنيفة في البلاد ضد المسلمين. قال إن معظم عملائه في نهاية المطاف مسلمون.

يدخل أيمن المطبخ متكئًا على عكازات صغيرة. «أنا جائع».

«قريبًا». يساعد بلال ابنهما البالغ من العمر سبع سنوات في الجلوس على كرسي المطبخ. أصيب أيمن بالتواء في الكاحل في أثناء التزلج مع أطفال الحي. يضع ساقه المضمَّدة على كرسي آخر، جسده الصغير يوازي المائدة. أصبح بارعًا في المناورة

في أرجاء المنزل على ساق واحدة. يذهل عفاف مدى مرونة الأطفال. أول خدش يتعرض له، أول سنَّة مكسورة أصابت عفاف بالهستيريا ومع ذلك كم كان تغلُّب ابنها على أي نكسة جسدية، وتكيفه مع الظروف الجديدة سريعًا.

«أنا قلقة على والدي». تصر وهي تقلب حبَّات اللوز بملعقة حريصة على أن لا تحرقها في حين تكتسب اللون الذهبي في الزبدة المغلية. المطبخ مشبَّع برائحة الزبادي ولحم الضأن. «كيف يمكنه السفر في هذا المناخ الرهيب؟»

يقول بلال: «إنه اختياره يا عزيزتي. يمكنكِ محاولة إقناعه، لكنك ستضيعين وقتكِ». يتطلع إلى ابنهما. «لا ألعاب على المائدة يا أيمن».

يغلق ابنهما جهاز الجيم بوي Game Boy على مضض، ويضع ذراع التحكم في جيب سترته الرياضية.

تطفئ عفاف النار على اللوز، وتحرِّك محتوى قِدر من الأرز بالملعقة. «وماذا عنك؟ قد لا يسمحون لك بمغادرة البلاد».

يتنهد بلال مرة أخرى. «لا يمكنهم منعي من السفر يا عفاف. مهما حاولوا إرهابي».

لا يفيد بلال كونه رئيسًا لشركة استشارات مالية حلال تساعد المسلمين على توجيه فوائد أموالهم إلى المنظمات الخيرية لتجنب *الربا*. ربما يكون ذلك أكثر ما يثير اهتمام وكالات الاستخبارات. تحقق حلم بلال في بدء عمل مالي يشرف على المعاملات المالية الحلال فقط لكنه في المقابل وقع في دائرة اشتباه الفيدراليين.

هل سيُمنَعون من السفر للحج، إلى بلد كان مهد الإسلام، وفي الآن نفسه موطن خمسة عشر من خاطفي الطائرات التسع عشرة في أحداث 9/11؟ بلال متفائل أكثر من عفاف. هي مستعدة لتأجيل الحج عامًا أو عامين آخرين. منذ 11 سبتمبر، سمعت كثيرًا من القصص عن رجال ونساء -بعضهم مراهقين- محتجزين من دون سبب، ومحرومين من التمثيل القانوني. في دائرة النساء بالمركز الإسلامي، لم يسمعوا أي خبر عن صهر لاميس أبي ناصر خلال الأشهر الثلاثة التي مضت منذ اعتقاله في ولاية كونيتيكت. في بروكلين، اعتُقِل مجموعة من الصبية القُصَّر من مسجد، ولم يتمكن آباؤهم من رؤيتهم حتى مثلوا أمام قاضي الدائرة القضائية. تعرضت طالبة جامعية من فيرفاكس بولاية فيرجينيا للاستجواب لمدة ثماني عشرة ساعة بعد أن نشرت تعليقات حول الاعتقالات غير القانونية على مدونتها الإسلامية. تظهر عشرات القصص كل أسبوع، تُرعِب عفاف.

يتململ نجلها أيمن في كرسيه مستمعًا، حاجبه يتجعد وهو يحاول فهم حديثهما. في اليوم التالي لاصطدام الطائرتين، وصفه أحد زملائه بالإرهابي، كلمة لم يسمعها من قبل، كلمة بغيضة بالنسبة إلى عفاف لا تقل بشاعتها عن كلمة *مغتصب أو متحرش بالأطفال*. كلمات تجعل الكبار يقشعرون، لكنها فظيعة جدًّا حتى يسمعها طفل ناهيك بأن يُنعت بها.

عندما أصبحت عفاف أمًّا، توقفت عن النوم بهدوء. أذناها ترصدان أدنى سعال أو أنين يصدر عن ابنها. استلقت على ظهرها، وفركت الندبة على ذراعها من الحساء المغلي الذي

سكبته والدتها عليها منذ سنوات عديدة. تحاول تجنب الأخبار، مع أن وجوه الإرهابيين -تسعة عشر رجلًا كانوا ذات يوم أبناء وإخوة وأزواجًا- تطاردها في كل مكان تذهب إليه. تغزو الغيوم المتكاثرة صلاتها. كيف يمكن قتل هذا العدد الكبير من الأرواح باسم الرب؟ ليس إلهها أو إله أبيها، الإله الذي أنقذهما كليهما.

أحيانًا يستيقظ بلال مفزوعًا، ويتطارحان الغرام بشكل مفاجئ، كل منهما يتشبث بالآخر في ظلام الصباح الباكر قبل أن يغفو مجددًا. بات ذلك أكثر شيوعًا هذه الأيام، مثل عاشقين حديثين يستكشف كل منهما الآخر من جديد. تستمع إلى شخير بلال الناعم، جسدها ملتصق به، ظهره العريض مثل جدار سدٍّ، يبقيها متزنة.

ثم يدق المنبه وتستعد ليوم جديد من التدريس في مدرسة نور الدين، حيث تصل ثلاثمئة شابة مسلمة يرتدين حجابًا في تحدٍّ لكل الظروف. قبل التحاقها للعمل بالمدرسة الإسلامية للبنات، درَّست عفاف في شيكاغو في مواجهة البطالة والفقر والعصابات والعنف اليومي. حدد لون البشرة مقدار التمويل الذي ستحصل عليه مدرستهم، وكيف بدت أحياء طالباتها. الآن التنشئة الدينية للطفل -عقيدتهم- ما تحرض المتطرفين على أعمال التخريب المتعمدة البغيضة في جراج عائلاتهم، أو البصق عليهم في موقف السيارات في وول مارت.

تحولوا من «رؤوس المناشف»[1] إلى إرهابيين.

(1) Towelheads : كلمة بذيئة أخرى تطلق على أصحاب الديانات الذين يرتدون غطاء للرأس مثل المسلمين والهندوس والسيخ (المترجم).

لا ترغب عفاف في خلع حجابها، رغم أنه يتراءى لها ثقيلًا في بعض الأحيان. بعد أسبوع من سقوط الأبراج، فكرت في الأمر. حثها شقيقها مجيد: *لمدة وجيزة فقط ريثما تهدأ الأمور*. لكنها شعرت أن ذلك سيكون استسلامًا مذلًّا أكثر منه حماية لنفسها. كم عدد الأشخاص الذين فضلوا الموت على التخلي عن معتقداتهم؟ يبدو أنهم شاركوا دائمًا في هذه الرقصة الغريبة مع إخوانهم وأخواتهم المسيحيين.

أعلنت معلمة بيضاء في آخر مدرسة عملت بها، *ليس الإله نفسه*. كانت هي وعفاف تناقشان القواسم المشتركة بين المسيحية والإسلام. رفضت زميلتها في العمل فكرة أنهم يعبدون الرب ذاته في الإنجيل. كانت عفاف قد جلبت لها المؤلفات التي أنتجها المركز في محاولة لإقامة علاقات بين الأديان وسط مجتمعاتهم. رأت عفاف الكتيب ملقى فوق كومة من أكواب القهوة الرغوية المهملة في غرفة استراحة المعلمين.

خلعت قليل من المسلمات من جمعية النور حجابهن -سهى بكري، وإحدى شقيقتي كوكب- أزواجهن قلقون بشأن سلامتهن. في الأسبوع الماضي فقط سمعت عفاف عن امرأة دفعها زوجان بيض البشرة وركلاها في سوبر ماركت فيما كانت تفرغ مشترياتها من البقالة. لم يحالف الحظ الآخرين في الهروب بمحض إصابات. تتذكر عفاف بشكل قاتم الصور التي وردت في الأخبار عن ارتداء نساء شعرًا مستعارًا أشقر لردع أبناء سام ومنعهم من مهاجمتهن، في نفس العام الذي اختفت فيه ندى.

في الشهر الماضي، ذهبت عفاف إلى متجر فيكتوريا *سيكريت* في المجمع التجاري لشراء هدية حفل زفاف لإحدى النساء الأصغر سنًا. سخرت منها امرأة بيضاء في منتصف العمر وصديقتها وهي تحمل قميص نوم شفافًا مزركشًا إلى البائعة: *أليس التسوق هنا إثمًا؟* كما لو أنه لا يحق للمسلمات أن يكنَّ كائنات مثيرة جسديًا. أو لم يرتدين ملابس داخلية. لكنها لم تستدر لتتجادل في هذه الأشياء مع هؤلاء النساء البيض. اشترت ببساطة هديتها، وغادرت، وعيناها مصوبتان مباشرة إلى المخرج.

ألم تكن النساء دائمًا أكثر ضعفًا وعرضة للهجوم في الأوقات العصيبة؟ تذكرهن الأخت نبيهة في محاضرة الحديث المخصصة للنساء عن العبء الخاص الذي يحملنه. *نعاني آلام الحيض، والجماع الأول، ثم ساعات الولادة، وسنوات تربية أطفالنا.*

أومأن برؤوسهن، الفتيات الصغيرات يتوردن خجلًا من ذكر الجنس.

لكن تلك الأعباء ليست نعمًا منقوصة. سنسمو في مملكة الله. ألم يعلن النبي صلى الله عليه وسلم أن الجنة تحت أقدام الأمهات؟ نبيهة تحثهن، *أيتها الأخوات لا تهجرن حجابكن. يمكننا الصمود أكثر من الرجال.*

ومع ذلك، لجأت عديد من النساء إلى القبعات ذات الحواف المنخفضة بدلًا من الحجاب الملون.

يندفع أكرم داخل المطبخ ويشد قميص عفاف. «ماما! هل يمكنني إطعام السمك؟» يقفز طفلها البالغ من العمر خمس

سنوات من قدم إلى أخرى. يشبه أكرم والده أكثر، بشعره البني الكثيف وعينيه الكهرمانيتين الثاقبتين.

«لا يا حبيبي. أطعمتها هذا الصباح». تدغدغ معدته. يضحك أكرم ويتلوى.

«تعال يا صغيري. اغسل يديك من أجل تناول العشاء». يرفع بلال جسد أكرم عن الأرض، يتردد صدى ضحك ابنهما المجلجل في البهو.

يرن جرس الباب، ثم يعلو وقع خطوات أقدام الأب المتثاقلة، صدى خشخشة عكازته في مقابل بلاط السيراميك يتردد في الردهة.

«سلام يا حبيبتي. أحضرت المفضلة لديك». يسلم الأب عفاف كيسًا ورقيًا بني اللون، ثمة بقع شحم في قاعه. يمسك وجهها بكلتا يديه ويقبل كل خد. يتراجع فترى كم تقدم والدها في السن. ربما بسبب رحلة الحج أو ربما بسبب هذه الطريقة التي انقلب بها العالم رأسًا على عقب – يتراءى لها الأب رجلًا عجوزًا، لم يعد قوي البنية ومستقيم الظهر. يتكئ على عكازته، كتفاه محنيتان. يبدو أن جسده يتقلص مع مرور كل عام.

«شكرًا لك يا بابا». تفوح من الكيس رائحة بهارات السماق المنعشة والبصل المفروم. فطائر السبانخ. تنهي عفاف غرف الأرز بالبخار في طبق، وترش اللوز الذهبي فوقه.

يقول الأب: «رائحته طيبة». يحب المنسف الذي تطهيه عفاف، مع أنها تتوقع أنه لن يتناول سوى بضع لقيمات قبل أن يُنزل شوكته. تضاءلت شهيته للطعام خلال الأشهر القليلة الماضية.

يرفض الحديث عن أي شيء يتعلق بصحته. تجد مشقة في متابعة انتظامه في تناوله أدوية ضغط الدم والمكملات الغذائية اليومية. منذ أن انتقلت الأم إلى فلسطين، طلبت منه عفاف وبلال مرارًا الانتقال للعيش معهم حتى تتمكن من مراقبة حالته بشكل أفضل، لكنه يرفض. لا يزال الأب يعيش في الشقة القديمة في شيكاغو. تقريبًا كل شخص أبيض ترك حيه القديم. الآن معظمهم من العائلات المهاجرة الشابة القادمين من المكسيك الذين يتبادل الأب معهم التحيات بالإنجليزية. اشترت عفاف وبلال منزلًا في تيمبست حتى يكونا أقرب إلى المركز الإسلامي.

عندما تتذمر عفاف من تفويته جرعة من وصفته الطبية الأخيرة، يقول لها: «كل شيء بيد الله، يا حبيبتي».

كانت هذه طريقة الأب؛ يسلِّم أمر صحته تمامًا لله رغم توصيات طبيبه. ينطبق ذلك على كل شيء آخر في حياته -المسائل المالية، ومحنة الفلسطينيين.

كل شيء إلا عندما يتعلق الأمر بالأم. تشك عفاف في وجود أي آية قرآنية تخفف من وحدة أبيها. مر ما يقرب من ثماني سنوات وما زال يفتقدها. عادت الأم إلى منزل والديها، حيث تقيم مع عائلة شقيقها الأصغر. لن تعود الأم أبدًا إلى الولايات المتحدة. كبرياء الأب تمنعه من السفر إلى فلسطين دون دعوتها له، مع أن عفاف ومجيد يمتلكان من الوسائل ما يكفي لإرساله إلى فلسطين. عندما تتصل عفاف من باب الواجب بأمها البعيدة، ترفض الأم التحدث إلى الأب، فقط تسأل عفاف ومجيد عنه بأدب كما لو أنه قريب بعيد.

ومع ذلك، يرسل الأب الأموال إليها كل شهر كما لو كان يسدد بعض الديون الباهظة التي يدين بها للأم. عفاف ومجيد يقومان بذلك أيضًا. في العيد، ترسل عفاف للأم بيجامات ونعال منزلية، وأدوات مطبخ لهدى زوجة خالها.

تخبرها هدى زوجة خالها عبر الهاتف «أمكِ هادئة جدًا. تعيش في عالمها الخاص. وكل هذا المشي الذي تقوم به! لا عجب أنها لا تزال تمتلك جسدًا شابًا». نبرة عمتها يشوبها قليل من الحسد.

لم يستهو المشي الأم من قبل قط، بالكاد غادرت الشقة في شيكاغو. تحاول عفاف تصور القرويين وهم يشاهدون الأم برهبة وهي تتجول في طرقهم الترابية مثل ابنة ضالة عادت من حياة فاشلة. بالنسبة إليهم، هي حكاية تحذيرية مفادها أن أمريكا ليست أرض الأحلام، ولكنها أحد الكوابيس، مكان حيث تتعرض طفلتك للاختطاف، وزواجكِ للتدمير.

«اجلس يا بابا». تسحب عفاف له كرسي المطبخ. يميل بجذعه باتجاه أيمن، ويربت بيده على شعر حفيده.

«كيفك (كيف حالك) يا حبيبي؟»

«سلام يا جدي محمود». يقبّل أيمن ظهر يد الأب كما علّم بلال ابنيهما أن يفعلا. «لا أريد الذهاب إلى المدرسة غدًا».

تقول عفاف: «بلى، ستذهب».

يخفض الأب نفسه ببطء فوق الكرسي. «أين حفيدي الآخر؟»

يقول بلال: «ها هو ذا».

يدنو أكرم منه.

«أهـلًا! أهـلًا!». يُقبِّل الأب رأس أكـرم ويمسـك بـه لحظـة أطـول، وتتحـرك شـفتاه بالدعـاء. يُخـرج مسبحته، ويده الأخـرى تعبث بلحيته القصيـرة. «كنـت فـي المستشـفى مـع بنياميـن. مسـكين. حالتـه سيئة جدًّا».

السيد باركـر، صديـق الأب القديـم، يحتضـر. تتذكـر، منـذ سـنوات طويلـة، جلـوس الرجـل الضخـم مثـل دب فـي مطبـخ والدتهـا، يتجـادل حـول العنصريـة الممنهجـة.

«ليمنحـه اللّه القـوة. كيـف حـال زوجتـه أشـانتي؟ لـم أرهـا فـي المسـجد».

«يقضـون كل لحظـة مـع بنياميـن فـي المستشـفى. سـيكونون سـعداء برؤيتـك يـا حبيبتـي».

«إن شـاء اللّه أزورهـم الأسـبوع المقبل».

يستدير الأب إلـى بلال. «كيـف حـال والدتكَ؟»

«الحمـد للّه يـا عمـي. بـدأت غسـيل الكلـى». غصـة تتخلـل نبـرة صـوت بـلال، بالـكاد غيـر محسوسـة إلا إذا كنـت تسـتمع مـن كثـب. يرافـق والدتـه إلـى كل جلسـة عـلاج، ويظـل معهـا مـدة أربـع سـاعات، ثـلاث مـرات فـي الأسـبوع. يتحـدثـان بلغتهمـا الأم، ويتذكـران مـا كان عليـه الحـال قبـل الحـرب. ينقـر علـى لوحـة مفاتيـح كومبيوتـره المحمـول، لتقييـم المحافـظ الماليـة لشـركته فيمـا يتدفـق دم والدتـه عبـر الأنابيب، طنيـن ثابـت داخـل الغرفـة الصغيـرة فـي مركـز غسـيل الكلـى. ممرضـة تجلـس علـى الجانـب الآخـر مـن آلـة ضخمـة، تراقـب الإجـراء الطبـي.

لا تـزال والدتـه تغنـي لأكـرم فـي وقـت القيلولـة أغنيـة شـعبية مـن البلـد الـذي فـرت منـه إلـى الأبـد مـع طفليهـا:

حـان المغـرب، وغـابت الشـمس، اللمعـان باقٍ علـى وجهـك. حـان المغـرب، ووجهـك يلمـع أجمـل بسـبب الشـمس. أود أن أدفـئ نفسـي فـي جمـال وجهـكِ.

يلتفت الأب إلى عفاف: «هل سمعتِ من مجيد؟»

«نعـم. إنـه علـى مـا يـرام. لا يـزال يعمـل علـى قضيـة التسـوية لصالـح شـركة خدمـات الطعـام تلـك». تتحـدث عفـاف إلـى شـقيقها مـرة فـي الأسـبوع، وتشـتبه فـي أنـه قـد لا يتصـل بهـا إن لـم تبـادر هـي بالمحادثـة.

يسـطع السـؤال الحقيقـي فـي عينـي الأب. «هـل تحدثـت مـع أمـكِ؟» يمسـك بمسـبحته متظاهـرًا بعـدم المبـالاة.

«البارحـة». تصـب لـه عفـاف كأسًـا مـن عصيـر الرمـان. «كانـت هنـاك مظاهـرة بعـد صـلاة الجمعـة. قُتـل اثنـان بالرصـاص».

«لا، لا، لا. الله يرحمهمـا. عسـى الله أن يمنـح أهلهـم الصبـر والسـلام». ينظـر الأب إليهـا، تواقًـا إلـى بعـض الرسـائل الشـخصية، شـعور مـن الأم بأنهـا تفتقـده أيضًـا.

قالـت لـه عفـاف: «ماما ترسـل تحياتهـا»، رافضـة أن تخدعـه برسـائل كاذبـة. ربمـا يكـون مـن القسـوة حرمـان رجـل عجـوز مـن فرحـة ضئيلـة لكـن عفـاف تعتقـد أنهـا ليسـت أكثـر قسـوة مـن أمهـا التـي تركـت خاتـم زفافهـا وراءهـا قبـل سـفرها فـوق منضـدة زينتهـا. كانـت عفـاف قـد أخفتـه قبـل أن يكتشـف الأب أن أمهـا تخلصـت منـه.

يخفـض رأسـه إلـى مسـبحته لكـن ليـس قبـل أن تلاحـظ أن عينيـه

تعتمان، وكتفاه تتدليان بسبب لا مبالاة الأم. تظل الأم بعيدة كما كانت دائمًا، يفصلها عنهم محيط شاسع، وعقلها المسموم. قد لا تتعرف أبدًا بابني عفاف، قد لا تعرف أبدًا أن لكل منهما غمازات في خديه، أو أن أيمن دائمًا ما ينام على ظهره أو أن أكرم يتلعثم في الكلام عندما يكون متحمسًا. ولن تعرف أبدًا أن عفاف تعلمت تحضير وجبات الطعام من كتب الطبخ ومن وصفات تتبادلها النساء من المركز بعد محاضرات الحديث الشريف. حظيت عفاف بحياة طيبة دون توجيه من والدتها، ومع ذلك فإن غياب الأم يلوح في الأفق كأنه شخص ممسوح من صورة، تاركًا مكانه مساحة فارغة تتجذب إليها عيناك دائمًا داخل الإطار.

تغير عفاف الموضوع. «بابا، كنا نتحدث عن الذهاب إلى الحج. أعتقد أننا يجب أن نؤجله حتى العام المقبل».

يشير الأب بمسبحته. «لمَ التأجيل؟ هل أنتِ قلقة بشأن الأولاد؟»

عفاف أصغر مسلمة تسافر إلى الحج هذا العام من دائرة النساء، وقد فوجئ بعضهن بأنها ستترك وراءها ولديها الصغيرين. خاضت هي وبلال محادثات طويلة حول هذا الموضوع، واتخذا قرارهما الصيف الماضي. يريدان تحقيق هذا الركن المهم في الإسلام وهما صغيرا السن نسبيًا ويتمتعان بصحة موفورة.

يقول بلال: *من يدري ما قد يجلبه العام المقبل؟* يتفهم زوجها جيدًا كيف، في نزوة محفوفة بالأخطار، يمكن أن تجبرك الحياة على الفرار من بلدك، بعد أن يُعدم والدك بوحشية. تعلمت عفاف منه أن لا تخطط أبدًا لما هو بعيد جدًا. وأن تُقدّر كل لحظة يقظة

بغض النظر عن المشقة التي تصاحبها. معًا شاهدا طائرتين تندفعان مخترقتين مركز التجارة العالمي، النيران التي اندلعت فورًا بالمبنى كشفت لهما كم أن الحياة قصيرة على نحو خطِر.

تجلس عفاف مقابل الأب إلى المائدة، وتقدم إليه الطعام أولًا. «أنت من تثير قلقي يا بابا. هل أنت متأكد من أنك تريد الحج مرة أخرى؟»

في المرة الأولى التي خطط فيها والدها لأداء فريضة الحج، انغمس في الصلاة، وقضى ساعات في قراءة القرآن والدعاء، وكانت الأم تحدق إليه من مكان وقوفها أمام حوض المطبخ. أصبحت مسبحته ملحقًا جديدًا في يده، لا تفارقها أبدًا. خرزاتها في دورة دائمة عبر إبهامه وأصابعه الأخرى. يبدو أن احتمالية أداء حجة ثانية تقدم له بعض العزاء. كان الضوء القديم في عينيه يومض من وقت إلى آخر.

يرفع الأب يده حتى يمنعها من غرف ملعقة كبيرة أخرى ممتلئة بالأرز في طبقه. «يجب أن أذهب للحج. عندما لا يستطيع مسلم القيام بالحج بنفسه، يمكن أن يذهب آخر مكانه». هو ذاهب للحج نيابة عن الأم، رغم أنها لم تطلب منه ذلك.

عندما عاد الأب من الحجة الأولى، كانت الأم تقف في زاوية غرفة نومهما في حين يفرغ حقيبته، ويسحب زجاجات صغيرة من ماء زمزم وصناديق مجوهرات من الفسيفساء مطعمة بعرق اللؤلؤ. وسلم كل هدية لعفاف التي جمعتها بين ذراعيها. كانت الأم تضحك بازدراء.

وقد رجع أيضًا إلى المنزل مصابًا بعدوى في المسالك البولية. كم يمكن أن يحتمل جسده البالي عناء الحج بعد الآن؟

«أعلم أنه يمكنك الذهاب مكان شخص آخر يا بابا». تريد أن تضيف، *لكن ماما لا تريد منك أن تفعل هذا نيابة عنها -لا تريدك- ألا ترى ذلك؟* بدلًا من ذلك، تجادل: «لكن الله يتغاضى عن مثل هذه الأشياء عندما يعلم ما في قلبك- نيتك. أديت فريضة الحج بالفعل».

«وأنا أخطط للحج مرة أخرى معكِ ومع ابني». يربت على ذراع بلال الذي ينظر إلى عفاف ولسان حاله، *أخبرتكِ بذلك*.

«التوقيت هو المشكلة يا بابا. أعتقد أنه ليس عامًا جيدًا». تندم من فورها على اختيارها الكلمات لكن الأوان قد فات.

«عام جيد؟ كيف لا يكون عامًا جيدًا إن كان جسد المرء يقوى على حمله إلى ذلك المكان المقدس؟»

«ليس هذا ما قصدته، يا بابا. أنا-».

يرفع مسبحته. «لا شيء يمكن أن يقف في طريقنا إلى الله. لا يمكننا الاستسلام للخوف يا حبيبتي. عانى المسلمون أسوأ ما في تاريخ البشرية. لا يمكننا أن نفقد الإيمان».

أيمن وأكرم غافلين عن حديث الكبار، ينظر كل منهما إلى الآخر بوجه أبله. ينقران الأطباق بالملاعق حتى يسكتهما بلال.

يجهل الأب بشدة مدى التغير الذي طرأ على العالم. يعتقد أنه لا يزال بإمكانه التحدث إلى الغرباء عن الله والنبي، وسوف يستمتع الأمريكان بهذا الرجل العجوز الذي يتحدث بلكنة، ويروي آيات من نص غامض بالنسبة إليهم. الإسلام الذي شاهدوه على

التلفاز دين خطِر يخترق المباني بالطائرات دون التفكير في حياة البشر. تساءلت أيضًا، كيف وصل هؤلاء الرجال إلى طريق الخراب هذا. ناقشت وسائل الإعلام الليبرالية فشل سياسة الولايات المتحدة. وأن هذا العمل الشنيع يمكن فهمه على الأقل بطريقة معينة. لكن لا يزال الأمر مستعصيًا على فهم عفاف. تقرأ القرآن ذاته، وتسجد في الاتجاه نفسه نحو الكعبة، وتنطق الآيات باللغة نفسها، ومع هذا لا يزال لا يوجد توافق بين إسلامهم وإسلامها.

تتكئ عفاف على كرسيها. يتولى بلال تقديم الطعام، الولدان يمدان أطباقهما بفارغ الصبر. يمكنها أن ترى أنها لا تصل إلى أي نقطة اتفاق مع الأب. جزء منها يخشى أن يكون للحج أثر لا رجعة فيه على جسده الضعيف؛ جزء آخر سعيد لأن الثلاثة سيكونون معًا في أقدس البقاع على وجه الأرض.

تتمنى عفاف فقط أن يرافقهم مجيد في الرحلة. يبدو أنه يتحرك أكثر فأكثر بعيدًا عنها وعن أبيهما. أولًا إلى كلية الحقوق في جامعة سانت بول، ثم إلى شركة في إنديانابوليس. والآن وقد قبِل عرضًا من شركة في سكرامنتو، سوف ينتقل مرة أخرى عبر البلاد، رجل أعزب، بلا زوجة وأطفال.

لم يعد شقيقها نفسه تمامًا بعد الليلة التي اكتشفوا فيها الأم في البانيو، جسدها يتمايل عاريًا في الماء المليء بالقيء. يلوم أباهما، عفاف تعرف ذلك، وربما يكون مستاءً من عفاف أيضًا، كل هذه السنوات.

قال لعفاف بمرارة خلال إحدى مجادلاتهما الكثيرة، *الدين لا يجعل الواقع يختفي*. أجابته عفاف: «لكنه يحمينا من القبح

أحيانًا. نحن بحاجة إلى ذلك يا مَج. حتى لو لم يكن دائمًا. أليس هذا ما كانت تفعله الحضارات منذ فجر التاريخ؟ منذ المايا والإغريق؟ الدين ليس وهمًا جماعيًا كما تسميه بل أكثر غريزة بشرية بدائية. الدين يخفف المعاناة يا مَج».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتمكن فيها من إفحام أخيها بالكلام. لكن ليس لوقت طويل.

تحداها: «لم يستطع الدين مساعدة ماما. والآن هذا الهجوم الذي شنه من يسمون أنفسهم بالمسلمين». بدا رأي مجيد مُقنعًا بشكل مرير.

تقطِّع عفاف بعضًا من لحم الضأن من أجل أكرم، وتشاهد ولديها يتنافسان على الظفر باهتمام جدهما، ولا يسمحان له بالخوض في أي موضوع جانبي. يبتسم الأب ويومئ رأسه، يمضغ ببطء متظاهرًا بالأكل. بعد العشاء، يأخذ كل صبي بإحدى يدي والدها الذي يسمح لهما بإرشاده إلى غرفة العائلة، حيث يعزف على أوتار عوده. من المرهق جدًا حمل العود ذهابًا وإيابًا من شقته لذا يكتفي الأب بتركه في منزلها، والعزف فقط لطفليها هذه الأيام. العود إحدى اثنتين من القطع الأثرية التي تعود إلى أيام طفولتها: مشغل الأسطوانات يقبع فوق حامل في غرفة العائلة، وكومة من الأسطوانات القديمة لا تمس تحته. في بعض الأحيان، تشغل عفاف أغنية «شَعر» وهي تمسح أرضية المطبخ أو تطوي الغسيل، مستمتعة بالكلمات المثيرة التي كانت هي ومجيد جاهلين لبراءتهما بمعناها في طفولتهما.

يكدس بلال الأطباق في حوض المطبخ، ويمسح المائدة. يلمس

أسفل ظهرها وهي تقف أمام حوض المطبخ وتجلي الأطباق. ترفع وجهها باتجاهه فيقبلها، شفتاه ناعمتان مثل شعيرات فرشاة رسم.

أغنية عن طائر صغير تسري داخل المطبخ:

سقطت دمعة على خده. أجنحته مطوية تحته،

هبط على الأرض وقال، «أريد أن أمشي، لكني لا أستطيع».

إنها الأغنية نفسها التي غناها الأب لها ولمجيد، أغنيتهما المفضلة لمارسيل خليفة. ينقر بابا على الأوتار بريشته، وينصت أيمن وأكرم باهتمام، ويبتسمان لجدهما من مجلسهما على الأرض. تتجرف الموسيقى إليها، وتبقى كل نغمة مدة أطول في أذنيها، اللحن أبطأ، وأكثر حزنًا. الأغنية شجية لكنها لم تولِها انتباهًا شديدًا إلا بعد أن سمعته يغنيها لأول مرة لأيمن. الآن تبدو كأنها أغنية جديدة كليًّا مع أنها كانت مألوفة دائمًا. الأمر فقط أن عفاف لم تكن تستمع بإنصات من قبل.

2

تنهي عفاف وبلال إجراءات كتابة وصيتهما، ويرسلانها بالفاكس إلى مجيد. في حال عدم رجوع عفاف وبلال، ستنتقل حضانة ولديها إلى إسما شقيقة بلال، ستُباع جميع ممتلكات عفاف المادية وتحوَّل إلى أموال نقدية ستودع في حسابهما الائتماني الذي أعده بلال بعناية. مهرها الذهبي من بلال - من ضمنه زوج جميل من الأساور، وقلادة على شكل قلب، ومجموعة أقراط -سيُقسَّم بالتساوي بين ولديها، وستسلم ملابسها إلى جمعية نور للأخوات المسلمات، وكتبها إلى مكتبة محلية. مشغل الأسطوانات القديم المحبوب سوف يتشارك الولدان ملكيته- سيظل مع أيمن ستة أشهر، ومع أكرم ستة أشهر. كان شقيقها مجيد قد تنازل عن حقوقه فيه منذ مدة طويلة، أثر آخر مهمل من ماضيه. وعوضًا عنه، تقدم إليه خاتم زفاف أمهما وقرطين ذهبيين على شكل لوزتين نادرًا ما تقلدتهما. يمتلك بلال ساعة جيب ذهبية كانت ملكًا لجده الأكبر، خطوط زخرفية متعرجة منحوتة على غلافها الواقي. الشيء الوحيد الذي تمكن من الاحتفاظ به عندما فرت عائلته من البلقان.

كان هذا الجزء أسهل مما تخيلته عفاف؛ حصر ما يملكون وتحديد قيمته وتقسيمه. لكن ماذا عن الأشياء الهامة حقًّا؟ كيف يمكن تضمينها؟ لا توجد مساحة في الوصية لكيفية تربية ولديها على أن يكونا كريمين وقويين، أو عدد المرات التي يجب معانقتهما في اليوم الواحد حتى يتمكنا أخيرًا من الانسحاب

بعيدًا والاعتماد على نفسيهما، أو كيفية مراقبتهما بحثًا عن أدنى أثر لحسرة القلب أو الخوف -بغض النظر عن مدى محاولتهما إخفاء ذلك- أو كيفية التعامل مع كل من يحبانهم باحترام وعاطفة مستمرة.

* * *

في المركز الإسلامي، تتنقل الأخت نبيهة داخل غرفة النساء، تهيئهن للحج. عيناها حادتان ومنتبهتان، مثل عيني معلمة.

ما الذي يتبقى لك بعد أن تتدبر أمر وصيتك وديونك؟ المغفرة. يجب أن تطلب المغفرة من أي شخص ظلمته.

طلبت عفاف مغفرة أبيها، رغم أنه تجاهلها، وأمسك وجهها برفق، وقبّل جبهتها. *أنت أفضل بناتي.*

لم تكن جيدة بما فيه الكفاية مع أمها، ولم تستطع الارتقاء إلى قمة إرضاء والدتها -حتى بعد رحيل ندى طيلة كل هذه السنوات.

وماذا عن الغفران للآخرين؟ تريد أن تسأل الأخت نبيهة. هل حان الوقت لها لتغفر لأمها؟ هل كان الأمر هامًا بعد الآن؟ استأصلت الأم نفسها من بينهم مثل المنجل الذي يقطع إصبعًا، مكان البتر ينزف لمدة طويلة قبل ترقيع الجرح بجلد جديد، وظهور النسيج الندبي -الدليل الوحيد على وجودها في المقام الأول.

اتصلت بها عفاف في اليوم السابق على رحلتها وأخبرتها الأم أن اثنتين من جاراتها سيؤديان فريضة الحج أيضًا.

تقول عفاف: «الله يحفظهما».

«نعم. إنهما شابتان إلى حد ما، رغم أن أم سمير لديها بالفعل ستة أحفاد». لا تسخر أمها من ذلك، وتتساءل عفاف إن كانت العودة إلى الوطن قد خففت من نظرة والدتها إلى الدين. ربما عندما تسمعين نداء المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم، فإنكِ أخيرًا تلينين مع جاراتِك المحجبات اللاتي يلححن عليها لتناول الشاي. تبدئين رؤية الأشياء من منظور مغاير. أو ربما تغدو خسائركِ أخيرًا ألمًا محتملًا.

«اغفري لي يا ماما». الكلمات تخرج من فم عفاف. على ماذا تطلب مغفرة والدتها؟ على عدم قدرتها أبدًا على أن تحل محل أختها؟ بعد ستة وعشرين عامًا، بات وجه ندى يظهر بوتيرة أقل لعفاف، وأحيانًا يبرز من زاوية يوم طويل مثل ظل ممتد على الأرض. لم تعد ترى أختها في الأماكن العامة، وتتساءل إنْ كان ذلك بسبب عزوفها عن البحث عنها. لكن الأم لم تستطع ترك ندى ترحل.

أمها تتنحنح على الطرف الآخر للخط: «لترجعي بأمان إلى طفليكِ يا حبيبتي».

تغلق عفاف الخط، وتفتح مفكرة أدعية صغيرة حصلت عليها من دائرة النساء، دفتر يضم كل الأدعية التي يردن منها أن تقولها نيابة عنهن -حتى يتعافى آباؤهن بسرعة من جراحة، ومن أجل إخوانهن الذين يعانون مشكلات قانونية، ومن أجل أطفالهن خلال هذا الوقت المشؤوم. سوف تدعو في مكان يُعتقد أنه الأقرب إلى أذن الرب.

كما ستدعو عفاف بصدق من أجل والدتها. هذا كل ما تبقى لتفعله.

قبل توجه عفاف وبلال والأب إلى مطار أوهير الدولي، يودِّعون الولدين في منزل إسما. سرعان ما يسرق أطفال أخت زوجها انتباه ابنيها، وينسلان من بين ذراعيها للذهاب واللعب معهم. الدموع الوحيدة التي تُذرَف هي دموع عفاف.

تحتضنها إسما بشدة. «فلتدعي لأمي، يا عزيزتي. سيعتني أخي بكِ وبأبي مجيد. لا تقلقي».

تومئ عفاف برأسها وهي تمسح عينيها بكم معطفها. تتبادل إسما وبلال ثلاث قبلات على الخدين، لفتة رقيقة يشاركانها مع والدتهما. يقرِّب أخته منه في عناق طويل.

«الله معكم». تقول إسما وهي تلوح لهم من الممر أمام البيت.

تنسحق الثلوج تحت إطارات سيارة التاكسي في أثناء ابتعادهم تاركين وراءهم أشجار القيقب العارية والسماء الرمادية. في غضون عشرين ساعة، سيكونون في الصحراء التي سافر النبي عبرها ذات مرة لإلقاء خطبته الأخيرة، *خطبة الوداع*. مكان عتيق لم تشاهده عفاف إلا في الكتب وعلى شاشة التلفاز.

صالة المغادرة الدولية في مطار أوهير مزيج من المواطنين والأجانب؛ ذوي بشرة سمراء، وأعين زرقاء. نساء يرتدين الساري الملون تحت معاطف شتوية، ورجال يرتدون الداشيكي[1] وقبعات منقوشة. مزيج من الموضات العرقية والغربية.

ثمة زمرة من المسلمين يودعون أبناءهم البالغين بالدموع. المنظر يُبهج قلبها. كانت تخشى المطار. وكان من المريح رؤية

---

(1)الداشيكي: زي شائع في غرب إفريقيا، وهو ثوب ملون يغطي النصف العلوي من الجسم (المترجم).

الحجاج الآخرين. في أثناء مرورها بهم، تلمح عفاف الغرباء البيض وهم يحدقون في هذا المشهد. هل يمكنهم ملاحظة نغمات الحب التي ترن في التمنيات والبركات التي تتبادلها هذه العائلات من أجل رحلة آمنة للحج؟ أم أنهم يرون فقط إرهابيين محتملين يقفون أمامهم؟

يقتربون من طابور الأمن. تلوح ضابطة إلى عفاف. «ستحتاجين إلى خلع ذلك» -تشير إلى حجاب عفاف- «ومعطفكِ». عفاف تلمس سحّاب عباءتها، زرقاء ملكية، حبات اللؤلؤ الصغيرة تزين الحاشية والأكمام.

يتقدم بلال خطوة إلى الأمام. «آنسة، هذا سخيف».

«إنها سياسة إدارة أمن النقل. لو رفضتِ خلع هذه الملابس، فسنحتاج إلى تفتيشك على انفراد، يا سيدتي».

يقول بلال بصوت عالٍ: «هل تعتقدين أنها تخفي شيئًا تحت حجابها؟» أصبح الناس من حولهم فجأة أكثر يقظة وتململاً. *هل يهاجمنا هذا الرجل؟ تستطيع* عفاف أن ترى السؤال يتبدى من حواجبهم المقطبة.

تضغط على يد بلال، تهدئه، وتريد إنهاء المشهد المشحون الهادئ من حولهم. «لا بأس. سأراكَ على الجانب الآخر، حسنًا؟ اعتنِ بوالدي».

قال لها الأب: «لا تقلقي يا حبيبتي. سننتظرك».

تُقاد عفاف إلى منطقة صغيرة مؤطرة بحواجز طويلة. تسمع حركة المرور المنتظمة للأشخاص على الجانب الآخر من الحواجز، تحميل الأكياس الصغيرة والأجهزة الإلكترونية على

الأحزمة الناقلة، وعصي أجهزة الكشف عن المعادن تطلق صفيرًا.

«من فضلك تجردي من ثيابك كلها بحيث لا تبقى سوى ملابسك الداخلية».

تتجرد عفاف من ثيابها وصولاً إلى قميصها التحتي الطويل. تقف امرأة جميلة أمامها، وحمالة صدرها القطنية البيضاء وسروالها التحتي يلمع في مقابل بشرتها السوداء. تنظر إلى عفاف، عيناها ساكنتان. تغلق عفاف عينيها فيما تمرر ضابطة أخرى جهاز الكشف عن المعادن فوق جسدها. يحترق وجهها من الإذلال، ويتجمع العرق بين ثدييها. هذا لا يشبه زيارة مكتب الطبيب لإجراء مسحة عنق الرحم السنوية، أو الانحناء وسط المسلمات في الحمام المشترك حتى تتوضأ. فجأة استولى عليها الرعب من حقيقة أنها عارية. ماذا لو سقطت الحواجز؟ مئة غريب سيحدقون إليها، ويشيرون إلى عريها الجزئي.

تستعجل عفاف للضابطة: «سأمرض». يرتفع القيء في حلقها. تنحني محاولة التقيؤ في سلة مهملات ناولها أحدهم إليها بسرعة.

«لا داعي للشعور بالتوتر، يا سيدتي». تقول الضابطة بنبرة مشوبة بالسخرية. تغمض عفاف عينيها مرة أخرى مع تقلُّب معدتها.

عندما تتمكن أخيرًا من ارتداء ملابسها مرة أخرى ويسمح لها بوضع حجابها، تكون عفاف مستنزفة جسديًا، قطرات من العصارة الصفراوية تدغدغ حلقها. أخرجتها الضابطة من غرفة التفتيش المرتجلة، وتلمح على الفور بلال وأباها. يلوحان

إليها، وتلاحظ مزيدًا من النظرات الفولاذية الموجهة إليها فيما يحتضنها بلال. تعض شفتها وترفض البكاء.

«هل أنتِ بخير؟»

تومئ برأسها وتجبر نفسها على الابتسام. «أحتاج إلى استخدام دورة المياه».

تدور حول عاملة نظافة تمسح أرضية الحمام، وترش الماء البارد على وجهها. تلمح امرأة بجانبها تحدق في انعكاس عفاف في المرآة، دون أن تبتسم. تبادلها عفاف التحديق بتحدٍّ. المرأة تشيح بعينيها بعيدًا.

وتدعك يديها بالصابون بجلبة. عندما تمر خلف عفاف، ترش المرأة حجابها بالماء.

تنفعل عفاف قائلة: «عار عليك. ماذا فعلت لكِ؟» *ماذا فعلت بأي منهم؟ أليست من مواطني هذا البلد مثلهم؟ كم هي من السذاجة بحيث تعتقد أنها تنتمي إلى هنا حقًا -مع حجابها ودونه. قبل هجوم إرهابي وبعده.*

«كلكم أشرار، أيتها العاهرة». كلمات المرأة الفظيعة تبقى معلقة في الهواء بعد مغادرتها مثل خطوط تركتها ممسحة عاملة النظافة القذرة عبر الأرضية المبلطة.

النساء الأخريات يشطفن أيديهن بسرعة، ويدفعن أطفالهن الصغار إلى الخارج، ويجرجرن أمتعتهن بعيدًا عن عفاف، ولا ينظرن في طريقها. تضحك إحداهن بصوت مكتوم قبل أن تعلق باب مرحاضها.

تتكئ عفاف على المرآة، وتضغط جبهتها في مقابل الزجاج البارد. تريد أن تسأل هؤلاء الغرباء كيف أنها -امرأة، وأم وزوجة، ومعلمة- لو أنهم سألوها فقط- يمكن أن تشكِّل تهديدًا عليهم. كيف يمكنها أن تزيل خوفهم منها؟

تركت دموعها تسيل.

«هل أنتِ بخير يا آنسة؟» عجوز بيضاء تربت على كتف عفاف.

«أنا بخير».

تدير المرأة الصنبور بجانبها. «يمكن للبشر أن يكونوا فظيعين». تبتسم لعفاف في المرآة بلطف.

تسألها عفاف: «هل ستكون هذه هي الحياة من الآن فصاعدًا؟»

المرأة صامتة، تعطي عفاف هزة واهنة برأسها، وتجفف يديها.

3

أول مـرة شـعرت فيهـا عفـاف بوجـود أيمـن فـي أحشـائها كان أشـبه برفرفـة أجنحـة رقيقـة. إنسـان صغيـر كان يتشـكَّل بداخلهـا، يمتص موادهـا الغذائيـة، وينمـو بهـدوء. كان ألـم ولادتـه غيـر عـادي، ثـم علـى الفـور -بأعجوبـة- توقـف الوجـع مـا إن انزلـق خارجهـا، رأسـها خفيـف مـن نشـوة السـعادة.

لكـن فـي هـذا المـكان، لا توجـد تجربـة أرضيـة هيـأت عفـاف لمدينـة مكـة المقدَّسـة، صـدام رائـع بيـن القِـدم والحداثـة. فنـادق ضخمـة تتخلـل سـماء الصحـراء، وسـيارات تندفـع علـى امتـداد الطـرق السـريعة المزدحمـة، يقودهـا رجـال، ونسـاء يرتديـن نقابًـا أسـود، فقـط أعينهـن تحـدق فـي عفـاف. يقـف بـرج سـاعة عمـلاق، آليتـه الموقوتـة مصممـة لتـدوم مئـة عـام، خـارج المسـجد الحـرام، حيـث كاد إبراهيـم يضحـي بابنـه إسـحاق قبـل أن يتدخـل مـلاك مـن عنـد الله.

يعـج المسجد الحـرام بـآلاف وآلاف مـن الرجـال والنسـاء مـن كل مناحـي الحيـاة، ومـن كل ركـن وحـدب فـي الكوكـب، يتحركـون فـي اتجـاه واحـد، عكـس اتجـاه عقـارب السـاعة، أجسـاد متجمـع بعضهـا بالقـرب مـن بعـض فـي موجـة بيضـاء مثـل السـحب عبـر السـماء. يتجاهـل الجميـع رفاهيـة العالـم الخارجـي مؤقتًـا.

فـي فندقهـم، يسـتحمون ويرتـدون مـلابس الإحـرام قبـل دخولهـم موقـع الكعبـة المشـرفة داخـل المسـجد الحـرام. يرتـدي الأب وبـلال ثيابًـا بيضـاء ملفوفـة علـى كتـف واحـد. ترتـدي عفـاف حجابًـا قطنيًـا

وعباءة بيضاء، ومفكرة الأدعية داخل حقيبة صغيرة مثبتة بإحكام فوق وركها. تحرص هي وبلال على عدم التلامس، متجنبين أي اتصال جسدي، مع أن أبدان الغرباء تحاوطهما من كل اتجاه.

جميعهم يرددون التلبية:

لبيك اللهم لبيك.. ها أنا ذا في خدمتك يا الله.. ها أنا ذا هنا.

يبتسم لها بلال، والدموع تترقرق في عينيه، في حين تشوش دموعها رؤيتها عندما يمتزج جسداهما في الحشد الهائل الذي يطوف حول الكعبة. كل ضائقة المطار -الكراهية، العداوة غير المستحقة التي امتصَّتها من الركاب قبل أكثر من اثنتي عشرة ساعة- تتسرب خارجة من وعيها. لأول مرة في حياتها تنتمي. هنا بين الحجاج الذين يهتفون بدندنة محسوسة، رافعين روح عفاف المعنوية؛ وجدت مكانها.

يتأبط الأب ذراع بلال، عكازته تبقيه ثابتًا ومنتصبًا. تتحرك عفاف وراءهما، متخيلة سيدنا إبراهيم وابنه يشيدان بيت الله الأسود البديع. لأكثر من عقدين من الزمن، كانت تولي وجهها شطره من الغرب في كل مرة تصلي فيها، من على مبعدة أحد عشر ألف ميل في منزلها في تيمبست بإلينوي. بطنها يرتجف في مذلة ويسري الوخز في جسدها كله. ليسوا قريبين بما يكفي للمس الكعبة وتقبيلها، فيرفعون أيديهم تقديرًا:

«الله أكبر! الله أكبر!»

للحظة، قبض الخوف على عفاف: ماذا لو أغمي عليها وداس الحجاج الآخرين على جسدها؟ لقي مئات من المسلمين مصرعهم

خلال رحلة الحج، ونشبت كثير من التدافعات، واشتعلت النيران في خيام مؤقتة. تغمض عينيها وتتنفس بعمق، وتمحي الأفكار المتشائمة من دماغها. هي الآن في معية الله. تركز بشدة على الصلاة: *بسم الله.. الله أكبر ولله الحمد... بسم الله.. الله أكبر ولله الحمد*. ثم تفتح عينيها، وترفع يديها إلى السماء المشرقة، وتدعو لوالديها، مجيد وعصمة وحماتها، لماما وندى، الدموع تنهمر على وجهها.

أمامها، ربط شاب حبلًا حول جسده وجمع داخل نطاقه مجموعة من النساء المسنات -حلقة من الحبل تلتف حول خصر كل منهن- يقودهن إلى الأمام. مشهد كان من الممكن أن يسخر منه مجيد لكن الحجيج غافلين، تشغلهم عبادتهم.

في اللفة الثالثة من الطواف، يمكنها أن تميز أن الأب منهك. رأسه الأصلع يتلألأ بالعرق. تبرز عظمة ترقوته من ثوبه الأبيض. يتبقى لهم أربع لفات أخرى لإنهاء الطواف، ثم سيتجهون إلى منى، حيث يمكنهم الراحة والتأمل حتى شروق الشمس. بلال صبور وطيب، يلف ذراعًا حول كتفي والدها، ويتركه يتكئ عليه، يمتص بلال وزنه.

تكمل عفاف اللفة السابعة وتستريح بعض الوقت. تبدأ الساعات في التحول والتمدد؛ حركة الشمس في السماء الدليل الوحيد على مرور الوقت. يسعون سبع مرات بين الصفا والمروة، المسار الذي سلكته هاجر زوجة إبراهيم بحثًا عن الماء لابنها الرضيع. يظهر أمامهم بئر زمزم فيشربون حتى زوال عطشهم. تتذكر قوارير الماء الصغيرة التي أحضرها الأب إلى المنزل من حجته الأولى.

بعد ساعات، تنقلهم حافلة مكيفة إلى جبل منى، مدينة خيام حقيقية حيث يحتشد الرجال والنساء من أجل الدعاء والتأمل. تشعر عفاف بالغثيان في حين تسير الحافلة على طول طريق مزدحم بكثافة. وتتناول رشفات من ماء زمزميتها البلاستيكية. تتفقد أباها الجالس بجانب بلال. يبدو وجهه شاحبًا.

قالت له: «بابا، ابق رطبًا»، تعطيه إحدى زجاجات المياه العذبة التي يقدمها سائق الحافلة للركاب وهو يقول. «سنكون هناك قريبًا وسيمكنكم الراحة».

يدعو الأب: «الله يرضى عليكِ. جزاكِ الله كل الخيرات». يبتسم بضعف قبل أن يريح رأسه على المقعد المرتفع المبطن، ويغمض عينيه. حتى هذا يبدو أنه يتطلب منه مجهودًا.

ترمي عفاف بلال بنظرة قلقة. يهز رأسه وتتحرك شفتاه بالدعاء.

خارج نافذة الحافلة، تراقب عفاف حجيجًا يسيرون على امتداد الطريق. من بعيد، يعلو نداء المؤذن -صوت بشري عميق جدًا- مقلقًا بقدر ما هو مُرِيح. عفاف منزعجة من ارتداد صدى الصوت في هواء الصحراء المفتوحة. يذكِّر ذلك عفاف بالألحان الشجية التي يعزفها الأب على عوده. تقرر بالفعل أن ذلك سيكون أكثر ما تفتقده بخصوص هذا المكان المهيب.

يعبرون الجبال، والشمس تتدلى فوقهم في كبد السماء. يحين موعد صلاة العصر، عندما يبدأ النهار الانحسار.

منطقة جبل منى مغطاة بالخيام المكيفة. المولدات تعمل أربعًا وعشرين ساعة يوميًا خلال هذا الموسم الخاص. بعد

الحريق المدمر عام 1997، استبدلت الحكومة السعودية بالخيام القطنية خيامًا مصنوعة من الألياف الزجاجية والتيفلون، ومعسكرات بأكواد لونية وممرات مرصوفة بينها. يرافق بلال الأب إلى معسكر الرجال، وتنضم عفاف إلى رفقة مكونة من خمسين امرأة، غريبات تمامًا عنها، أصبحن رفيقاتها على مدار الليل.

داخل خيمتهن، يشعرن جميعًا بصفاء النفس والاسترخاء، مع أن السكن ضيق عليهن، مع وجود مراتب أرضية مكتظة جنبًا إلى جنب، ومساحة صغيرة للتنقل. يؤدين صلاة العشاء، آخر صلوات اليوم، ويتأملن في صمت.

هل مضى يومان فقط على احتضانها أيمن وأكرم؟ هل مرت خمسة أشهر فقط منذ اصطدام الطائرات بالمركز التجاري العالمي في نيويورك؟ في هذه المنطقة، يبدو أن الأفق يتسع إلى ما هو أبعد من حدود القياس البشري. لا يوجد حديث عن المال أو السياسة، عن الحرب أو المجاعة. يغلف الحجاج حجابٌ من الروحانيات يقيهم من مآسي العالم ومشكلاته.

تستلقي عفاف على مرتبة ناعمة بجوار امرأة قادمة من ملبورن بأستراليا، سودانية الأصل -لبشرتها لون العرقسوس- كان بائعو العرقسوس الجائلون يبيعون مشروباتهم في البازار خارج فندق عفاف عند وصولهم. تتحدث المرأة العربية بطلاقة. «إن شاء الله ينعم الله عليكِ بحج مُيسَّر».

«إن شاء الله لكِ أيضًا». عفاف تبتسم.

يجب أن يصلوا غدًا إلى جبل عرفات حتى يصادق الرب على صحة رحلتهم. تتلو عفاف دعاءً لأبيها وصحته، وأن يراه الله من

خلال هذه التجربة التي يمنحها لكثيرين مرة واحدة فقط في حياتهم. هل ستقدر الأم التضحية التي قدمها زوجها لها بالحج نيابة عنها؟

في تلك الليلة تنام بهدوء في الخيمة -أول نوم عميق لها منذ سنوات عديدة- تحت غطاء من النجوم، نفس النجوم التي تتلألأ فوق أيمن وأكرم رغم أنهما في عالمين منفصلين.

عند الفجر، تصلي مع رفيقاتها في الخيام، ويبدأ الحجاج رحلتهم إلى جبل عرفات. تنضم إلى بلال والأب، وتجد أنهما تمكنا من تأمين كرسي متحرك من أجل والدها. يُقلق ذلك عفاف أكثر؛ لا بد أنه يشعر بسوء شديد إنْ وافق على استعمال كرسي متحرك. يدفع بلال والدها، وتسير عفاف بوتيرة مشابهة لهما، وتتأكد من الأب يتناول رشفات منتظمة من ماء زمزميته البلاستيكية.

«توقفي عن القلق، يا حبيبتي». يوبخها الأب. يبدو وجهه شاحبًا، وجفونه تتدلى في حين يحدق بها.

يحتشد الحجاج في الطريق، وتبرز مئات المظلات السوداء من وسط الجماهير، تحميهم من أشعة الشمس.

يصلون إلى جلاميد جبل عرفات، قمة خلابة يجوبها الحجاج مثل نمل فوق كثيبها. الحجاج الأصغر سنا والأكثر صحة يصعدون إلى قمته بسهولة، وكبار السن وذوو الإعاقة يستغفرون عند قاعدة الجبل.

تصلي عفاف وتطلب المغفرة متناسية إرهاقها. الخوف يقبض على روحها - كيف ستكون قادرة على تعويض كل خطأ ارتكبته؟

هل يمكن أن تكون أختًا أفضل لمجيد؟ هل يمكن أن تكون أكثر راحة لوالديها، خاصة أمها؟ هل فعلت ما يكفي من أجل كل طفل درّسته؟ ما الأذى غير المرئي الذي ألحقته بالآخرين تحت تأثير نوبات من الغرور؟

قمة الجبل غير واضحة بسبب أشعة الشمس القوية، يمكنها فقط رؤية أشكال غير محددة -هل هي ملائكة؟- تغطي منحدراته. تدعو الله أن يمنحها القوة والسلوان حتى تكون مسلمة صالحة. تتمسك بإحساس جديد بالتسامي، هذه المعرفة بأنها أكثر من مجرد كيان مغلف بجسد مادي.

ترفع عفاف رأسها وتنظر إلى بلال، عيناه مغمضتان، ويداه مرفوعتان إلى السماء، وشفاهه تتحرّكان في صمت. تتذكر قصة آدم وحواء، وتشعر بالامتنان لبلال. هما شخصان محطمان جعلتهما خسائرهما بطريقة ما مكتملين.

ينتقلون إلى مزدلفة. زحام الأجساد المتحركة غامر. يشعر ثلاثتهم بالارتياح لانتهائهم من أكبر التزام في مناسك الحج. يتجهون صوب منطقة مفتوحة حيث سيجمعون الحجارة لرميها على ثلاثة أعمدة تمثل الشيطان الذي أغوى إبراهيم، ثلاث مرات.

يشير بلال إليها بحاجة الأب إلى الراحة. يتحركون إلى جانب الطريق الذي لا يزال مكتظًا بالأجساد. أقيمت أحواض المياه والمراحيض المتنقلة على طول الطريق.

تمسح العرق عن جبهتها، وتتجرع الماء من زمزميتها البلاستيكية، ثم تتغرغر وتبصق المياه في اتجاه بعيدًا عن الحشد.

يجثو بلال على ركبة واحدة في مواجهة والدها. «ما الخطب يا عمي؟» تسرع عفاف إلى جانب أبيها.

وجه والدها شاحب وعيناه تتراجعان إلى مؤخرة رأسه. يمسك الأب صدره بيده. «لا أستطيع أن أتنفس»، يصدر صفيرًا مع الشهيق. «لا أستطيع التنفس».

تسقط على ركبتيها وتمسك بيده الأخرى. «تمهل يا بابا! دعنا نبعدك عن الشمس».

يتسارع الوقت فجأة في حين يلهث الأب، يداه ترتخيان.

«بابا، لا. من فضلك، اصمد يا بابا!». عفاف تبكي. تلوح بذراعيها طلبًا للمساعدة. الحجاج مستمرون في التحرُّك، أعينهم مثبتة إلى الأمام أو نحو السماء. من بعيد، لا بدّ أنها تبدو كأنها تصلي أيضًا، وهي ترفع ذراعيها بجموح. تصرخ بالعربية: «ساعدونا من فضلكم! بسم الله أعينونا!».

يتفقد بلال نبض الأب. يضغط بإصبعين على رقبته، ثم يمد يده فوق رأس أبيها، ويدعو.

تمسك يدي أبيها -اليدان اللتان أمسكتا وجهها، ودعت من أجل ابنيها، ووازنتا عوده، باتتا هامدتين الآن.

«لا! من فضلك يا أبي! لا!» تصرخ، لكن لا يسمعها أحد فوق صوت رشق الجمرات، آلاف الحجاج يضربون الشيطان من ممراتهم.

4

دُفِن الأب في جنات البقيع حيث دُفِن أقرباء النبي محمد وأصحابه في المدينة المنورة. مكان مقفر تعرض للنهب وأعيد بناؤه عبر القرون. تحدد الصخور القبور في الرمال، بحيث تبدو كأنها شاطئ بالٍ بفعل العوامل الجوية.

يُرقد الموتى في القبور ليستريحوا بسرعة -لا بهرجة أو أبهة، ولا باقات من الزهور أو أكاليل زهور. سُئلت عفاف إنْ كانت ترغب في ترحيل الجثة إلى الوطن، *نقلها إلى الولايات المتحدة*. لكنها رفضت. تعرف أن الأب يريد أن يُدفن في هذا المكان المقدس. وتعلم أنها لن تعود لقراءة الفاتحة على قبر أبيها. سيكون عليها أن تدعو من أجله من قارة بعيدة.

وبحسب الإمام السعودي الذي أدّى شعائر الجنازة، فقد أنجزوا فريضة الحج معفيين من الواجبات الأخيرة إن هم دفعوا ثمن ذبح أضحية في العيد. صمد بابا حتى صعود جبل عرفات. بادرة الحب الأخيرة.

عيناها جافتان ومؤلمتان من شدة البكاء، عضلاتها ضامرة من البؤس. من الصعب الجلوس والنوم مددًا طويلة. ذُهِلت من مدى شراسة هذا الحزن، وكيف يستشري في جسدها. يأتي الغثيان على شكل موجات وتتقيأ العصارة الصفراوية المرَّة في المرحاض. كيف يمكن للمرء أن ينجز أي مهمة رسمية -تحضير الجثمان، والصلاة عليه، ودفنه- فيما بالكاد يستطيع الوقوف؟

يحاول بلال إطعامها في الفندق، لكن عفاف لا تستطيع الاحتفاظ بأي شيء في أحشائها. أحضر لها حساء العدس المنعش، يمزق قطع الخبز لكي تمضغه بين الملاعق. تتذكر عندما أعدت الخالة نسرين الحساء نفسه لأمها عندما اختفت ندى. هل كان له مذاق الموت أيضًا؟

تأتي امرأة ترتدي حجابًا أسود إلى الغرفة. لا يبدو أنها عربية، عيناها واسعتان جدًّا وسوداوان مثل الجَزْع، وجلدها نحاسي مائل إلى الصفرة. عندما تتحدث، تؤكد لها أنها مديرة فندق مهاجرة.

«سلام». تحمل ملاءات نظيفة بين يديها.

تومئ عفاف برأسها. «سلام»، تقول بصوت متحشرج، مدهوشة من نبرة صوتها. تدرك أنها لم تتكلم تقريبًا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية. أم أن المدة كانت أطول؟ مرة أخرى، الزمن يتلوى. لا يمكنها معرفة ما إن كان الوقت نهارًا أم ليلًا حتى تسحب مديرة الفندق الستائر ويتدفق ضوء الشمس داخل الغرفة. تتذكر عفاف بشكل غامض مغادرة بلال قبل مدة، مؤكدًا لها أنه سيعود بمزيد من الطعام. متى أكلت الحساء؟

تواجه عفاف صعوبة في النهوض من فراشها حتى تفسح المجال لمديرة الفندق حتى تفرش الملاءات الجديدة. تشعر بأن رأسها خفيف وفارغ مثل رأس دمية، ثم يصبح فجأة مثقلًا بالتعب. ما إن تقف، تتخبط ساقاها تحتها وتنهار على الأرض.

«آنسة، هل أنتِ بخير؟» مديرة الفندق إلى جانبها، تنحني مقتربة من عفاف، وتمسك بذراعها.

«سأكون بخير». تحاول رفع نفسها، لكن لا فائدة. رحل أبوها. لا شيء سيغير ذلك، حتى في هذا المكان المعجزة. عفاف ببساطة ليس لديها أي طاقة للمضي قدمًا.

تقول لمدبرة الفندق باللغة الإنجليزية «مات أبي».

يبدو أن مدبرة الفندق تتفهم -أو ربما على دراية بهذا النوع من الألم. توجه رأس عفاف إلى صدرها وتثبِّت جسدها المرتعش. تضغط عفاف جسمها في مقابل ثدييها الصغيرين فيما تدندن المرأة لحنًا.

تعانق عفاف هذه الغريبة التي تفوح منها رائحة أوراق الميرمية والليمون المجففة، متمنية لو كانت أمها.

***

وجه مجيد هو الذي تراه -الوجه الوحيد بين الحشود في مطار أوهير الدولي. تتزاحم العائلات حول أحبائها، وترحب بعودتهم إلى الوطن بباقات من الزهور والأطفال المولودين حديثًا الذين ينتقلون من زوج من الأذرع الممدودة إلى آخر. لا تدرك عفاف سوى أن شقيقها ينتظر عند نهاية بوابة الوصول، وكل صوت آخر يبدو صدى بعيدًا للسعادة. يدفع بلال حامل الأمتعة أمامها، وهو ينظر من فوق كتفه كأنها قد تختفي.

يبدو الطريق أمامها بلا نهاية، والركاب يندفعون متجاوزين إياها، متحمسين للوصول إلى النهاية. أخيرًا تجد نفسها بين ذراعي مجيد.

«عفاف، أنا آسف. أنا -». جسده يرتعش في مقابل جسدها، فيما تحتضنه، كاتمة صوت نحيبه.

«أحبَّكَ بابا كثيرًا يا مَج. كان فخورًا جدًّا بك».

يقفان متشبث بعضهما ببعض مدة طويلة حتى يحثهما بلال على التحرك.

5

يقيم المركز الإسلامي عزاء خاصًا للأب. يجتمع الرجال والنساء في جناحين منفصلين بالمسجد حدادًا على الأب، وينبعث صوت الإمام عبر مكبرات الصوت من زاوية السقف المنخفض. الإمام شاب من اليمن حل محل الإمام المتقاعد أبي نبيل. لحيته، الحمراء مثل لون الصدأ، وقصر قامته يمنحانه مظهرًا مسالمًا دون التقليل من هيبته وسط المصلين.

يقول الإمام راجيًا: «أمسكوا دموعكم»، ثمة رنَّة في لهجته العربية. «إذ إن الدموع تعذِّب روح المتوفى فحسب، وتحرمه من الراحة الأبدية».

تهز النساء رؤوسهن، وقد تلفعن بالأسود، ويوافقن فيما يمسحن دموعهن، وينفخن أنوفهن في مناديلهن.

لو كان الأب توفي في إلينوي لكان جسده يرقد الآن مستلقيًا في دار جنازة هاموند، التي تملكها وتديرها عائلة لا دينية. لسنوات، سمحوا للمسلمين بتجهيز جثامين أحبائهم بأنفسهم هناك، والصلاة على أرواحهم وتغطيتهم بالأبيض. لا تحنيط أو تأخير في الدفن. من كان من الممكن أن يؤدي هذه المهام للأب هنا؟ مجيد؟ حتى الآن يبدو شقيقها ضائعًا وسط الرجال، جالسًا بجانب بلال زوجها ببدلة سوداء ضيقة وربطة عنق زرقاء داكنة. يرشده بلال خلال المراسم، ويوجهه بما يقول عندما يقدم المعزون تعازيهم. حتى أن مجيد انضم إلى صلاة الجنازة مقلِّدًا حركات بلال. تشعر عفاف بحنان لا يصدق تجاه شقيقها. يومض

فـي ذهنهـا ذكـرى الطابـق الثانـي المتهـدم مـن المركـز الإسـلامي القديـم لشـيكاغو الكبـرى، مجيـد وهـو مراهـق محشـور بيـن أبيهـا ورجـل غريـب فـي أثنـاء الصـلاة فـي حيـن تقـف هـي بجانـب كوكـب، كلاهمـا يشـعر بالتيـه. ربمـا كان مجيـد ليجـد بعـض العـزاء فـي غسـل جسـد والدهمـا، وتتبـع النـدوب التـي خلفهـا حـادث السـيارة الـذي تعـرض لـه الأب، والضغـط علـى النتـوءات الجلديـة فـي أصابـع الأب المتكونـة نتيجـة العـزف علـى عـوده طـوال تلـك السـنوات.

هـل يسـتطيع مجيـد أن يغفـر لـلأب أخيـرًا؟ هـل غفـرت هـي لـلأم؟ كانـت والدتهمـا تتصـل، ومجيـد يجيـب علـى المكالمـات. عفـاف لا تسـتطيع التحـدث معهـا -ليـس بعـد. إيصـال خبـر وفـاة أبيهـا -محاولـة التعبيـر عـن حزنهـا- عبـر الهاتـف تـراءى لهـا شـائنًا. كان جـزء منهـا يأمـل أن ترجـع الأم إلـى الولايـات المتحـدة حتـى تشـارك طفليهـا الحـزن. حتـى تُقـدّم جسـدها المـادي لعفـاف. لـم تكـن بحاجـة إلـى الكلمـات، فقـط المسـاحة المجوفـة بيـن عنـق والدتهـا وكتفهـا، حيـث يمكـن لعفـاف أن تضـع رأسـها. مـكان غيـر مألـوف -مـكان تحتـاج إليـه بشـدة. هـل اشـتهى مجيـد فعـل الشـيء نفسـه مـع الأب؟ يتـورم قلبهـا بالحـزن.

فـي جنـاح النسـاء، تحـوم كوكـب حـول عفـاف فـي الأوقـات التـي لا تشـرف فيهـا هـي وإسـما علـى تقديـم صوانـي القهـوة غيـر المحـلاة والتمـور المهروسـة.

فـي ذلـك الصبـاح، أعطتهـا صديقتهـا قـرص *فاليوم* لتهدئـة يديهـا المرتجفتيـن، وإيقـاف انهمـار دموعهـا المسـتمر.

«أنت محاطة بالحب هنا»، تهمس كوكب في أذنها قبل أن تبتعد لتحية ثلة من النساء. رُصَّت الكراسي القابلة للطي داخل القاعة على شكل حدوة حصان، وتجلس عفاف في أعلى القوس.

تحتضنها السّيدة باركر وأشانتي في الوقت ذاته، ورائحة اليوسفي التي تفوح منهما تريحها. تهمس لهما: «أحب والدي السيد باركر».

تومئان برأسيهما، تشهقان وتكفكفان دموعهما. تعانقانها مرة أخرى وتسلماها سلة عامرة بالشاي العضوي والبسكويت.

الخالة نسرين والعم يحيى وصلا من كينوشا. كتفا خالتها محنيتان قليلاً، هيكلها النحيف، مثل أمها، يحمل شريطًا رفيعًا من الدهون حول خصرها. شعرها الأشيب مقصوص بدقة حتى مستوى الفكين. تتساءل عفاف متى شاخت خالتها كثيرًا هكذا.

تقول لها الخالة نسرين وهي تمسك بيدي عفاف كأنها تحاول إقناعها بصدق كلامها: «والله أحببت والدكِ يا حبيبتي. كانت لديه عيوبه، لكن قلبه كان كبيرًا. الله يرحمه». تتنشق في منديل مجعد. لكن عفاف تعرف أن أباها طالما كان الرجل الذي خذل أختها.

يدفع أحدهم أم زريب فوق كرسي متحرك، جسدها منكمش مثل حلزون مجبر على الخروج من قوقعته. تتذكر عفاف لقاءهما الأول عندما ضمتها أم زريب في حضنها الضخم وشعرت بالأمان هناك. تميل عفاف لاحتضانها. يبدو خداها الغائران كأنهما ورقة، وتبدو يداها المتجعدتان باردتين وضئيلتين. كما هو الحال مع الخالة نسرين، تدهش عفاف من منظر المرأة العجوز التي

أمامها، وجهها يبتلعه حجاب أسود. هل هي أيضًا قد شاخت في السن بسرعة كبيرة؟

تقول أم زريب: «فعل والدك أعظم عمل من أجلكِ عندما جعلكِ ترجعين إلى الإسلام».

تومئ عفاف برأسها، تنهمر دموعها من جديد. «ليحفظ الله دينِك وإيمانكِ. شكرًا لك يا أم زريب». لم تعد الأمور إلى طبيعتها قط بينهما بعد الخلاف الذي نشب بينهما قبل سنوات طويلة. سمعت عفاف من خلال دائرة النساء أن ليلى حمد، الفتاة الصغيرة المصابة بكدمة على شكل نجمة، اجتمع شملها في النهاية مع والدتها، التي ظلت متزوجة من زوجها المُعنِّف. انتقلوا بعيدًا. ستكون ليلى في السادسة عشرة من عمرها الآن. هل كان هذا أسوأ ما مرت به في حياتها حتى هذه اللحظة؟ أم أن ليلى تشعر الآن بأنها عديمة القيمة كما شعرت عفاف في مثل سنها؟ هل اعتمدت على لمس الأيدي الوقحة للأولاد البيض جسدها لتذكيرها بأنها لا تزال على قيد الحياة؟

كوكب إلى جانبها مرة أخرى. «كيف حالك يا حبيبتي؟» تضع كوبًا بلاستيكيًا من القهوة في يدها، وتتأكد من أن عفاف قد أمسكت به قبل أن تسحب أصابعها بعيدًا.

«تمام.. تمام». تنفخ عفاف أنفها وتستقر في كرسيها القابل للطي. تشعر بالبرد، لكن يغمرها هدوء غريب. مفعول قرص الفاليوم. الحزن ينحسر ببطء. على الأقل لبعض الوقت.

تقترب منها النساء، امرأة تلو الأخرى، يقدمن تعازيهن. هي متعبة جدًا بحيث لا تستطيع الوقوف وتحيتهن؛ بدلًا من ذلك،

تركت كل واحدة تنحني وتطبع قبلة على كل خد. بعض اللاتي عرفن أباها جيدًا يتذكرن المواقف التي كان كريمًا فيها معهن؛ تقدِّم الأخريات كلمات عاطفية لبقة تجاه شخص لم يروه إلا في أرجاء المسجد دونما أن يتحدثن إليه أبدًا. الكلمات نفسها: *كان والدكِ رجلًا محترمًا.*

الصف لا ينتهي. تغمز كوكب لعفاف حتى تتحلى بالصبر. تريد العودة إلى المنزل، وضم ابنيها بين ذراعيها، والانزلاق تحت الأغطية. يتوق جسدها إلى النوم، رغم أنه لم يأتِ إليها منذ عودتهما إلى الديار.

تتقدم امرأة من عفاف. تتباطأ للحظة كأنها غير متأكدة من إن كان عليها تحيتها أو المضي قدمًا دون أن تنطق بكلمة واحدة. تنتظر المعزيات الأخريات خلفها. حجابها غير ملائم، وهي تشد القماش الفضفاض على جبينها، في محاولة لالتقاط بعض الخصلات المجعدة الشاردة من شعرها البني المحمر. ترتدي معطفًا قصيرًا منتفخا، يبدو غريبًا وسط المعزيات الباكيات.

تمد عفاف يدها وتحث الغريبة على الكلام.

أخيرًا صرخت: «أنا – أنا آسفة جدًّا لخسارتكِ».

ثمة شيء مألوف بشكل غريب في هذه المرأة. تمعن عفاف في النظر. «من أنتِ؟»

تهز المرأة رأسها، وهي تنظر خلفها. يمتد الصف وراءها إلى اثنتي عشرة امرأة. «هذه أنا يا عفاف». تقول اسمها، يتردد صداه من الماضي مثل عزف أوتار عود أبيها كأنها أغنية لم تسمعها منذ مدة طويلة.

«ندى».

تومئ أختها برأسها، والدموع تنهمر على خديها. «أنا آسفة على قدومي بهذه الطريقة».

لا تتفوه عفاف بأي كلمة. تقف، وتميل كل منهما باتجاه الأخرى كأنهما تتعانقان في مواجهة رياح قوية. مئة سؤال يقفز من شفتي عفاف في اللحظة نفسها.

«كيف - أين كنتِ -؟»

تومئ ندى برأسها وتمسك بيديها. تقول لأختها: «لدينا الكثير لنتحدث عنه».

تنهمر دموع طازجة من عيني عفاف وتسرع كوكب إليها. «أختي... هي...». لا تستطيع عفاف استدعاء الكلمات. يعلو الفهم وجه كوكب التي تبادر إلى عناق ندى.

«عنواني»، تمكنت عفاف من أن تقول لكوكب، التي تومئ برأسها وتذكر عنوان منزل عفاف فيما تدونه ندى بسرعة على مظروف مطوي تسحبه من حقيبة يدها.

تقول عفاف لأختها: «تعالي إلى المنزل الليلة».

خلف ندى، تضاعف صف النساء. يجب أن تفي عفاف بالتزامها، وأن تحيي كل مسلمة تتمنى لوالدها النجاة الأبدية في الآخرة.

تومئ ندى برأسها، وتضغط على يد عفاف قبل أن تأخذ امرأة أخرى مكان أختها بسرعة، وتعانق عفاف بقوة، وتقول لها كم كان أبوها بمنزلة الأب لها.

6

تـذرع عفـاف المطبـخ ذهابًـا وإيابًـا، وتلقـي نظـرة خاطفـة علـى الساعة فـوق الحائـط. الأمـر أشـبه بالحلـم.

ندى عادت.

ندى على قيد الحياة.

ترتجـف عفـاف مـن هـذه الحقيقـة غيـر العاديـة. يغمرهـا إحسـاس لا يمكنهـا تسـميته تمامًـا – أهـو شـعور بالراحـة أم الغضب؟ – يضغـط علـى كيانها.

يخـرج مجيـد مـن الطابـق الأرضـي. غيَّـر بدلتـه إلـى كنـزة جامعيـة قديمـة. كان نائمًـا فـي غرفـة الضيـوف. أصـر بـلال علـى بقـاء شـقيقها معهـم، رغـم أنـه قـد حجـز بالفعـل فـي فنـدق *هوليـداي إن* علـى بعـد أميـال قليلـة خـارج بلـدة تيمبسـت. فـي الماضـي، لـم يكـن مجيـد ليرضـخ لذلـك، وكان ليتمسـك بشـدة بخصوصياتـه في رحـلات العمـل القصيـرة إلـى شـيكاغو. لـم يتطلـب الأمـر كثيـرًا مـن الإقنـاع هـذه المـرة. لـم يتبـق لمجيـد وعفـاف الآن سـوى بعضهمـا بعضًـا.

وندى.

«مـاذا لـو غيـرت رأيهـا؟» كان وجـه مجيـد متوتـرًا، لكـن عفـاف تلمـح بصيـص أمـل يعلـو وجهـه باحتمـال اختفـاء نـدى مـرة أخـرى. سـيكون الأمـر أسـهل لـو ظلـت نـدى مختفيـة – لـن يعتـرف بذلـك، لكن عفـاف تعرف شـقيقها، كـم كان مـن الصعـب عليـه فهـم تعقيـدات الحيـاة. كان يـرى الحيـاة أسـود وأبيـض فقـط. بالنسـبة إليـه، كان أبوهمـا مخمـورًا وخائنًـا؛ وأمهمـا أم وحيـدة أصابهـا الحـزن. ظهـور نـدى يجبرهمـا علـى التعامـل مـع مـاضٍ مريـك ومسـتقبل مجهـول.

«هـي مـن قـررت الإعـلان عـن وجودهـا يـا مَـج. سـتكون هنـا».

فـي وجـود كل منهمـا فـي حضـرة الآخـر، لـم يتمكـن أي منهمـا مـن نطـق اسـم أختهمـا، كمـا لـو كان ذلـك قـد يطلـق لعنـة ستكسـر تعويذة تجنـب الخـوض فـي موضـوع اختفائهـا الـذي نُسِـج حـول أسـرتهما منـذ أمـد طويـل.

يتمتـم مجيـد: «يبـدو لـي قرارهـا متأخـرًا قليـلًا». يمـرر أصابعـه مـن خـلال شـعره الكثيـف. فـي كل مـرة تـراه عفـاف، يصبـغ مزيـد مـن الشيـب سـوالفه، ويمتـد عبـر تـاج رأسـه.

تتفهـم غضبـه. يهـدد غضبهـا نفسـه بتحطيـم سـطح هدوئهـا أيضًـا. ولكـن تحـت ذلـك الغضـب بئـر عميقـة مـن الشـوق. بعـد كل هـذه السـنوات مـا زالـت تريـد اسـتعادة أختهـا.

يدخـل بـلال المطبـخ، ويلمـس كتـف عفـاف برفـق. «الأولاد نامـوا أخيـرًا».

يمكنـه الشـعور بالتوتـر بيـن الشـقيقين: «هـل أكل أي منكمـا شيئًا؟ مجيد؟»

«شـكرًا. أنـا بخيـر». يتوجـه شـقيقها إلـى غرفـة العائلـة، ويغـوص فـي أحـد الكراسـي.

تحضـر عفـاف صينيـة مـن فناجيـن الشـاي، وتفتـح علبـة مـن رقائـق بسـكويت بيرويت مـن السـلة التـي قدمتهـا لهـا السـيدة باركـر. قبـل سـنوات، كان الأب يقلهـم بالسـيارة إلـى المنـزل مـن متجـر بقالـة *الأعرابـي*. أحبـت هـي ومجيـد وهمـا صغيـران قرمشـة رقائـق البسـكويت الملفوفـة حتـى أطـراف أصابعهمـا، يتسـابقان لمعرفـة مـن يمكنـه أن ينتهـي مـن تناولهـا أولًا.

يسأل بلال: «في أي ساعة ستكون أختك هنا؟»

أختك. كيف سيستطيع ثلاثتهم الانسجام معًا من جديد؟

تُظهر الساعة الرقمية فوق الميكروويف الساعة العاشرة والنصف مساءً. تقول عفاف: «قريبًا». تتساءل أين تقيم ندى يا ترى. وهل تقدم لها دعوة بالمكوث معهم؟ كم من مرة فعلت الشيء نفسه مع ضيوف الآخرين؟ *هذه أختها*. هي وندى ومجيد تحت السقف نفسه مرة أخرى.

يحتضن بلال عفاف ويهمس في أذنها: «كيف تتعاملين مع كل هذا؟»

تجيب تلقائيًّا: «الحمد لله». ما أسهل أن تعتصم بتلك الكلمة رغم الجلبة التي تجتاح قلبها. منذ وفاة الأب، شعرت أن إيمانها متشظٍ كخيوط معطف بالٍ تتفكك، لدرجة ما عاد قادرًا على حمايتها من البرد القارس الذي اجتاح داخلها. كان بإمكانها دائمًا أن تتحصن بالإسلام، بثقتها بأن الله سيعينها على تجاوز أي شيء. لكن مع رحيل الأب، تلاشى هذا الإحساس بالتسامي الذي انتابها في أثناء الحج. تمسح عينيها المبللتين بحاشية كمها الفضفاض قبل أن تسقط الدموع على كتف زوجها. لعل هذا هو تدبير الله، بعظمته العجيبة؛ *انتزاع الأب منها وتقديم ندى إليها*.

تبتعد عفاف عن بلال، وتسير إلى الردهة. تستدير، وتجول بعينيها في المنزل الذي شيدته مع بلال. 3500 قدم مربع، ثلاث غرف نوم، أربعة حمامات، طابق أرضي كامل. أبليا بلاء حسنًا. لن يرحل ابناهما أبدًا. ماذا سيكون رأي ندى في الحياة التي صنعتها عفاف؟ هل تتذكر أين بدؤوا في الشقة القديمة

في ضاحية فيرفيلد؟ مثقلين بأعباء المعيشة المادية، كان أبوهم يستقل الحافلة إلى المصنع، والأم تقدم لهم بقايا الطعام حتى تفرغ الأواني تمامًا.

تلتقط عفاف انعكاس صورتها فوق زجاج خزانة الخزفيات. كانت تتجنب النظر إلى نفسها، خائفة من رؤية امرأة باهتة. وجه شاحب ومنهك يبادلها النظرات من غرفة الطعام، أشبه بشخص مريض منذ مدة طويلة جدًا. تسمع رنين هاتف مجيد المحمول، ويتحدث بصوت خفيض. من المحتمل أنها عشيقة لا يريد تقديمها لعائلته. كان متكتمًا بشأن حياته الشخصية، وتوقفت عفاف عن السؤال. تعدل بلوزتها الفلاحية بأكمامها الفضفاضة ورقبتها المربعة، نسيجها الكتاني مصبوغ بلون أخضر مائل للرمادي. غيرت عباءتها السوداء، واختارت بلوزة أقل قتامة، تلك التي وجدتها في متجر الأشياء المستعملة المفضل عندها في شيكاغو. هل تتسوق ندى من متاجر الأشياء المستعملة أيضًا؟ هل هي مقتصدة مثل عفاف أم المال موضوع لا يهمها كثيرًا؟

تثور معدتها في موجة من الترقب. هناك أشياء كثيرة تود معرفتها عن أختها، أمور كان من المفترض أن تتشاركاها لو ترعرعتا معًا؛ طعامها المفضل، أسوأ مخاوفها. الألوان التي تبدو فظيعة عليها، الرائحة المألوفة لعطر دائم الشباب يبقي مدة طويلة بعد أن تغادر الغرفة.

ماذا عن العائلة؟ هل ندى متزوجة ولديها أطفال؟

تتسارع الأفكار في ذهنها، وتطرح سؤالًا آخر قبل أن تتمكن من الإجابة عن السؤال الأول.

يـرن جـرس البـاب وتلتقـط عفـاف أنفاسـها، يبـدو رنيـن الجـرس غريبًـا فـي مثـل هـذه السـاعة المتأخـرة مـن الليـل. تتحسـس رأسـها العـاري، خصـلات شـعرها الداكنـة متجمعـة فـي ضفيـرة طويلـة. يظهـر بـلال ومجيـد خلفهـا فـي الردهـة.

تقـف نـدى عنـد المدخـل ممسـكة بباقـة مـن أزهـار القرنفـل، بنفسـجية بصـورة لافتـة فـي مقابـل خلفيـة الليـل المعتـم. رأسـها مغطـى بقبعـة محبوكـة يدويًـا، وشـعرها كتلـة مـن التجعـدات تحتهـا. لـون شـعرها أفتـح مـن اللـون البنـي المحمـر الـذي تتذكـره عفـاف، مـع وجـود عـدد قليـل مـن الخصـلات الرماديـة الشـاردة قـرب تـاج رأسـها. نـدى أقصـر منهـا بقليـل.

تبدأ أختها الحديث وهي تناولها الباقة: «أنا آسفة جدًّا».

«الله يرحمـه ويخلـص إليـه». تبـدو كلمـات عفـاف متكلفـة ومجهـزة مسبقًا، نفـس مـا كررتـه علـى النسـاء فـي العـزاء قبـل سـاعات. ومـع ذلـك، لا يوجـد تعبيـر مناسـب، ولا عبـارة ملطفـة مُرضيـة لتسـكين هـذا الحريـق بداخلهـا. والأسـوأ مـن ذلـك الآن وقـد صـارت نـدى هنـا، أن الأب غـادر دون أن يـرى ابنتـه البكريـة مـرة أخـرى. تتنحنـح.

لا يتصافحـون ولا يحتضنـون، الزهـور تحـل محـل أي إيمـاءات جسـدية محرجـة فـي الوقـت الحالـي.

«مَـج؟» تخطـو نـدى خطـوة نحـو الرجليـن. «لا أسـتطيع أن أصـدق ذلـك. أنـت تبـدو كمـا كنـت دائمًـا».

عندمـا تقـول نـدى مَـج، تتجمـع شـظايا الذكريـات المهشـمة مـرة أخـرى فـي صـور كاملـة. ثلاثتهـم يتناولـون العشـاء بهـدوء فيمـا تضـع الأم القـدور والمقالـي فـي حـوض المطبـخ. تهـدئ نـدى مجيـد عندمـا

سقط من فوق دراجته، وتضغط كرة قطنية مشبعة باليود فوق ركبته المجروحة. المشي معًا إلى المكتبة للحصول على بطاقة عضوية عفاف. كانت ندى أختًا كبرى لبعض الوقت. هل يتذكر مجيد أيضًا؟

يهز رأسه فقط ردًا على ذلك، ولا يتكلم. تبدو ندى غير متأكدة -هل ينبغي لها أن تمد يدها وتحتضن شقيقها؟

تكسر عفاف اللحظة المحرجة. «هذا زوجي بلال». تضع يدها على ذراعه.

يتقدم بلال ويصافح ندى. «مرحبًا. أنا سعيد جدًا بلقياك. مرحبًا». يبدو الأمر سهلًا على زوجها، كرم ضيافته ثابت لا يتأثر بالموقف. ندى غريبة في منزله مثل أي شخص آخر يلتقيه للمرة الأولى.

تبتسم ندى في وجهه ببشاشة، وتسترخي قليلًا. بشاشة ندى لم تقلل من مزاج عفاف ومجيد الكئيب.

تشير عفاف بزهورها. «ادخلي من فضلكِ».

«سأترككم الآن. إن شاء الله ليلة سعيدة». يقبّل بلال رأس عفاف ويضغط على كتف مجيد قبل الصعود إلى الطابق العلوي. يتوجه شقيقها إلى المطبخ.

تخلع ندى حذاءها طويل الرقبة، وقبعتها، وتفتح سحَّاب معطفها المنفوش، لتكشف عن كنزة صوفية رمادية اللون أسفله. قلادة على شكل قلب تتدلى من رقبتها، تتوسطها ياقوتة صغيرة. تتحسسها ندى بعصبية وهي تتأمل الصور المعلقة على جدار الردهة. تشير إلى صورة لعفاف وبلال في حفل قراءة الفاتحة عندما وافق أبوها رسميًا على زواجهما.

تشاهد عفاف ندى وهي تتحرك في الأنحاء، ابتسامة صغيرة تعلو شفتي أختها، تعبيرًا يبدر عن شخص يلتقي أناسًا لأول مرة. ثمة صورة لعفاف ومجيد في العيد وواحدة للأب، تلتف ذراعه حول كتفي أخيها في حفل تخرجه من كلية الحقوق. وفي صورة أخرى يحمل الأب حفيده أيمن أول مرة في المستشفى. كانت ندى غائبة عن عديد من اللحظات -حيث احتلت المساحات الفارغة في الصور التي لا يمكن أن يميزها أحد سوى عفاف.

تشير ندى إلى صور مدرسية لأيمن وأكرم، ابتسامات تكشف عن أسنانهما تعلو وجهيهما. «هل هما ابناكِ؟»

تومئ عفاف برأسها، وتجتاح قلبها غصة مفاجئة من الاشتياق إلى ولديها. تريد أن تمسك بهما في سريرهما، تلمسهما وتشم رائحتهما. تغلف نفسها ببراءتهما، وكيانهما البسيطين.

«هل لدى مَج أي أطفال؟»

عفاف تهز رأسها. «إن شاء الله في يوم من الأيام». يتراءى لها من السخف قول ذلك في حين أن كثيرًا من حياة مجيد بالنسبة إليها أشبه بالصندوق المغلق.

تسحب ندى بعض الصور من حقيبتها. «لدي طفلة واحدة. هوب». في إحدى الصور، فتاة مراهقة تبتسم في فستان حفلة تخرج مدرسية.

تتقلب معدة عفاف. ابنة أخت لم تعرفها من قبل. تتحسس أصابعها الصورة، إحدى زواياها مطوية. يمكن أن يخطئ الناس في هوب ويظنونها فتاة بيضاء، ذات أعين شديدة الزرقة وبشرة خوخيّة اللون، إلا أن شعرها قد يفضح حقيقتها. ورثت جدائل ندى المجعدة.

«ما شاء الله. إنها جميلة»، تقول عفاف لشقيقتها. هوب أي *أمل* بالعربية.

تومئ ندى برأسها، وتواصل تأمل الصور على الجدار. تتوقف أمام صورة لأمهم في ثوبها الأخضر المخملي في الليلة التي وقع فيها الأب في غرامها قبل عمر كامل، الليلة التي حُدِّد فيها مصيرهما. تلمس ندى حافة إطار الصورة. تقول بهدوء: «أتذكر هذه الصورة»، تتحسس أصابعها القلادة حول رقبتها مجددًا.

تقف عفاف جانبًا في صمت، وتمنح ندى الوقت لفحص كل صورة.

كم هو غريب، رؤيتهم جميعًا الآن كأنهم عائلة أخرى تمامًا لم تنتمِ إليها قط، لمحات من حكايات حياتهم ملتقطة في صور مرتبة بعناية. كم من تلك الحياة تتذكر ندى؟ هل ما زالت تسمع صوت بكاء أمهم، وشجارها مع أبيهم؟ أم أنها محت هذه الأصوات تمامًا من ذاكرتها، جنبًا إلى جنب مع كل رائحة وطعم من تلك الشقة القديمة في شارع فيرفيلد؟ هل يمكنها تخيُّل الحياة التي تركتها وراءها؟ هل هي آسفة؟

في المطبخ، يجلس شقيق عفاف وشقيقتها متقابلين إلى المائدة. ينظر مجيد إلى يديه. تختلس عفاف النظرات إلى ندى من مكان وقوفها أمام الموقد، حيث تعد إبريقًا من الشاي الأخضر. مثل عفاف، ندى لها وجه أبيهم، ملامحها نسخة أكثر نعومة من ملامحه؛ ورثت أنفه مع حافة أرفع، والغمَّازة الجذَّابة في خده البارز، وعينيه الداكنتين المؤطرتين بحواجب أنثوية دقيقة. جسدها نحيل ولدن، مثل جسد الأم، ومثل جسد عفاف.

إبريق الشاي يصفّر. تسكب عفاف فنجانًا لكل منهم. صمتهم يخيم على كل دقيقة تمر.

تتحدث ندى أولًا. «أجريت بحثًا عبر الإنترنت. عثرت على اسم بابا في موقع مركز صلاة تيمبست الإلكتروني». ترفع فنجان شايها وتضعه قبل أن تأخذ رشفة. «ربما كان ذلك قبل أربع أو خمس سنوات».

طعنة صغيرة في قلب عفاف. تنظر إلى مجيد. إنه يستمع، ووجهه مجرد من أي عاطفة. لماذا انتظرت ندى كل هذا الوقت؟

«اشتركت في النشرة الإخبارية للموقع، فقط لمتابعة أخباره. قبل بضعة أيام، تلقيت تنبيهًا عبر البريد الإلكتروني». تضع يديها في حجرها. «كان الأمر يتعلق بوفاة بابا».

«لماذا لم تأتي أبكر من ذلك؟ تقول عفاف، وهي تعلم أن هذا ما يفكر فيه مجيد أيضًا، رغم أنها متأكدة من أنه يتمنى لو أن ندى لم تحضر على الإطلاق.

«حاولت. لم أكن أعرف كيفية التواصل. ظننت أنكم كرهتموني. ذات يوم، جمعت الشجاعة اللازمة ورحت أبحث عنكم. لم أستطع العثور على أي منكم». تنظر ندى إليها. «كنت متأكدة من أنك تزوجت يا عفاف. وغيرت اسمكِ».

تومئ عفاف برأسها، مع أنها لم تغير اسم عائلتها. يناديها الناس السيدة حمزيتش من وقت إلى آخر أو أم أيمن في الأعراس.

«اسم بابا مدرج في شيكاغو». بدأت دموع ندى تتساقط. «أردت حقًّا التواصل أبكر من ذلك. أنا فقط -أنا آسفة. لم أكن أعرف كيف». تنكس رأسها، تهتز كتفاها من البكاء.

تمد عفاف يدها عبر المائدة وتغطي يد أختها.

«لماذا عدتِ؟» يتحدث مجيد فجأة، غير متأثر بحزن أختهما. «بابا مات. ماما خارج البلاد. إلى من عدتِ؟» كلماته تجرح مثل شفرة الحلاقة.

«إليك وعفاف. أنا آسفة -» عيناها المبتلتان بالدموع تتوسل إليهما.

«آسفة على ماذا بالضبط؟ الهروب؟ تركنا وراءكِ في منزل مجنون؟»

تسحب ندى منديلًا ورقيًّا من العلبة الخشبية في منتصف المائدة، تمسح به عينيها وتنفخ أنفها. «كنت صغيرة جدًّا، يا مَج. لا أتوقع منك أن تفهم سبب رحيلي».

«لماذا غادرت؟»

هذا هو السؤال الحقيقي الذي كانت عفاف تنتظر طرحه.

تنهمر عينا ندى بدموع جديدة وهي تشهق. تسحب منديلًا آخر من العلبة الخشبية على المائدة وتنفخ أنفها. «أنا -لم أستطع التحمُّل بعد الآن. شعرت كأنني أجنبية في ذلك المنزل. كأنني لا أنتمي».

كانت هذه الكلمات صادمة لعفاف؛ *هل شعرت هي بهذه الطريقة تجاه أسرتهم أيضًا؟* لم تسمح لهم الأم بالاقتراب بعضهم من بعض. دار بعضهم حول بعض لسنوات، دون أن يخرجوا من مداراتهم أبدًا.

«كلاكما كان صغيرًا جدًّا. أقنعت نفسي أنكما ستكونان بخير». توقفت هنيهة قبل أن تستطرد: «أعتقد أنني كنت صغيرة أيضًا».

تهز رأسها بقوة كما لو أن الماضي قد استولى عليها فجأة، وعليها أن تصارع للتملص منه. «لم أستطع -اضطررت إلى المغادرة».

يصمت مجيد مرة أخرى. ينظر إلى أسفل في فنجانه. لم يشرب أي منهم رشفة من الشاي. يمكن أن تشعر عفاف بالاهتزاز الخفيف الناجم عن نقر قدمه الأرضية تحت المائدة. يحاول الحفاظ على تماسكه.

«أين ذهبتِ؟» صوت عفاف رقيق. تومض في رأسها تلك الصور التي أظهرها المحقق لوالديها. في مخيلة طفلتها، ربطت رأس ندى بذلك الجسد المُعنَّف، واعتراها من جراء ذلك رعب هائل كان يمنعها من النوم لأشهر بعد اختفاء أختها.

«التقيت أحدهم في حلبة التزلج على الجليد. تتذكران حلبة تزلج *«عجلات الديسكو»*؟» تزحف ابتسامة صغيرة محرجة على وجه ندى.

تتذكر عفاف المكان. فتيات مراهقات يرتدين قمصانًا بلا أكمام وأولاد يرتدون قمصانًا ضيقة وبنطلونات جينز واسعة، أيديهم في جيوبهم الخلفية فيما يتزلجون فوق حلبة التزلج في أحذية تزلج بأربطة. كانت ندى تجلب عفاف ومجيد معها -عذرها للخروج من الشقة- وتعطيهما بضعة دولارات لشراء هوت دوج ولعب لعبة البينبول. كان مجيد يخشى التزلج، لذلك كان يتسكع هو وعفاف بمحاذاة الدرابزين، يشاهدان الأطفال الأكبر سنًا وهم يتزلجون. كانت أغنية «Another One Bites the Dust» تنبعث من مكبر الصوت، ثم تخفت الأضواء مع بدء أغنية بطيئة الإيقاع. عندما كانت ندى تمر أمامهما مع صديقاتها، كانت عفاف ومجيد

يلوحان إليها بقوة، وكانت تعطيهما إيماءة بذقنها، لكنها لم تلوح بيديها لهما قط. ترجع عفاف إلى الذاكرة إلى هاتيك الأيام، لكن وجوه الأولاد الذين يتوددون إلى ندى، بعضهم يحيط خصرها من الخلف بذراعه، وأرجلهم تنزلق في توافق فوق الجليد، أصبحت غير واضحة الآن.

«اسمه روبرت. وقعنا في الحب». تنفخ أنفها مرة أخرى. «انتقلنا إلى فلوريدا. حصل على وظيفة وانتهيت من المدرسة الثانوية. كان تدبير أمور معيشتنا صعبًا. تجند روب في الجيش. تزوجنا قبل أن يذهب إلى معسكر التدريب. هو الآن رئيس ضباط صف من الدرجة الرابعة. يشرف في الغالب على عمليات نظامية». تنظر إلى عفاف ومجيد بحثًا عن بعض أمارات التعاطف.

تومئ عفاف برأسها فقط، غير متأكدة من كيفية استيعاب هذه المعلومات. تنظر إلى مجيد. لا يلين وجهه. يتشنج فكاه لمسمع هذه المعلومات. تزوجت أختها *أمريكاني*، خدم في جيش عازم على تدمير الدول الإسلامية. يبدو الأمر كأنه خيانة أخرى. كم *أن يد القدر متباينة ومتناقضة على نحو فظيع!* كان النصيب ما قادها إلى الإسلام. قدر آخر كان مكتوبًا لأختها. لكن ألم تصنع ندى قدرها بنفسها يوم قررت تركهم؟

تحتسي ندى الشاي ثم تردف: «عشنا في أماكن مختلفة. في ألمانيا مدة خمس سنوات. ثم عشر سنوات في البحرين».

ألمانيا والبحرين. كم عاشوا حياة مختلفة. هل كانت ندى سعيدة طوال تلك السنوات؟

«عدنا أخيرًا إلى بيتنا في جاكسونفيل بعد انتهاء حرب الخليج الأولى».

رحلة طيران مدتها ساعتين كانت تفصل بينهما. اصطحبت عفاف وبلال الأولاد إلى مدينة ملاهي *«ديزني وورلد»* العام الماضي – ما المسافة من هناك إلى جاكسونفيل؟ استغرق وصول ندى أكثر من ثلاثين عامًا.

قالت لهما ندى: «الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو فقدانك أنتِ ومجيد».

يتنحنح مجيد لكنه لا ينطق بأي كلمة.

تقول عفاف: «كنا دائمًا هنا. لم تخسرينا». تمسك فنجان شايها، وتقاوم الدموع. «أنتِ من تركتنا».

«أنتِ على حق. اتخذت هذا الاختيار. ولكن عندما تبلغين من العمر سبعة عشر عامًا وتشعرين بأنك غريبة تمامًا – ويبدو الأمر كأن ذاتك الحقيقية لن تنجو أبدًا، سيكون لزامًا عليك أن تجدي مكانًا جديدًا يمكنك أن تكوني فيه على طبيعتك». تتنقل عينا ندى بسرعة بين عفاف ومجيد. «وجدت ذلك المكان مع روب. لم يكن الأمر سهلًا. لا أريدكما أن تعتقدا أن طريقنا كان مفروشًا بالورود دون أي مشكلات. لم يقبلني الناس دائمًا. الزوجة العربية لرئيس ضباط الصف».

يساور إحساس بالرضا عفاف عندما تعلم أن ندى لم تكن قادرة على التخلص تمامًا من أصلها بعد زواجها من رجل أبيض.

«كيف حال ماما؟ قلتما إنها خارج البلاد؟»

تـرد عفـاف تلقائيًـا قائلـة: «إنهـا بخيـر والحمـد لله. تعيـش فـي فلسـطين منـذ عشـر سـنوات». تنهـض عـن المائـدة، وتصب كأسًـا مـن المـاء مـن الصنبـور. وتقـول وقـد أولـت ظهرهـا لنـدى: «لـم يكـن الأمـر سـهلًا علينـا، كمـا تعلميـن. عندمـا رحلتِ، لـم يعـد والدانـا كمـا كانـا مـن قبـل».

يطلـق مجيـد ضحكـة سـاخرة ويغـادر المطبـخ. يسـمعان خريـر ميـاه صنبـور آتٍ مـن الحمـام فـي الردهـة. تعـاود عفـاف الجلـوس إلـى المائـدة، وتشـاهد نـدى وهـي تنشـق فـي منديلهـا المجعـد. «أدمـن أبـي الكحـول. فقـدت مامـا عقلهـا ببطء». تطبـق فمهـا وتضغـط شـفتيها كيـلا تذكـر تفاصيـل محاولـة والدتهمـا الانتحـار. تريـد معاقبـة نـدى علـى هجرهـا الأنانـي لهـم، وتركهـا لهـم وراءهـا مـع والديهـا اللذيـن فقـدا السـيطرة علـى عقليهمـا. كانـت أختهمـا الكبـرى وكان مـن المفتـرض عليهـا حمايتهمـا. بـدلًا مـن ذلـك هربـت.

«مررنـا بالكثيـر، هـل تعلميـن؟» تـراود عفـاف رغبـة فـي سـرد كل مـا نجـت نـدى مـن مواجهتـه. لكنهـا تتراجـع. نـدى هنـا الآن. رد الله أختهـا إليهـا. أخـذ أباهـا وأعـاد أختهـا. يبـدأ غضبهـا ينقشـع. سيسـتغرق الأمـر بعـض الوقـت، خاصـة بالنسـبة إلـى مجيـد. لكنهـم أصبحـوا عائلـة مـرة أخـرى -مهمـا عنـى ذلـك، أو ربمـا يعنـي.

تـدق السـاعة فـي الردهـة. منتصـف الليـل تقريبًـا. مـراوح التدفئـة تـدور مـن خـلال فتحـات التهويـة الأرضيـة. بـدأ الثلـج يتسـاقط فـي نـدف كبيـرة. مـن خـلال النافـذة العلويـة، تنظـر عفـاف إلـى القمـر الصاعـد.

تمـد نـدى يدهـا عبـر المائـدة وتغطـي يـد عفـاف. «لـم أتخيـل قـط أن الأمـور سـتكون سـهلة علـى أي منكمـا. أنـا آسـفة جـدًا».

تنهمر الدموع ويغمر حزن قديم صدر عفاف من جديد. تربت عفاف بيدها على يد ندى. تحاول أن تتخيل الرحلة التي خاضتها أختها دون أم وأب، أو أشقاء يهتم كل منهم بالآخر.

قالت عفاف لشقيقتها: «أنتِ هنا الآن. هذا كل ما يهم». تتذكر كلمات أبيها منذ زمن بعيد: *ارحمي الآخرين يرحمكِ الله. اغفري لغيرك، يغفر الله لكِ*. هل كان بوسعها أن تغفر دون نعمة الإسلام؟ من كانت لتصبح عليه لو لم يدخل الإسلام قلبها؟ أي شخص كانت ندى لترجع إليه الآن؟

تومئ أختها برأسها صوب الحمام. «ماج يكرهني. لا أستطيع أن ألومه». تكفكف دموعها بمنديل.

«امنحيه الوقت. سوف يتفهم في النهاية». تبتسم عفاف رغم أنها تعرف مَج جيدًا. يمكنه أن يحمل ضغينة بداخله إلى الأبد.

«ماذا عن ماما؟»

«هل ترغبين في التحدث إليها؟» تتخيل عفاف وجه أمها عندما تسمع صوت ندى. يعود إليها شيء من الغيرة القديمة. تنظر إلى ساعة الميكروويف. «الوقت الآن صباحًا هناك. يمكننا الاتصال بها إنْ كنت ترغبين في ذلك».

كانت تؤجل أي محادثة مع أمها، وها هي ذي الآن على وشك الاتصال بها لتعلمها بأخبار لا تُصدق. تفترض أن أمها ستكون سعيدة - ألم تكن ندى الحب الحقيقي في حياتها؟

تتصل بالهاتف اللا سلكي وتستمع إلى عدة رنات طويلة تدل على الاستقبال البعيد المدى.

«أيوا (مرحبًا)».

«ماما؟»

«عفاف! *يسلم راسك*. أتمنى أن يجد أبوكِ السلام الأبدي». خلال العزاء، أمطر المعزون عفاف بعبارات الإشادة والثناء، العبارة تلو الأخرى، في حق أبيها. حتى أولئك الذين عرفوا أبيها لمدة وجيزة فقط قدموا بعض تعابير المديح القصيرة. لكن الأم لا تزال غير قادرة على ذكر أي شيء يتعلق بالأب.

تقول عفاف: «شكرًا».

«كيف حال الجميع عندكِ؟ هل عزَّتكِ نسرين؟»

تتصور عفاف والدتها جالسة في شرفة منزل طفولتها، تنظر إلى وادٍ، فنجان صغير من القهوة السميكة في يدها، وسيجارة تتدلى من يدها الأخرى. في عالم بعيد عن عفاف كما كانت دائمًا. «نعم، كانت خالتي هنا اليوم».

«جيد.. جيد. كيف حالكِ؟»

«أحسن». تقف عفاف، وتدير ظهرها لندى. «اسمعي يا ماما. لدي خبر لكِ».

«خير؟ ما هو؟ هل حدث شيء لمجيد؟»

«لا.. لا. الحمد لله مجيد بخير». تلتفت إلى أختها، التي تتقلد قلادة أمهم، وتنظر إليها بعينين قلقتين. «إنها ندى. ندى هنا».

صمت يخيم على الطرف الآخر من الخط.

«ماما؟ هل أنتِ هناك؟»

«عمَّ تتحدثين؟» تقول الأم بصوت مبحوح، «ما هذا الكلام المجنون؟»

«ماما، استمعي إلي. ظهرت ندى. عادت لتقدم..».

انقطع الخط. عفاف تنظر إلى شاشة الهاتف اللا سلكي. المكالمة انتهت.

تقول عفاف: «أقفلت الخط. كان ذلك متوقعًا كما أظن». دموع جديدة تبلل عيني ندى. عفاف تضع يدها على كتفها. «إنه لأمر مدهش -عودتكِ. يمكنك أن تتخيلي مدى صدمة ماما».

الهاتف يرن. كانت الأم. تقول بصوت متهدج: «هي على قيد الحياة؟»

بعد كل هذه السنوات، لا تزال الأم غير قادرة على تحمل فكرة أن ندى رحلت عنهم بمحض إرادتها. ربما تشعر بشعور مجيد نفسه: *كان من الأسهل لو بقيت مختفية*. غياب ندى شكَّل ملامح حياة أمهم. تشعر عفاف بأنها لم تعرف والدتها بأي طريقة أخرى بمنأى عن اختفاء ندى.

«سوف أناولها السماعة». تعطي الهاتف لندى التي تحدق به للحظة. تقف وتلتقطه.

«مرحبًا. نعم يا ماما. هذه أنا». تغوص ندى في كرسيها مجددًا. تغطي جبهتها بيدها الحرة. «أنا آسفة يا ماما». تنتحب عبر الهاتف.

تلتقط عفاف فنجان شايها البارد الآن، وتتوجه إلى غرفة العائلة، حتى تمنحهما بعض الخصوصية. أم وأخت لم يكن لهما وجود حقيقي قطّ طوال حياتها، يتراءيان لها أشبه بشبحين يلتقيان مرة أخرى.

* * *

تمسح عفاف فمها بالمنشفة التي يناولها لها بلال، لا تزال تتمسك بجانب المرحاض. بعد أن غادرت ندى، بالكاد استطاعت النوم. أخرجها الغثيان من سريرها.

«يمكن أن تكون عدوى فيروسية». يقول بلال وهو يلملم شعرها بلطف، ويلفه بعيدًا عن وجهها فيما تتقيأ عفاف مرة أخرى. قطرات من العصارة الصفراوية، مرَّة ولاذعة، تحرق حلقها. تجلس على وركيها، لاهثة، فيما تحاول جمع شتات نفسها والكلام.

تهز رأسها. «أنا حامل». وما إن تقول عفاف ذلك، تعلم أنه صحيح مثل شخص يقف على عتبة دارك، شخص لم تكن تتوقع قدومه، لكنك تعلم أنه كان ينتظر هناك لبعض الوقت قبل أن يقرع الجرس أخيرًا.

الجزء الخامس

مدرسة نور الدين للبنات

طوت المرأة المسلمة يديها وفردتهما، يمكنه أن يرى الخوف يعتريها مجددًا حين يصوب بندقيته نحوها.

ناشدته: «كيف أكون عدوتكَ؟ أنت لا تعرفني. أو أي من الفتيات-» تراءى له كأنها تختنق في هذا الجزء الأخير. تساءل عن مقدار ما سمعته عن الكمين الذي نصبه للفتيات في غرفة الموسيقى في أثناء وجودها هنا. جال ببصره في غرفة الاعتراف، ثم نظر إلى السقف، ثمة فتحة تهوية مغبرة فوق رأسها مباشرة.

قال وهو يشاهد دموعها تتساقط في ثنايا حجابها: «أعرف كل ما أحتاج إليه يا سيدتي». كيف يمكنها أن تتحمل هذا الشيء فوق رأسها؟ لكنه كان مع الاحتشام تمامًا، وكان يشمئز من رؤية الطريقة التي ترتدي بها النساء في الوقت الحاضر، بطريقة تجذب الانتباه إلى أجسادهن، ثم يتجرأن على لوم الرجال على سوء ظنهم.

قالت المرأة: «أخبرني عن ألمكَ».

قال: «أي ألم؟» لن يشاركها أي شيء، ويُظهر لها ضعفه، ويسمح لها بممارسة أي ألعاب ذهنية معه. لا جدوى من إعطاء ألمه صوتًا، ومنحه مساحة خارج جسده. كان بإمكانه أن يتحمل همهمة ألمه المتواصلة طالما بقي محصورًا بداخله. تمكن هو وإيلين من العيش معًا دون التطرق مطلقًا إلى الأشياء التي حدثت

لهما - أشياء كان الآخرون مسؤولين عنها. إنْ كانت إيلين تراودها كوابيس عن عشيقها السابق وتعنيفه لها، فإنها لم تخبره بذلك قط. ولم يذكر بدوره شيئًا من ماضيه قط. كانا مثل طائرين جريحين ما عادا قادرين على الطيران، يتعايشان متجاورين في عش.

نظرت المرأة إلى حذائها مرة أخرى، يتقاطر المخاط من أنفها. همست: «أنا أعرف جيدًا عن فقد المرء أشخاصًا يحبهم».

باتت صفارات الإنذار أقرب الآن، ثم اجتاح صمت مخيف المبنى مثل اللحظة التي تسبق انفجارًا. الصوت الوحيد يأتي من نشيق المرأة، والنقر الخفيف لحذائه على الأرض. كان على يقين من أن أحد فرق الأسلحة والتكتيكات الخاصة تستعد الآن لاقتحام المبنى - الهدوء الذي يسبق العاصفة.

قال لها: «أنا لا أهتم بتاتًا بمن فقدتِه». نظر إليها من كثب الآن. كانت شفتاها شاحبتين وهي تعض على شفتها السفلى. كان حاجباها داكنين مثل اللباد البني. هل كان لشعرها اللون نفسه؟ أم كان أسود فاحمًا مثل المرأة الهندية في بنايته؟

انتقلت تلك العائلة في بداية الصيف؛ رجل هندي وزوجته، وصبيان توأم، ومولود جديد. دخل شقتهم في مناسبتين، إحداهما لإصلاح قفل الباب الأمامي. تضرر بسبب احتكاكه بزاوية خزانة خشبية كان القاطنون الجدد يحاولون جرها إلى داخل البيت. وقف المستأجر الجديد برفقته، يبتسم وهو يشاهده يزيل لوحة القفل المعدنية ويثبت لوحة جديدة. وقفت زوجته في الردهة الضيقة، شعرها الأسود اللامع مصفَّف على شكل ذيل حصان طويل. على

كتفها، تهدهد طفلًا رضيعًا ملفوفًا في قماط، أفزعه الضجيج الحاد. ربتت على ظهره الصغير، وتمتمت بهدوء في أذنه.

أعطى المستأجر الجديد ضحكة مكتومة متوترة. قال بلهجة غليظة: «أنا متأكد من أن هذه الأشياء تحدث». نظر إلى زوجته التي ظلت صامتة ومتجهمة.

قال للرجل وهو يهز رأسه في أثناء حفره في الباب: «هذه ليست كلكتا. يجب أن تكون حذرًا هنا».

تلاشت ابتسامة المستأجر الجديد، ولم يقل له كلمة أخرى بعد ذلك. استدار الرجل نحو زوجته وتحدث إليها بسرعة بلغتهما الأم. مكثت في مكانها لبضع ثوانٍ أخرى، ثم تراجعت في الردهة واختفت في غرفة النوم.

قبل أسبوعين، استُدعي إلى الشقة رقم 204. كانت هناك حاجة إلى سد فجوة في عتبة النافذة. خلال مدد تسريحه من العمل، عمل في بناية *ويلو وود* السكنية. اعتبرته إدارة البناية عاملًا متعدد الحرف -كان بالنسبة إليهم الرجل من الشقة رقم 103 الذي يقود شاحنة نقل بيضاء. وكان يمكنه أن يكسب قليلًا من المال بالباطن بالإضافة إلى معونة البطالة.

كان أمر العمل الذي وصله بالبريد الإلكتروني ذلك الصباح موجزًا: هناك رطوبة تتسرب من نافذة المطبخ إلى داخل الشقة رقم 204. فحص صندوق أدواته بحثًا عن شريط لاصق مقاوم لتقلبات الطقس، وأنبوب من مادة عازلة، وتوجه إلى الشقة رقم 204

غطت عاصفة شتوية هادرة أغصان أشجار القيقب التي تبطن بئر السلم الغربي. وتقاطر ثلج ذائب ببطء من حواف الرصيف.

كان موقف السيارات فارغًا باستثناء حافلة صغيرة لم تتحرك منذ أسابيع؛ سطحها يختفي تحت طبقة نقية من الثلج. دوَّن ملاحظة في ذهنه للاتصال باتحاد المبنى لمعرفة إنْ كان أحدهم قد تخلى عنها.

وصل إلى الطابق الثاني، ووقف لحظة عند مهبط الدرج لالتقاط أنفاسه. اصطفت طيور قرقف برؤوس سوداء فوق الدرابزين ثم حلَّقت لتحطّ فوق الأعمدة الكهربائية عندما تقدم في الممر، صندوق أدواته يحدث قعقعة. لم تكن الشقق مزودة بشرفات. وضع بعض المستأجرين مقاعد خارج أبوابهم للجلوس في الممر في أيام الصيف الحارة.

ثمة موسيقى تصدح من داخل الشقة رقم 204. سمع صوت حديث مكتوم. قرع الجرس مرة واحدة، ثم طرق الباب، لكن لم يأتِ أحد. مرت دقيقة. أدار المقبض وفتح الباب.

هتف وهو يشرئب برقبته داخل الشقة: «مرحبًا». رأى أريكة جلدية بالية مع صفوف من الوسائد المزيّنة بالخرز، وكرسي هزَّاز مصفوفًا فوق سجادة عريضة. بجانب الأريكة، خشخيشة أطفال وحيوانات محشوة صغيرة انسكبت من سلة من الخيزران. جال بعينيه في الرواق الضيق الذي يؤدي إلى حمام منفرد وغرفتي نوم ومطبخ. خطا داخل الشقة، وأغلق الباب خلفه. سرت الحرارة على الفور عبر بذلة عمله.

كانت الشقة لا تشبه مسكنه وإيلين إلا قليلًا، رغم أنهما كانتا متطابقتين في التصميم. واجه جهاز تلفاز بشاشة مسطحة وأريكة كبيرة الحجم. ركَّب المستأجرون الجدد أرففًا على الجدران رصَّت

فوقها صور مؤطرة مختلفة الأحجام. بعضها يبدو كأنه قد التقط حديثًا: الرجل وزوجته -يبدو بوضوح أنها حامل في إحداها- ولداهما التوأم يقفان أمامهما. كانوا يرتدون بدلات وربطات عنق، ويتقلدون أكاليل من الزهور حول أعناقهم. كانت المرأة ترتدي ساريًا أرجوانيًا مطرزًا بالفضة، وشعرها الأسود مفروق من المنتصف ومسحوب إلى الوراء على هيئة كعكة صغيرة.

في صورة كبيرة بالأبيض والأسود، وقف رجل وامرأة عجوزين أمام بستان، وفي صورة أخرى، ركع عدة شبان بجانب جاموس يخوض في المياه. على رف منفصل توجد صور مدرسية للتوأم. ابتسما بخجل كاشفين عن أسنان مفقودة. كانا متطابقين، مع أنه يرى أن عيني أحد الصبيين كانتا أوسع قليلًا، والصبي الآخر لديه شامة صغيرة فوق ذقنه. بين الإطارات، زهور أضاليا أحادية الجذع -صفراء وبرتقالية ووردية- تمتد خارج جرار نحاسية صغيرة.

ارتفعت الأصوات البشرية والموسيقى فيما يسير في الردهة. من المطبخ، انبعثت رائحة حلوة لاذعة. توقف أمام غرفة النوم الرئيسة، بابها مفتوح، وشاهد جهاز تلفاز صغيرًا مثبتًا على الخزانة التي اقتلعت لوحة الباب المعدنية سابقًا، خلال الصيف.

كانت المرأة الهندية جالسة على حافة السرير، ظهرها العاري جزئيًا باتجاهه. كانت ترضع طفلها، وقد خلعت جانبًا من قميصها الكتاني عن كتفها، القماش متجمع في كومة ناعمة حول خصرها.

أمسك بمقبض صندوق أدواته بقوة، ولم يصدر صوتًا في حين يراقب. أصدر الطفل أصواتًا غريبة في أثناء امتصاص

فمه الحليب. وقف يستمع وبدا كأنه قد مرت برهة قبل أن تدير المرأة رأسها وتراه. كان شعرها الداكن مضفورًا، وكانت هناك عدة خصلات طليقة تؤطر وجهها. انتفضت واقفة بسرعة أخافت الطفل. توقف عن الرضاعة وأطلق صرخة غاضبة معبرًا عن انزعاجه. «اخرجْ.. اخرجْ». صرخت المرأة في وجهه. احتضنت الطفل الرضيع لتحميه، وسقط الكم الفارغ من قميصها على جانبها وهي تغلق باب غرفة النوم في وجهه. سمع قفل الباب يدور. تسمر في مكانه لحظة. عندما ارتفع صوت المرأة عالي النبرة مرة أخرى، صارخًا عبر الهاتف، غادر مسرعًا، ومحتويات صندوق أدواته تخشخش داخل جدرانه المعدنية.

فور رجوعه إلى شقته، أغلق الباب بعناية خلفه ووضع صندوق أدواته على الأرضية المغطاة بالسجاد. ركضت الكلبة جيني نحوه. جثا على ركبتيه، ودفن وجهه في فروها. كانت الكلبة تلهث بإيقاع مع دقات قلبه المتسارعة. اقترب من غرفة النوم واستمع عند الباب حيث كانت إيلين نائمة بعد مناوبتها الليلية. كانت تحب النوم على صوت راديو الساعة الذي يعزف موسيقى هادئة. اختلط عزف الجيتار بشخيرها. أقفل على نفسه في الحمام وفك سحاب بنطلونه الجينز. خلع ملابسه الداخلية، وخفض غطاء مقعد المرحاض، وجلس. ظهرت المرأة الهندية أمام عينيه المغمضتين، حلمة ثديها الصغيرة المستديرة تبرز من وسط هالة داكنة بلون البرقوق، وشعرها الأسود اللامع يتساقط من ضفيرة. متكئًا على مقعد المرحاض، تنفس بعمق واستمنى. عندما انتهى، جمع المناديل الورقية المتسخة وألقاها في المرحاض.

في الساعة السادسة من ذلك المساء، رن جرس باب الشقة. كان هو وإيلين يشاهدان برنامج *عجلة الحظ*. تبدأ مناوبتها في المطعم عند الساعة الثامنة. جلست على أريكة تواجه كرسيه الجلدي، وكانت ترتدي زي العمل. انتعلت زوجًا من النعال الوردية الداكنة. وكانت تحبك قماشًا من كرة من الخيوط الخضراء الفاتحة، وهي تخمن إجابة ألغاز الكلمات في البرنامج. دق جرس الباب مرة أخرى، ونبحت جيني على الطارق الغريب.

قال عندما تململت إيلين فوق الأريكة: «سأفتح أنا الباب». من خلال ثقب الباب، رأى المستأجر الهندي، ويداه على وركيه، ينتظر.

سألت إيلين وهي تضع إبرتها في حضنها: «من الطارق يا عزيزي؟»

فتح الباب. لم يلاحظ في المرة الأولى كم كان الرجل الهندي أطول منه -ببوصتين، وربما ثلاث- وأنحف منه بكثير. زاد وزنه عشرين رطلًا منذ ترك عمله في شركة إكسيل. أنزل المستأجر يديه إلى جانبيه. قال «أرجوك، لا تدخل منزلي دون إذني. وفقط عندما أكون موجودًا يا سيدي». صرخت جيني على الغريب.

«صه يا جيني!». أمرت إيلين وهي تسحب الكلبة جانبًا من الطوق. وقفت خلفه تستمع دون أن تتكلم.

كان صامتًا أيضًا، في حين يتبادل الرجلان النظرات، الهندي ينتظر نوعًا من التأكيد، وعندما لم يحصل على شيء، ابتعد، وهو يهز رأسه.

أغلق الباب، غير قادر على النظر في عيني إيلين.

«ماذا كان هذا بحق الجحيم؟»

«لا شيء».

«ماذا فعلت؟»

«كان لديهم نافذة تُسرِّب المياه إلى داخل الشقة».

«هل كانت زوجته بمفردها؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«نعم».

«و؟»

«لا شيء. لم أفعل شيئًا يا إيلين. فليهدأ بالكِ».

«ما الذي فعلته؟»

«لم يرد أحد على الجرس فدخلت». كان من الصعب النظر إلى إيلين. «كان لدي أمر عمل». كانت عيناه مثبتتين على نعلها الداكن الذي كان يتحول إلى اللون الرمادي على طول حوافه الخارجية.

«بحق المسيح! ماذا دهاكَ بحق الجحيم؟ لا يدخل المرء إلى شقة أحدهم دون أن يؤذن له». أمسكت بإبرتها وكرة الخيوط، وصفعت باب غرفة النوم خلفها. جيني تئن وتخدش الأرضية تحت الباب هنيهة، قبل أن تعود إلى الغرفة الأمامية.

غرق في كرسيه، متعبًا فجأة. كانت عضلاته تؤلمه كما لو أنها نُفخت حتى آخرها بالهواء وراحت تتمدد ببطء تحت جلده.

نجا من المشكلة بتحذير. على حد علمه، لم يُخطر الرجل الهندي أي شخص آخر. حدق في شاشة التلفاز مدة طويلة. صور المتسابقين وهم يدورون فوق عجلة، ويصفقون بشدة لم تُسجَّل في دماغه. كل ما كان يراه ويسمعه هو الرجل الهندي الواقف أمامه، تتردد كلماته الثقيلة في رأسه: *من فضلك لا تدخل منزلي*...

كان المستأجر قد دعا الشقة رقم 204 *بالبيت*. طاف بناظريه في أرجاء شقته، مكان سكنه هو وإيلين لمدة اثني عشر عامًا مع ذلك لم يكن ثمة أي أمارات حقيقية تشير إلى وجود عائلة داخل فضاء هذه الشقة، ولا شيء يمكن تسميته بالبيت حقًّا.

لم يناقش هو وإيلين فكرة إنجاب أطفال مطلقًا -كانا في أواخر الأربعينيات من عمرهما عندما التقيا. أمضت إيلين وقت فراغها في حياكة الجوارب الصغيرة والقبعات لزملائها في العمل، وأحفاد أختها، الذين علَّقت صورهم على ثلاجتها. نظر إلى سلة ملأى ببكرات الغزل عند قدم الأريكة حيث كانت إيلين جالسة قبل قليل. كانت السلة التي رآها في الشقة رقم 204 عامرة بالألعاب. وعلى الحائط عُلِّقت صور لأشخاص في أماكن لم يرها من قبل. امتلكوا جميعًا أماكن جاؤوا منها يريدون تذكرها أما هو فقد أراد أن ينسى هاتيك الأماكن. غادر كل مكان عاش فيه ونفَّض الذكريات المتعلقة بكل منها عن ظهره. ومع ذلك لا تزال تلك الأماكن تتشبث به وتطارده.

جلس على الأريكة، إيلين حردانة في غرفة نومهما. غلا الغضب بداخله ليحل محل خوفه السابق من القبض عليه. تعرض للإذلال على يد ذلك الرجل البني القذر. كيف يجرؤ الرجل على الظهور أمام عتبة بابه؟ من هو بحق الجحيم؟ لماذا لم يمكثوا جميعًا في بلادهم اللعينة؟

عندما غادرت إيلين للعمل دون أن تخاطبه بكلمة واحدة، فتح خزانة التخزين المعدنية في غرفة النوم الثانية، وسحب مسدس روجر نصف أوتوماتيكي، الذي يستعمله في ميدان الرماية. دسه

في الجزء الأمامي من سرواله ولبس سترته وغادر الشقة. طرق بصوت عالٍ باب الشقة رقم 204. ظهر الرجل الهندي وحاجباه مجعدان.

«نعم؟»

«لو هددتني مرة أخرى، فستقع في مشكلة». نفَّض سترته إلى الخلف، كاشفًا عن مؤخرة مسدسه المضغوط بين حزامه وبطنه. «هذه بلدي. أنت لا تنتمي إلى هنا. هل تفهمني؟» اندفعت الكلمات من فمه. في البداية لم يكن متأكدًا من أنه نطق بها بصوت عالٍ بالفعل. سمعها عشرات المرات داخل رأسه، وكان يقرؤها على الإنترنت أسبوعًا بعد آخر. الآن الكلمات تحوم في الفراغ بينه وبين الرجل الهندي، الذي امتقع وجهه ببطء. شعر برضا غريب، مثل أول نفثة سيجارة بمجرد أن يتخطى المرء نوبة السعال والمذاق غير السار.

دس أحد التوأمين رأسه تحت ذراع والده الذي كان يوارب الباب. سرعان ما أمر الرجل الهندي ابنه بالرجوع إلى الداخل. جأر الرجل الهندي بصوت عال: «كيف تجرؤ...».

أغلق سحَّاب سترته وعاد أدراجه إلى شقته، وهو يمشي ببطء متعمد، متجاهلًا الجيران في ذلك الطابق الذين خرجوا على إثر سماع الضجة.

ظهر ضابطان من شرطة تيمبست بعد نصف ساعة أمام باب منزله، وأضواء سيارات الدورية تدور في مرأب السيارات، ملقية بوهج متنافر بلا ضوضاء.

«مساء الخير يا سيدي».

كان بإمكانه أن يراهما يقيسان الخطر الذي يمثله، ويحدقان من فوق كتفه إلى داخل الشقة. لكنهما لم يطلبا منه الخروج.

قال الضابط الأول ملتفتًا إلى شريكة من أجل المساعدة: «رجل يدعى السيد با..».

نقر الضابط الثاني على دفتر ملاحظاته بقلم رصاص. «بات-نا-غار».

أومأ الضابط الأول برأسه. «نعم، السيد بات-نا-غار أبلغ إنك لوحت بمسدس في وجهه يا سيدي. هل بحوزتك أي أسلحة، يا سيدي؟»

«نعم، وجميعها قانونية ومرخصة. يمكنكما الدخول والتحقق من جميع مستنداتي».

قال الضابط الثاني: «اسمع يا سيدي. قد تكون لديك ملكية مشروعة، لكن لا يمكنك تخويف جيرانك بالأسلحة النارية».

كذب: «لم أفعل. ذهبت إلى هناك لأتحدث. ستصدق قطعة القذارة تلك وتُكذِّبني؟ عشت في هذا المبنى مدة أطول منه. أعمل على صيانة كل شقة. لقد ولدت في هذا البلد، بحق الرب».

تبادل ضابطا الشرطة النظرات. تذكر الرجال في إحدى غرف الدردشة على الإنترنت وهم يشتكون: رجال الشرطة الجبناء لن يدافعوا عن العدالة بعد الآن. قلقون جدًا من الصوابية السياسية.

«سيدي، نحن نحاول فقط الوصول إلى حقيقة الأمر. قال جيرانك إنهم رأوك تغادر شقة السيد باتناغار. اعتبر ذلك تحذيرًا يا سيدي. احتفظ بأسلحتك بأمان في مكان مغلق، واتصل بنا إذا كنت تواجه مشكلة. لا نريد أن يتفاقم خلاف صغير، الآن، أليس كذلك؟»

لم ير الرجل الهندي أو زوجته بعد ذلك اليوم، فقط ولديهما التوأم اللذين كان يشاهدهما من شقته في الطابق الأول في أثناء صعودهما إلى حافلة المدرسة كما فعلا هذا الصباح.

رن جرس المدرسة، ما دفعه إلى العودة إلى الحاضر في غرفة الاعتراف. صوَّب البندقية نحو المرأة المسلمة الباكية بصمت. كانت غريبة عنه مثل الخلفيات التي رآها في تلك الصور في شقة الهنود، بعيدة مثل الأماكن المرسومة بحبر باهت على خرائط السيد هيلوكس. لكن اليوم سيدنو أكثر من المعرفة.

قال: «انزعي هذا الشيء عن رأسكِ. أريد رؤية شعركِ».

هنا والآن

1

بينما يتردد صدى الطلقات عبر فتحة تهوية السقف في غرفة الاعتراف، يتركز تفكير عفاف الأول على عزمية.

في أي حصة توجد ابنتها الآن؟ أي فصل دراسي؟ أي طابق؟ لكنها لا تستطيع التركيز. يحدث كل شيء بسرعة كبيرة -في إحدى اللحظات كانت تصلي، وفي اللحظة التالية سمعت إطلاق نار، وهو ما تعتقد في البداية أنها مفرقعات نارية. ثم تردد صدى صرخات من خلال فتحة السقف. ينسحب الدم من ساقيها فتسقط إلى الوراء في مقابل الجدار. اتصلت بالحارس لُو مرة أخرى، لكنه لا يرد. هي وحيدة. بأصابع مرتجفة، تضغط على رقم 911 في هاتفها المحمول.

يطلب مسؤول استقبال المكالمات في مركز شرطة تيمبست: «من فضلك حدد حالة الطوارئ التي تواجهها».

«يوجد مطلق نار في المبنى. مدرسة نور الدين. خمسة وخمسون، شارع ويست تشيلسي». تدهش من مدى دقة تقديمها للمعلومات؛ قوة غامضة تسمح لها بتكوين جملة متماسكة.

ينفصل عقلها فجأة عن الرعب المطلق المحيط بها في حين تحاول التركيز والتذكر. تذكر ماذا؟ ماذا تفعل بعد ذلك؟

الهرب بأسرع ما يمكنها. تتدفع أجزاء ومشاهد بسرعة عائدة إلى عفاف من تدريبات الشرطة التي كان يتعين عليها هي وطاقم مدرستها إكمالها كل عام.

أتـى صـوت طلقـات الرصـاص مـن غرفة موسيقى الآنسـة كاميليا. يقـع مخـرج الطابـق الأول على بعـد أمتـار قليلـة فقـط. يمكـن أن تصل إلـى موقـف السيارات فـي أقل مـن دقيقة.

لكنها لن تترك عزمية. تهاتف بلال.

«هناك مطلق نار في المبنى».

«أين أنتِ؟» صوته مليء بالخوف.

«أنا بأمان».

«وعزمية؟»

«لا أعـرف -لا أسـتطيع أن أتذكـر فـي أي حصـة هـي الآن. لـم ترسـل لـي رسـالة نصيـة».

«اهدئـي يـا دراجـا موجـا (عزيزتـي)»، يحـاول تهدئتهـا، وهـذا التعبيـر المحبَّب يجبـر جسـدها علـى الدخـول فـي حالـة مـن البـكاء المدمِّـر للأعصـاب. «تنفسـي، يـا عفـاف. تنفسـي بعمـق. تماسـكي».

يتعالى صوت سارينة من بعيد.

بمجـرد وصـول الشـرطة إلـى مـكان الحـادث، تتمثـل مهمتنـا الأساسية فـي تحييـد الخطـر. المسـاعدة الطبيـة ثانويـة بعـد إزالـة عمـلاء فـرض الأمـن مصـدر التهديـد مـن المبنـى.

تحـاول مقاومـة الصـور التـي تخطـر فـي ذهنهـا لطالباتهـا، أذرع وسـيقان متباعـدة فـي أنحـاء غرفـة الموسـيقى. حوامـل معدنيـة مقلوبـة، وأوراق كلمـات الأغانـي ترفـرف متهاديـة فـوق الأرضيـة، غارقـة فـي الدمـاء. كـم منهـن مـا زلـن يتنفسـن، ربمـا بعضهـن يتظاهـرن بالمـوت، ويدعيـن يائسـات بـأن يسـتدير الرجـل الأبيـض بعيـدًا ويخـرج مـن البـاب؟

عندما تستعيد قدرتها على الكلام مرة أخرى، تقول لزوجها، «لا أستطيع تركها».

«اخرجي الآن إذا سنحت لك الفرصة يا عفاف. لا تكوني غبية».

لا تسعى للحصول على إذنه للتخلي عن ابنتهما. لا تريد أن تشعر بأي ذنب عندما يمكنهم النظر مستقبلًا إلى هذا الحدث. تفضل الموت على ذلك.

لكن لا وقت للتفاوض. تسمع خطوات أقدام ثقيلة تتعمد أن تكون مسموعة - ليس صوت فتاة صغيرة تركض هاربة. *مطلق النار خارج باب غرفة الاعتراف.*

إذا كنتِ محاصرة، ابقي مختبئة. اكتمي صوت أجهزتكِ الإلكترونية.

«أحبكَ». تنهي المكالمة عندما ينفتح الباب فجأة. لن يفسد الدخيل تواصلهما الأخير.

الراديو ثنائي الاتجاه. نعلاها الجلديان. هاتفها المحمول. مصحف القرآن. هذا كل ما في حوزتها. عفاف تفكر في رميها على الرجل الأبيض الذي ركل الباب فاتحًا إياه. رمي كل ما بوسعها نحوه لتشتيته مثلما دربوها وطاقم موظفاتها على أن يفعلن في مثل هذه المواقف. أمرهن ضابط الشرطة المفتول العضلات في أثناء التدريبات: *عليكن أن ترمين كل ما في وسعكن باتجاه مطلق النار. لا تترددن. ستشل تلك المبادرة حركته للحظات كفيلة بأن تجردنه من سلاحه. ولكن إذا كنتن بعيدات عنه بما فيه الكفاية، فاهربن بأسرع ما يمكنكن.*

يقف الرجل الأبيض أمامها حاملًا بندقية، مشهد لم تره قط خارج عالم التلفاز والأفلام. لم تحمل مسدسًا من قبل في حياتها. الرجل الذي أمامها لا يبدو قويًا -هل أخافه صوت نيرانه أيضًا؟

كان مدربو التعامل مع الأزمات يشيرون إلى المهاجم بالضمير «هو». هل تخيلت أي شخص آخر غير رجل –رجل أبيض– في تلك السيناريوهات؟ هل الرجل في مخيلتها كان يشبه هذا الرجل الذي يصوب عليها بندقيته الآن؟ الحقيقة أن عفاف لم تتخيل مثل هذا السيناريو على الإطلاق. ولا حتى في كابوس.

كيف يمكن لها أو لأي شخص أن يستوعب مثل هذا الشيء؟ إنْ لم يصبها الخوف بالشلل، فستلوم نفسها على كونها ساذجة جدًا. يا له من استهتار لا يمكن وصفه. كل تلك التهديدات بالتفجيرات وأعمال التخريب المحتملة كانت بوادر مهَّدت لتلك اللحظة، أليس كذلك؟ كانت ناظرة مدرسة نور الدين للبنات وقد فشلت في واجبها في حماية طالباتها وطاقم موظفيها.

تتبع حركات الرجل الأبيض البطيئة، رؤيتها مشوشة بالدموع. تدعو في صمت، *لا حول ولا قوة إلا بالله*.

بندقية مطلق النار، امتداد لذراعه، تشير إليها حتى تجلس. هي سعيدة بالجلوس قبل أن ينهار جسدها من تلقاء نفسه. تأمل أن يكون الأمر سريعًا. تردد في قرارة نفسها: *لا حول ولا قوة إلا بالله*.

يجول مطلق النار بعينيه في غرفة الاعتراف، ويحدق في السقف. «ما الذي كنت تفعلينه هنا؟» يبدو صوته أجشَّ كأنه يعاني التهابًا في الحلق. عقب مسدس قديم الطراز يبرز من

غمده. يستند بظهره إلى الباب، جدارية جبرائيل ومريم محجوبة جزئيًا بجسمه.

«أنا - لا شيء». هل تعترف له بأنها كانت تصلي كما تفعل كل يوم في هذا الوقت؟ أم أن ذلك سيغضبه أكثر؟ ربما لو لم تكن تحاول اختلاس بضع لحظات من يومها المزدحم من أجل الاختلاء بنفسها، فربما لرأته في الردهة وأوقفته، وطلبت رؤية تصريح عمله. ربما ظن الحارس لو أنه رجل تصليحات. يرتدي بذلة عمل -من السهل الاعتقاد بأنه كذلك. أم أن الحارس لُو جزء من هذه المؤامرة الشنيعة؟ تتقلب معدتها. هل وثقت بلُو كليًا من قبل؟ كان سلوكه تجاهها وتجاه الطالبات يتسم بعدم الاكتراث، لكنها استطاعت أن ترى وميضًا من الازدراء في عينيه عندما أجرت معه مقابلة التعيين. لن يعتقد البيض أبدًا أنهم مثلهم. ومع ذلك فقد وثقت به بما يكفي لتوظيفه، وهو ما لا بد وقد ضخَّم إحساس التفوق بداخله، واستغله ضدها. كان لو متعجرفًا جدًا، بحيث سمح لقاتل بالدخول دون التحقق من هويته والمطالبة برؤية تصريح عمله *لأن القاتل أبيض البشرة*.

تقول أخيرًا: «كنت أصلي».

يومئ برأسه بشكل غامض. للحظة تخيلت عفاف أنه سينكس بندقيته. لكنه يتشبث بها، محطمًا أملها الأحمق. ثم يسألها عن أطفالها. الأمل يرفرف مرة أخرى في صدرها.

«لديكِ أطفال؟»

تريد أن تخبره بكل شيء، كل حكايات ابنيها وابنتها حتى ذلك الوقت. كيف كان أيمن انتقائي في أكله، وكيف ظل أكرم يتأتأ

في الكلام حتى بلغ الثانية عشرة من عمره. وكيف حدق ابناها في أختهما الرضيعة عزمية وهي نائمة في سريرها، مدهوشين أنهما كانا صغيرين جدًّا في مرحلة معينة من حياتهما. تظهر هذه اللمحات في مونتاج عبر ذهنها، بكرة فيلم لحياتهم تتسارع وتتباطأ في آن واحد.

أناشد الإنسانية بداخلك وبداخل أحبتكَ.

أين سمعت تلك الجملة؟ فيلم تشويق قديم شاهدته مع بلال في إحدى الليالي بعد أن أخلدا ولديهما إلى النوم. كان الخاطف في الفيلم يحتجز فتى أشقر رهينة، وكانت والدته تقف بجانب زوجها الذي التفت ذراعه حول كتفيها، وتتحدث في مؤتمر صحفي، تستجدي رأفة الخاطف، إنسانيته.

ستذكر عزمية باسمها، لكن ماذا عن الأربعمئة فتاة الأخرى المسؤولة عنهن؟ تريد أن تنطق باسم كل مسلمة حتى يسمع الرجل الأبيض عن الحياة والإمكانات تتدفق من خلال كل مقطع تلفظه رغم الغرابة التي قد تبدو بها تلك الأسماء على أذنيه.

تبدأ إخباره: «نعم. لدي ولدان وبنت. ابنتي ترتاد هذه المدرسة. اسمها عز-».

يسكتها بسرعة. تريد أن تسأل الرجل الأبيض إنْ كان لديه أطفال أيضًا. والد من هو؟ ما حكاياته عن ابنه أو ابنته؟ كيف وصل إلى هذه النقطة؟ هل فقد أختًا ثم وجدها؟ تريد عفاف أن تعرف، رغم أن رعبها يخنقها ويهددها بالإغماء. ربما سيكون ذلك أفضل. أن تفقد وعيها ويلفّها النسيان. ربما لن تشعر بالرصاص وهو يخترق جسدها بعد الآن. لكنها تحارب للحفاظ

على تركيزها. بقاؤه في غرفة الاعتراف القديمة بصحبتها، يعني أنه بعيد جدًا عن عزمية، وعن الفتيات الأخريات.

تريد أن تعرف. ما الذي قاد هذا الرجل إلى هذه اللحظة؟

يرن جرس المدرسة ويفزعها. تنظر إلى باب غرفة الاعتراف. ثمة صوت غريب؛ لا يتبع قرع الجرس كالمعتاد هدير خطوات أقدام، أو ثرثرة فتيات صغيرات تزداد حدتها تدريجيًا. هل هم بالفعل في الحصة الخامسة؟ ستحضر عزمية الآن مادة علم النفس للتعيين المتقدم- ثمة اختبار هام اليوم. تناثرت بطاقات ملاحظات عزمية الدراسية على سريرها الليلة الماضية، كلمات مكتوبة بأحرف كبيرة مميزة لخط كتابة ابنتها.

والآن ها هي عفاف عالقة في غرفة بصحبة خطر لم تتوقعه.

أو هل كانت؟ لطالما شعرت بأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها حول الأشخاص البيض. كانت الدونية تتخمر ببطء داخلها، دونية بدأت وهي فتاة صغيرة حين سحق المعلمون إمكاناتها لأنهم لم يصدقوا أنها كانت ذكية بما فيه الكفاية. في حياتها اليومية، نظرت إليها النساء البيض باحتقار صامت كما لو كانت تمثل تهديدًا لوجودهن. الرجال يرمونها بنظرات هازئة، عاصفة عنف صامتة تتبلور في أعينهم عندما تمر بهم في المطارات، في مواقف السيارات.

ينقل مطلق النار وزن جسده على الأرض ويصوب بندقيته نحوها. تتفحص وجهه؛ عينان رماديتان لا ترمشان، تجاعيد تتخلل جبينه، شعيرات دموية متكسرة تبرز من أنفه. هل كان والده مدمنًا على الكحول مثل أبيها؟ ربما عانت والدته أيضًا نوعًا من

المرض العقلي لم يمتلكوا اسمًا له بعد عندما كان طفلاً؟ طرف بندقيته يخدش الأرض. كل حركة وكل إيماءة لها أهمية بالغة في حين تحاول عفاف فك طلاسم أفكاره وتقدير حركته التالية. ثم يغتم وجهه، ذكرى شيء معين تستولي عليه فجأة. تتساءل عفاف: *ما تلك الذكرى؟ هل ثمة يد تضغط على كتفه، أو صوت يهمس في أذنه كي لا يتمادى أكثر من ذلك؟* لكن اللحظة تمر، ويلتفت الرجل إليها ويقول بتهكم، «ماذا تعرفين عني؟ أنت لا تهتمين كثيرًا بي أو بهذا البلد. أنت لا تنتمين إلى هنا».

تبتلع غصة مؤلمة في حلقها. كم مرة سمعت ذلك؟

تميل إلى الأمام وتقول متوسلة: «ولدت في هذا البلد - مثلك تمامًا».

«حقًا؟ أنتِ بالتأكيد لا تتصرفين كأنكِ كذلك». كانت عينا مطلق النار تحومان فوق جسدها قبل أن تستقر على حجابها. «لا، يا سيدة، أنت لا تنتمين إلى هنا على الإطلاق».

«أنا لست عدوتكَ».

«بلى، أنتِ عدوتي».

«كيف أكون عدوتك؟ أنت لا تعرفني حتى. أو أيًا من الفتيات هنا..». لم تستطع إكمال جملتها.

«أنا أعرف كل ما أحتاج إليه يا سيدتي».

تكفكف عفاف دموعها بأكمامها التي تصبح مبللة، مثل المرات التي تنزلق فيها قطرات المياه فوق معصمها في أثناء وضوئها، درز خياطة أكمام ثوبها مبللة من الماء البارد الذي رشته على وجهها.

همست للرجل: «أخبرني عن ألمكَ».

«ماذا قلتِ؟»

«ألمكَ. أخبرني عنه».

يمكنها أن ترى اهتزازًا في وقفته، كما لو كان على وشك الانحناء إلى الأمام حتى يهيئ نفسه لمحادثة معها. يقول ساخرًا: «أي ألم؟»

تهمس: «أعرف عن فقدان المرء أشخاصًا يحبهم».

يقول منفعلًا: «أنا لا أهتم بما فقدته بتاتًا. انزعي هذا الشيء عن رأسك. أريد أن أرى شعرك».

تلمس حجابها بشكل غريزي كما تفعل في كثير من الأحيان تحت وطأة نظرات الغرباء، تعابير وجوههم المشوبة بالازدراء، التي تعكر صفو بداية يوم جيد. أحيانًا تكون النساء أسوأ، يرمينها بنظرة من الضغينة والشفقة، سؤال يرتعش على شفاههن دون أن ينطقن به: *هل يجبركِ زوجك على ارتداء هذا الشيء؟*

وجه الرجل الأبيض جامد. تتقلب معدتها من الرعب والعار. *إذن هل هذا هو الأمر؟ مجرد قطعة قماش؟* لكن أي قوة كانت كامنة في الحجاب منذ المرة الأولى التي ارتدته فيها في منزل كوكب، إنسانة غريبة حدقت إليها في المرآة. والمرة التي حاولت أمها انتزاعه عن رأسها قبل محاولة انتحارها بزجاجة المنظف. أصبح حجابها شيئًا يثير الكراهية والخوف. ومع ذلك، أين لتكون الآن من دونه؟

كرست نفسها حتى تكون مسلمة جيدة، حتى تؤدي كل ركن من أركان دينها، وتربي أطفالها ليكونوا كائنات مخلصة وحميدة

الأخلاق. شعور بالخيانة يطعن أمعاءها؛ *أهكذا سيدع الله حياتها تنتهي؟* تشعر فجأة بأنها انخدعت برضوخها القانع، ذكرى ابتسامة أمها الخبيثة تُشعل دماغها. ماذا لو رفضت أن تتبع أباها ذلك اليوم منذ أكثر من عشرين عامًا وهي تصعد درج مبنى متهالك إلى أرضية عامرة بالمؤمنين المنتظرين هناك بأرواح مبتهجة؟ كان من الممكن أن تهرب بدلًا من ذلك مع أول ولد يقدم لها فرصة للفرار بعيدًا بعد التخرج من مدرسة هوفر الثانوية. مثل ندى. كان من السهل إلقاء كيس قمامة مملوء بملابسها في المقعد الخلفي لسيارة والقيادة بعيدًا دون أن تقول وداعًا لأي أحد، ولا حتى مجيد. ربما كانت لتعبر حدود الولاية إلى ويسكونسن، أو تقود شرقًا صوب إنديانا دون النظر إلى الوراء أبدًا. وربما كانت لتنجو اليوم. ربما كان اليوم ليغدو كابوس شخص غيرها.

أم أن الله قرر أن اليوم سيكون نهاية حياة عفاف، إن لم يكن هنا، ففي مكان آخر؟ حادث سيارة على طريق سريع مكتظ. سقوط مميت خارج مسكنها. نهاية نوبة مرض مؤلمة بالسرطان.

تغمض عينيها بقوة. *لا حول ولا قوة إلا بالله*. لن تضعُف. إيمانها كل ما تبقى لها، شيء لا يزال ملموسًا، رغم أنه أنسل من قبضتها للحظات. *الأمر بيد الله*، تتردد في ذهنها الكلمات التي قالتها قبل أيام قليلة عندما طمأنت إحدى معلماتها أن الحياة تسير وفقًا لإرادة أعظم تتجاوز إرادة البشر، مهما حاول المرء الالتفاف على القدر أو الهروب.

عندما تفتح عفاف عينيها مرة أخرى، يسري هدوء غريب في عظامها. تنظر إلى مطلق النار وتسأله، «هل خلعه سينقذ حياتي؟

هل سيجعلني إنسانة؟» هذه الكلمات تخدر خوفها الحالي مثل عضة الصقيع بعد ساعات من البرد القارس.

الرجل الأبيض صامت، لا يزال يصوب البندقية نحو رأسها. «هذه الخرقة تجعلكِ شريرة. أنت لا تنتمين إلى هنا عندما تختارين ارتداءها».

تقول له مرة أخرى: «ولدت في هذا البلد. مثلك». يتدفق الغضب في عروقها. لم يقتلها بعد –تضغط أكثر، متحدية هذا الرجل الأبيض، رغم أن هذه قد تكون لحظاتها الأخيرة.

يهز رأسه، ميلان طفيف سرعان ما يصير هزَّات قوية يمينًا ويسارًا: «لا. نحن لسنا متماثلين».

تشد ثنايا القماش حول رقبتها. «هل هذا ما يفرِّقنا؟ هل هذا ما يقف في طريق فهم كل منا للآخر؟»

يكرر: «لسنا متماثلين»، رغم أن عفاف تسمع شيئًا من التردد في صوته. يسند بندقيته إلى ساقه، ولا تزال إصبعه على الزناد.

ارمي كل ما بوسعك على مطلق النار.

قبل أن يعود الخوف إليها، تقذف عفاف بنفسها نحوه، الجدارية خلفه محض غشاوة.

تسقط بندقيته على الأرض. يلكم كتفيها، وجانب رأسها. تنشب أظافرها في وجهه وتركله بركبتها ما بين فخذيه.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

يمسكها من حلقها ويضرب جسدها. ترفس وتصفع، لكنه يمسكها بقوة أكبر. يلقيها على الكرسي، ويقلب المنضدة. يقع المصحف على الأرض بجانبها. يتباطأ الزمن، وتشعر كما لو

كانت تحت الماء. تراه يسحب المسدس من غمده، ويوجهه إليها.

ترفع يديها قبل أن تخترق الرصاصة جلدها مثل سريان تيار كهربائي. بقع الدم تتناثر على أجنحة جبرائيل.

لا حول ولا قوة...

تشعر بكل رصاصة تخترق بطنها، الألم شديد لدرجة أنها لم تعد تحس به، كأنها تغرق في آتون من النار. ثم لحسن الحظ خدر تام.

إلا بالله.

يتبع ذلك اندفاعات من الضوء، كل منها مثل نجم ينفجر ويطلق ذكرى كامنة.

أول مرة ترى والدتها. رفعها أصابعها الضئيلة نحو شفتي أمها.

مزيد من اندفاعات الضوء التي تكشف حقائق غامضة؛ *لا تزال عزمية على قيد الحياة.*

هي متأكدة الآن. يأتي هذا اليقين من مكان بدائي بداخلها، تحت طبقات من الجلد والأنسجة والأعضاء والعظام. أكثر جوهرية من خلاياها، وأنثويتها.

لا توجد صورة أو رؤية، فقط إحساس لا يمكن سبره بالسلام والأمان لم تختبره من قبل، مثل الزفير العميق بعد حبس أنفاسك مدة طويلة جدًا.

يمكنها أن تستلم الآن، وتترك الضوء يغمرها.

2

طنين هادر. مثل رفرفة مئات الأجنحة الصغيرة. ثم تتفكك الأصوات: *صرخة صفارة، عجلات معدنية تتدحرج على الرصيف، صوت فتاة صغيرة.*

ماما.

لا توجد صور، أصوات فقط. بعضها مكتوم كالهمسات، وبعضها الآخر مدوٍ مثل صرخات في غابة ساكنة.

نبضة قلب. هل هي لها؟

ماما.

هناك ضوء، لكنها لا ترى أي شيء. أصوات فقط.

ماما.

أريد العودة إلى الوطن.

كلمات مألوفة سمعتها منذ زمن طويل. وكلمات أخرى تتجرف نحوها في الضوء:

يجب أن تشعري بالراحة من حقيقة أنها ما زالت موجودة.

انظر ماذا يحدث عندما تمنح ابنتك كثيرًا من الحرية. هذا البلد سوف يختطفها.

أريد أن تبدأ حياتي من جديد.

إنها بيد الله يا حبيبتي.

نحن لسنا متماثلين.

الانفجارات مرة أخرى. يتصاعد الضغط داخل جمجمتها. الحرارة تحرق بطنها. تطفو بينما يترك الهواء جسدها.

ماما.

عفاف. أيمكنك سماعي؟

جفناها ثقيلان مثل أكياس الرمل. ثمة انسدادات في أنفها وحلقها. كيف يتوقعون منها أن تجيب؟

بينما تسري محاليل وريدية عبر معصميها، تتنقل عفاف عبر نوع جديد من الوعي، وتستكشف أشياء مألوفة أكثر: *نبرة صوتها، ومذاق حساء الدجاج.*

عائلتها تحوم حولها. يبدو أنها ليست وحدها أبدًا في حالة ما بين اليقظة والنوم. أيمن وأكرم مثل عملاقين ينظران إليها، أعينهما قلقة من كل الأنابيب التي تخترق جسدها. تزيل عزمية جوارب المستشفى السميكة وتدلك ساقيها وقدميها وتُبقي شفاه عفاف رطبة بالبلسم. في البداية تراقبهم من خلال شقوق ضيقة في عينيها، أطرافها ثقيلة فوق السرير كما لو كانت ملأى بالرصاص.

شقيقتها ندى تطير الآن من فلوريدا إلى هنا حتى تعتني بعزمية وتكون ونسًا لها، فيما يجلس بلال بجانب سريرها يقرأ القرآن ويمسد ذراعها العارية.

تسمع مجيد يتحدث إلى أمها في مكالمة دولية عبر هاتفه المحمول في حين يقف بجانب النافذة. صوته يتهدج ثم يستعيد رزانته. حتى الآن، هو الوحيد الذي يمكنه أن يواسي والدتها، وطمأنتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

في زاوية غرفتها بالمستشفى تلفاز بشاشة مسطحة مثبت بالجدار لا يُشغَّل أبدًا، صامت مثل ثقب أسود في مقابل الجدران المطلية باللون الرمادي الداكن.

لن يخبرها بلال بأي شيء مما حدث. «في الوقت المناسب. عندما تستردين قوتك مرة أخرى. يجب أن تركزي على نفسك، يا دراجا موجا (عزيزتي)».

ما تعرفه من فرقة من الجراحين والممرضات المحيطين بها بعبارات مختصرة، هو كل ما تحمَّله جسدها. ثلاث رصاصات في بطنها، ورصاصة رابعة اخترقت يدها اليسرى، في التجويف ما بين الإبهام والسبابة. عانت نزيفًا تتطلب عمليتي نقل دم.

تستوعب ببطء مصطلحاتهم الطبية مثل التقطير الوريدي، رضوض داخلية أولية وثانوية. تعلم أن الأخير أسوأ: من الصعب جدًّا التنبؤ بالمضاعفات التي قد تنجم عن الأعضاء التالفة.

أخبرها أحد الأطباء، فقط الوقت سيخبرهم بتلك المضاعفات. لحسن الحظ، الكبد والقولون بخير.

يتنفس بلال الصعداء: *الحمد لله*.

لكن ما تريد أن تعرفه حقًّا لن يقولوه لها.

هل أنقذوا الأخريات؟ بناتها؟ أولئك اللاتي حاولن الهروب في غرفة الموسيقى وهي تستمع إلى صراخهن فوقها -هل رئاتهن وقلوبهن الشابة لا تزال سليمة وغير مشوَّهة، خالية من شظايا الرصاص الشريرة؟ وماذا عن الآنسة كاميليا، معلمة الموسيقى؟

***

كوكب، أعز صديقاتها، تزورها كل يوم، وفي النهاية تنجح عفاف من كسر عزيمة المرأة، وتقدم لها كوكب تفاصيل صغيرة عن آثار الدمار، وتغذي حنقها مثل قضمات من ثمرة برقوق حامضة. ومع ذلك تطالبها عفاف بالمزيد.

«كم عددهن؟»

«أربع عشرة فتاة والآنسة كاميليا، الله يرحمهن». تنشق كوكب في منديل ورقي.

تتخيل عفاف الفتيات الأخريات يزحفن إلى الخارج تحت طاولات الكافيتريا، وأخريات يندفعن من مراحيض الحمامات ومن خلف مدرجات صالة الألعاب الرياضية. ويجدن ذويهم ينتحبون بقلق على الرصيف. الآباء والأمهات يطوقون بناتهم بأذرعهم، ولا يتركونهن.

ترى الآباء الآخرين، ينتظرون وينتظرون، يدعون من أجل أن يُنجي الله بناتهم، وأن يتمكنوا من إمساكهن مرة أخرى، وإلى الأبد.

لكن بناتهم لا يخرجن من المبنى أبدًا. يتشبث الآباء والأمهات بعضهم ببعض فيما تُجرُّ النقالات من أبواب الخروج واحدة تلو الأخرى، تحمل جثثًا ملفوفة في أكياس بلاستيكية.

وماذا عن مطلق النار؟ تريد عفاف أن تسأل، لكنها لا تستطيع أن تجبر نفسها على قول ذلك. ستكتشف لاحقًا من التقارير الإخبارية المتداولة أن مطلق النار حاول الانتحار عندما اقترب فريق الأسلحة والتكتيكات الخاصة منه.

«إرادة الله»، هذا ما تقوله كوكب، محطمة خيالات عفاف. «يرحمنا الله جميعًا».

تومئ عفاف برأسها بغموض، يدها المغطاة بالضمادات ترتجف فجأة، في حاجة إلى شيء حتى تتشبث به، شيء لا تتخلى عنه أبدًا.

3

تتحسس الحارسة جسد عفاف، وتفحص ثنايا حجابها، أصابعها تضغط على القماش حول رقبتها. «حسنًا. تقدمي».

يشير إليها أحد الحراس وتمر عبر جهاز الكشف عن المعادن. يفتشون محتويات حقيبة يدها فوق طاولة معدنية. يُخرج الحارس علبة من حبيبات النعناع من حقيبتها. «لا يمكنك حمل هذه على متن الطائرة». يرمي بها بعيدًا فتصطدم بقعقعة بداخل صندوق قمامة معدني كبير.

يلوح لها حارس آخر. «تمام. امشي على طول خط الممر هذا».

تصل إلى منطقة تذكرها بإدارة المرور. توجد هنا في الغالب إناث، شابات ونساء في منتصف العمر يقفن في طوابير مطوَّقة بالحبال. تبدو كلهن متعبات كما لو كن ينتظرن وقتًا طويلًا. الطابور يتحرك ببطء.

عندما يحين دورها، تقدم عفاف رخصة قيادتها ونسخة من شهادة ميلادها. تملأ اسم السجين واسمها. تمرر الموظفة عينيها على شاشة كومبيوتر، ثم تنظر إليها باهتمام أكثر الآن، وقد تعرَّفت عليها من الأخبار.

قالت لعفاف: «انتظري هناك».

ماذا تأملين أن تستفيدي من هذه الزيارة؟

هذا ما سألته لها المعالجة النفسية. بعد أسابيع من الجلسات، كشفت عفاف أنها تريد زيارة مطلق النار.

معالجتها أصغر سنًا بكثير من عفاف، امرأة بيضاء ترتدي رموشًا مستعارة وترتشف قهوة *ستاربكس* بيد واحدة وتدون الملاحظات باليد الأخرى على مفكرة ورقية في حضنها. تقترح أن تحتفظ عفاف بدفتر يوميات لتدوين مشاعرها اليومية. في الجلسة الأولى، سألت عفاف إن كان العلاج النفسي مكروهًا في ثقافتها الدينية. تكره عفاف الجلسات إذ إنها تقلب مزاجها رأسًا على عقب لكنها ما زالت تذهب. يمكنها إخبار هذه الغريبة بكل الأشياء التي تخفيها عن بلال. كوابيسها وخوفها الدائم من أن ينفجر أحدهم صارخًا في وجهها في الأماكن العامة.

ثم اعترفت لها برغبتها في التحدث إلى مطلق النار.

لكن كيف ستساعد رؤيته على شفائك يا أ-فاف؟ أنت تحرزين تقدمًا كبيرًا هنا.

التقدم محدَّد من خلال أهداف صغيرة قابلة للتحقيق. تمشية في حيها مرة في اليوم. مغادرة المنزل ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع لأداء مأمورية معينة.

وفي النهاية سُمِح لها بالعودة إلى وظيفتها في مدرسة نور الدين للبنات. لكن في الوقت الحالي، لا يمكن لعفاف تقبُّل فكرة الرجوع إلى المدرسة.

لا تستطيع العودة. ليس دون أن تحصل على مبررات أو تفهم ما حدث.

عقدت المحاكمة في يونيو وبثها التلفاز عبر إحدى قنوات الكابل. شاهدت عفاف المحاكمة بعناية من المنزل مع أختها ندى التي كانت قد أرجأت حياتها حتى تلازم عفاف عندما رجع بلال

إلى العمل في نهاية المطاف. كان بوسع أختها أخيرًا أن تكون موجودة من أجلها بطريقة لم تكن موجودة بها من قبل. استوعبت عفاف لقطات على التلفاز التُقِطت للمدرسة من الخارج في ذلك اليوم، فتيات صغيرات يركضن إلى الشارع دون معاطفهن الشتوية وحقائب كتبهن، أذرعهن مرفوعة فيما يقتادهن رجال الشرطة المحلية بعيدًا عن المبنى. لم تستطع معرفة هوية كل فتاة، الزي الرسمي والحجاب المتماثل يطمس الملامح والأجساد. التقط أحد الشهود تلك اللقطات على هاتفه المحمول، والمقطع الذي تعرض للمونتاج يعرض على فترات استراحة متقطعة من سماع الشهادات. تراءى الأمر لعفاف سرياليًا وهي جالسة في غرفة عائلتها، تشاهد ما حدث خارج مبنى المدرسة في الوقت الذي كانت فيه محاصرة داخل غرفة الاعتراف، بندقية مصوبة نحوها.

في جلسة النطق بالحكم، تناوب آباء الفتيات المتوفيات على الوقوف في المحكمة لمواجهة مطلق النار. أخبروه عن الأرواح التي سلبها منهم، كم كانت فتياتهم رائعات وذكيات وجميلات. كيف تطوعن من أجل أعمال الخير، وأحببن أمريكا والله. *شهادات تضرر الضحايا* حيث تخبر القاتل كيف قلب بجريمته حياتك رأسًا على عقب. حاول شقيق الآنسة كاميليا التحدث لكنه انهار، والداها ينتحبان في الممر خلفه.

قالت عفاف لمعالجتها، *أريد أن أعرف السبب.*

لا أعتقد أننا سنفهم أبدًا.

لا. عليه أن يخبرني لماذا.

عارض محامي الدفاع حكم القتل من الدرجة الأولى، ورسم لهيئة المحلفين صورة عن رجل في منتصف العمر وحيد، ساخط، وقع فريسة لشبكة من الكراهية على الإنترنت. أصر الادعاء بصرامة على استعمال مصطلح جريمة الكراهية، رغم أن الدفاع اعترض بشكل قاطع على ذلك. في النهاية، تداولت هيئة المحلفين -المكونة من ثمانية رجال ونساء بيض، وثلاث نساء سوداوات، ورجل من أصل إسباني- فيما بينهم مدة عشرين ساعة. أثار حكمهم بالقتل من الدرجة الثانية ومحاولة القتل من الدرجة الثانية غضب نشطاء الحقوق المدنية لعدة أيام بعد ذلك.

شفيت عفاف من جراحها. مع أن يدها تعرضت لأقل ضرر، إلا أن ألم الطرف الوهمي ينبض بين إبهامها وسبابتها. تركت الغرز صفًّا صغيرًا من الندبات مثل قضبان قطار مكسورة؛ عفاف تحك الندبة دون وعي عندما تشاهد الأخبار. شُفيت أحشاؤها بهدوء. لا تشعر بأي ألم متبقٍّ، وتتناول الحبوب فقط لتخفيف القلق والاكتئاب، ولخلخلة الحبل المعقود حول دماغها. لا شيء يساعدها على النوم في الليل. ترفض حتى المهدِّئات الخفيفة إذ تخشى أن تتحول كوابيسها إلى شيء أسوأ بكثير، مثل أحداث ذلك اليوم. في كوابيسها تشاهد من بعيد صراخًا وطلقات نارية مصوبة نحوها، فيما يتعالى الضجيج على امتداد ممر طويل. أحيانًا يكون الأمر أشبه بفيلم رعب صامت فيما تتنقل من حجرة فصل إلى أخرى، تحاول فتح الأبواب المغلقة، وتضرب بقبضتيها، ولا تسمع شيئًا في المقابل. أحيانًا ترى حارس الأمن لُو وتناديه. يلوح لها بجهاز الراديو، ثم ينزلق مختفيًا في الردهة.

عندما بدأ إطلاق النار، سجلت كاميرا المراقبة لُو وهو يندفع فارًا من الباب الأمامي للمبنى الذي كان يتمركز. أتت مكالمته لشرطة تيمبست من موقف السيارات، بعد دقائق من مكالمتها من غرفة الاعتراف. اعترف بأنه لم يطلب من مطلق النار رؤية أي بطاقة هوية.

أخبر لُو المحلفين: *بدا لي طبيعيًا. كما لو كان هناك لإنجاز عمل، كما تعلمون؟*

شجبه الجمهور في المحكمة ووصفوه بالجبان وبأنه عار على سنوات خدمته في الشرطة. حتى الآن، يرفض إجراء أي مقابلات.

لن تكف الصحافة عن مطاردة عفاف لأنها مديرة المدرسة المسلمة التي جلست وجهًا لوجه مع مطلق النار. لمدة شهر بعد خروجها من المستشفى، خيمت شاحنات قنوات تلفزيونية خارج منزلها، مصطفة في الشارع برمته الذي توجد فيه بنايتها السكنية. من خلال شق في الستائر، كانت تراقب من نافذة غرفة نومها الجيران يشقون طريقهم عبر المراسلين حاملين صواني الألمنيوم وسلال الفاكهة. شكرتهم أختها ندى على عجل وأغلقت الباب الأمامي أمام وابل من الأسئلة التي صاح بها الصحفيون من الفناء.

سألتها المعالجة في الجلسة الأخيرة: *ماذا تتمنين أن تجني من مواجهة المجرم مرة أخرى يا أ-فاف؟*

مهما كان هذا الشيء -كره أو خوف- فهي ترغب بشدة في النظر إليه، والإمساك به بيديها، وتفكيكه. كيف يمكنها -كيف يمكن لأي منهم- المضي قدمًا دون الاقتراب منه؟ يجب أن يجيب القاتل من أجل هؤلاء الفتيات والآنسة كاميليا.

كانت تكتب له رسالة واحدة في الأسبوع تطلب منه إضافتها إلى قائمة زياراته. ثلاثة وأربعون رسالة لم يرد على أي منها حتى قبل أيام قليلة. وصل مظروف مكتوب عليه بخط اليد اسمها وعنوان المرسل في سجن الولاية. كما كُتِب اسم مطلق النار ورقم إيداعه في السجن بخط اليد. اكتشف زوجها الرسالة.

طالبها بلال ملوحًا لها بالرسالة: «ما هذا؟ هل جُننت؟»

انحاز ابناها إلى أبيهما. *لماذا يا ماما؟ لماذا تريدين رؤيته مرة أخرى؟*

كانت ابنتها عزمية أكثر تفهمًا رغم أنها أيضًا مصدومة. تعلَّمت عفاف كيف ينشد الشباب الحقيقة، وكيف يتوقون إلى معنى. *هل تريدين أن أذهب معكِ يا ماما؟* تمكنت عفاف في أغلب الأحيان من حماية ابنتها من الصحافة، رغم أن عزمية أصرت على التحدث عن حادث إطلاق النار وفقًا لشروطها الخاصة. سردها لتجربتها انتشر كالنار في الهشيم في وسائل التواصل الاجتماعي، وسما *#بنات_نور الدين و#عزيمة* صارا رائجين في غضون ساعات من إطلاق النار. أصبحت عزمية بين عشية وضحاها الفتاة التي تتصدر صورتها إعلانات الحملات المناهضة للتعصب ضد الإسلام في هذا البلد، امرأة شابة واجهت والدتها فعل كراهية شديدة. في المدة ما بين التحضير للتخرج والالتحاق بالكلية، نظمت عزمية وقفات احتجاجية من أجل القتلى وتظاهرات أسبوعية في عاصمة الولاية. كانت تستقل حافلة مدرسية مستأجرة في السادسة من صباح كل يوم جمعة مع عشرات من الشباب الآخرين المجهزين بلافتات محلية الصنع:

الكراهية تقتل. إصدار قوانين لتنظيم حمل السلاح فورًا. نشرت مجلتا Seventeen وTeen Vogue قصصًا صحفية عنها.

يقود حارس عفاف إلى غرفة فيها كرسيان. الغرفة مقسَّمة مثل مركز اقتراع. سوف ترى القاتل من خلال نافذة زجاجية فيها ثقوب ضئيلة. توجد زائرة أخرى جالسة وظهرها إلى عفاف. لا تستطيع عفاف رؤية من يوجد على الجانب الآخر.

تجلس عفاف وتضع حقيبتها على الأرض. رائحة خافتة من المبيِّض تزعج بطنها. تبتلع العصارة الصفراوية المتجمعة في حلقها.

عندما يدخل القاتل الغرفة على الجانب الآخر من النافذة، يبدو أصغر حجمًا مما تتذكر. يداه مقيدتان أمامه وذراعاه مرفوعتان كأنه على وشك التقاط كرة. يقوده أحد الحراس إلى كرسي معدني مقابلها، ولا يفك أغلاله. هذه المرة ثمة حاجز يفصل بينهما ولا يوجد سلاح موجه نحوها. ومع ذلك، تشدّ عفاف يديها في حجرها، غير قادرة على تهدئة ارتجافها. نمت لحيته، مرقطة وشعثاء -ربما ما كانت لتتعرف عليه لو صادف كل منهما الآخر في الشارع. مصيراهما ملتويان معًا مثل الفولاذ المنسحق لسيارة محطمة- لا يستطيع أي منهما الهروب من حطام الأحداث.

«ماذا تريدين؟»

تندفع نبرة صوته من غرفة الاعتراف عائدة إلى ذاكرتها الآن. أرجلها تتمايل وترتعش. الكرسي يمنع جسدها من الانهيار. تتساءل إن كانت قد ارتكبت خطأ فادحًا.

نصحتها المعالجة النفسية الأسبوع الماضي عندما عرضت عليها عفاف خطاب قبول الزيارة: ربما *عليك أن تعطي الأمر مزيدًا من الوقت -سنة؟*

لن يخفف الوقت هذا الثقب في دماغها - هي مدينة لبناتها، للآنسة كاميليا.

تقوس ركبتيها، وتستقيم في مجلسها. تتنفس: *لا حول ولا قوة إلا بالله.*

«لماذا أقدمت على فعلتكَ؟»

يهز كتفيه. «لست مضطرًا إلى قول أي شيء لك يا سيدة».

«وافقت على رؤيتي. هناك شيء تريد قوله».

توسلت إليه ذلك اليوم في غرفة الاعتراف أن يراها بصفتها إنسانة، وأمًّا لولدين وابنة عرّض حياتها للخطر.

عندما قابلها العملاء الفيدراليون في المستشفى، حاولت استدعاء الكلمات الدقيقة التي دارت بينها وبين الرجل. بدأت تتساءل إنْ كان قد نطق بكلمة واحدة حقًّا -أم أنها تخيلت الحوار بكامله. أراد العملاء معرفة إنْ كان في حالة اضطراب واضح: *هل بكى؟ هل ذكر خسارة أحدهم أو مشكلات مع عائلته مؤخرًا؟* هزت رأسها بالنفي، ولم يعودوا لاستجوابها ثانية. لم يستدعيها الادعاء للإدلاء بشهادتها، وكانت ممتنة لذلك.

يتجنب القاتل عينيها الآن، ينظر من فوق كتفها عبر النافذة.

الغضب يملأ عفاف. يطفو الخوف وعدم اليقين مغادرًا جسدها، تتحرر منهما. تسأله: «لماذا أجبت رسالتي؟» الزائرة الجالسة بجوارها تتململ فتخفض عفاف صوتها. «لقد وافقت على زيارتي».

يركز عليها مرة أخرى، وعيناه المتحديتان تلينان، ووجهه يتوتر. يمكنها أن تقول إنه وحيد -ربما هذا سبب موافقته أخيرًا على رؤيتها. تتذكر مقابلتها عشيقته التي كانت تقيم معه، امرأة نحيلة ذات شعر باهت ورقيق. *لم يكن لدي أي فكرة عمّا ينوي فعله. لم أدرك مدى سخطه من العالم*. هل تخلت عنه الآن؟

لأسابيع، ظلت عفاف مستيقظة وهي تحاول تخيل عائلته؛ هل أبواه على قيد الحياة؟ هل لديه إخوة؟ إلى جانب محاميه، لم يكن هناك أي شخص حاضر نيابة عنه في قاعة المحكمة. بالنظر إليه الآن، من الصعب تخيله خارج تلك الجدران، خارج نطاق غرفة الاعتراف. هل يشعر بالشيء نفسه؟ هل يمكنه رؤية الآنسة كاميليا خارج غرفة الموسيقى تلك؟ معلمة شابة ومحبوبة؟ أو أولئك الفتيات اللواتي تشاجر آباؤهن عليهن، وأغرموا بهن، ولديهن أخوات رغبن في أن يكن مثلهن تمامًا، وصديقات مخلصات يحتفظن بكل أسرارهن، ودافعن عنهن في مواجهة كل ضغينة مهما كانت تافهة؟ انتهت كل سنوات حياتهن، واختفت في ثوانٍ معدودة.

يجلسان في صمت مدة طويلة، وكلاهما يسند ذراعيه إلى حافة الحاجز أمامه.

تكسر عفاف الصمت قائلة: «لم أعد أستطيع النوم -هل تستطيع أنتَ؟»

يتململ في كرسيه ويضع يديه المكبلتين في حضنه مرة أخرى.

«أرجوك، قل لي كيف وصلنا إلى هنا». تستعد لما قد يقذفه عليها من كلمات تشبه رسائل البريد الإلكتروني الحقيرة التي تلقتها بعد حادثة إطلاق النار مباشرة:

كان يجب أن يفجر المدرسة برمتها. ويقتلكن جميعًا يا رؤوس الخرقة».

إنه بطل أمريكي.

يجب القضاء على الإرهاب الإسلامي.

غرباء آخرون تواصلوا معها كانوا طيبين ورحيمين.

كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث في تيمبست؟

نحن جميعًا أبناء الرب.

لكن رسائلهم لم تقدم لها وسيلة لفهم كل شيء.

«أخبرني لماذا. أنا أستمع».

استمع بالفعل وعرف من تكون كل فتاة قتلها. العائلات وهيئة الادعاء رسموا صور ضحاياه بوضوح قدر الإمكان، مضيفين أكبر عدد ممكن من التفاصيل لرسم لوحة من حياة أولئك الفتيات. كل نجاح في تحقيق إنجاز، كل إمكانية واعدة مثّلنها.

يضرب بيديه المكبلتين الحاجز، يميل إلى الأمام. يبكي طويلًا وبشدة.

يسترخي جسد عفاف فجأة وتتكئ بظهرها على كرسيها. تنتظر المزيد وتراقبه. يلتوي وجهه من الألم. ستنتظر طالما سمحوا لها بالجلوس هنا.

أغسطس حار ورطب. على جانب واحد من المدخل الرئيس لمبنى المدرسة، تتدلى عناقيد من زهور الأضاليا من سيقانها الطويلة، رؤوس حمراء وبنفسجية ثقيلة من الحرارة. على الجانب الآخر، ثُبت مقعد جديد من الحديد المطاوع إلى الأسمنت. صوّت عديد من أعضاء مجلس الإدارة والآباء الأكثر تحفظًا ضد أي عرض متفاخر. اكتفوا بلوحة برونزية على شكل حمامة. ونقش بسيط:

إنا لله وإنا إليه راجعون

داخل سيارتها، تتردد عفاف للحظة وهي تمسك بمقبض الباب.

يقول لها بلال وهو يضغط يدها: «ليس عليكِ العودة. على الأقل ليس فورًا». أصر على قيادة السيارة بها إلى المدرسة هذا الصباح. «اتركي شخصًا آخر يدير المدرسة لمدة عام».

تفرك عفاف السوالف الرمادية للحية بلال. زوجها ليس الرجل نفسه الذي تزوجته. يبدو غير مستقر وعيناه تعج بالخوف إذا غادرت الغرفة هنيهة. لم يعد الأب الذي تصدى لكل خوف وقلق اعتراها بأمل وتفاؤل. استغرق الأمر أسابيع حتى سمح لعزمية بالذهاب إلى كاليفورنيا أخيرًا.

أخبرتهم عزمية، *سأكون في المنزل من أجل عيد الشكر إن شاء الله*، آخر صناديقها مرتبة في جانبها من غرفة مهجع الطالبات. رفيقتها الأمريكية السودانية في الغرفة تبتسم لهم بشكل مطمئن.

بكى بلال وهو يقود السيارة بهما إلى المنزل بعد توديع عزمية. تتذكر كلمات الأخت نبيهة منذ زمن طويل: يمكن *للنساء أن تتحملن أكثر من الرجال.*

عفاف ليست المرأة نفسها أيضًا. تقول لبلال: «الكل يمضي قدمًا». لا تزال تحمل الخوف بداخلها، رغم أنه مخبأ خلف جدار من حصانة ليست شجاعة بل استسلامًا. نجت من أسوأ شيء يمكن تخيله. وعليها الاستمرار في حياتها.

مرة واحدة في الأسبوع، تتصل بأمها وتكتشف فرحة غير مألوفة في صوتها. *ألم يقل النبي إن الجنة تحت قدمي أمك؟*

تمشي عفاف إلى المدخل الرئيسي للمدرسة وترى أن قفل الباب قد استُبدِل بجهاز أمني جديد. تضغط على زر معين، فترد عليها امرأة شابة عبر جهاز الاتصال الداخلي وتفتح لها الباب آليًا. مساعدتها صباح لن تعود من أجل الفصل الدراسي الجديد. استقالت اثنتان من المعلمات بعد الحادث فورًا.

«أهلًا يا سيدة عفاف! ما شاء الله أنت بخير!» تعانق المرأة الشابة عفاف. ترتدي عباءة كهرمانية، وحجابها البيج مزخرف بحبات لؤلؤ صغيرة. «أنا ياسمين. مساعدتك الجديدة». تحمل مفتاحًا إلكترونيًا من البلاستيك. «هذا مفتاحكِ المؤقت. حتى تتمكني من الاستقرار مرة أخرى». تشير إلى عفاف. «دعيني أوصلك إلى مكتبكِ».

كم هو غريب أن يشرف عليكِ شخص شاب جدًّا، لكن عفاف تتبع ياسمين في الممر كأنها المرة الأولى لها داخل هذا المبنى. منذ زمن بعيد دخلت عفاف المدرسة معلمة شابة مثالية. تراءت

لها مدرسة نور الدين حينها كأنها في بيتها لأول مرة في حياتها المهنية. ثم أصبحت ناظرة المدرسة، وشيدت إرثًا جديدًا من التعليم التقدمي للشابات. هل سيتشوه ذلك بسبب ذلك اليوم الكارثي في الشتاء الماضي؟ مُسِحت دماء خمس عشرة مسلمة، وطُليت الجدران، واستُبدلت ألواح النوافذ. لكن ثمة هزَّة لا تزال تنبض تحت قدمي عفاف وهي تمشي في الممر - هل شعرت مساعدتها الجديدة بذلك أيضًا؟

تخبرها ياسمين: «كان السيد عباس يستعمل مكتبك مؤقتًا لينوب عنكِ في إدارة المدرسة خلال مدة غيابكِ. سيكون هنا لاحقًا حتى يُطلعكِ على آخر المستجدات».

تومئ عفاف برأسها وهي تستمع. تبدو حجرة مكتبها دون تغيير باستثناء مكتب فوضوي - الناظر المؤقت ليس منظمًا مثلها.

«هل يمكنني إحضار بعض الشاي لكِ يا آنسة عفاف؟» تقف الشابة عند مدخل الحجرة، تنتظر.

عفاف تهز رأسها وتبتسم لمساعدتها الجديدة. «شكرًا لكِ. أنا بخير». تسحب كرسيها الجلدي وتجلس.

«أخبريني إن احتجتِ إلى شيء». تغلق ياسمين الباب خلفها.

يئز هاتفها المحمول. *كل شيء على ما يرام؟*

ترد على رسالة بلال: *الحمد لله... لا تقلق بشأني.*

تقاوم بشدة الرغبة في الاتصال به حتى يأتي ويأخذها إلى المنزل. عليها فعل شيء معين.

تخبر ياسمين وهي تغادر الحجرة: «سأعود حالًا». تقف مساعدتها أمام مكتبها ويبدو أنها ستتبع عفاف. بدلا من ذلك، تومئ الشابة برأسها فقط.

الممر هادئ. تستدير عفاف في نهايته وتتجاوز الكافيتريا. تتدلى لافتة من السقف، أسماء قتلى الحادثة مطبوعة عليها، وتوقيعات الدعم تتخللها قلوب وأهلَّة. عفاف لا تتوقف لقراءتها، وتستدير عند الزاوية التالية.

تتوقف أمام غرفة الاعتراف وتمرر أطراف أصابعها على طول الشبكة الخشبية للنافذة أعلى الباب. ترتجف كتفاها وهي تدير مقبض الباب الصغير، وتدخل.

اختفت منضدة الأباجور والكرسي. سجادة صلاتها أيضًا. تبدو الغرفة أضيق بشكل غريب وهي خاوية. أُعيد طلاء الجدران بلون أصفر شاحب. تصطف صناديق الكتب المدرسية عند أحد الجدران. تنظر إلى فتحة التهوية بالسقف، وتتساقط الدموع في حاشية حجابها.

تستدير عفاف، نحو الباب من الداخل. غطى طلاء على اللوحة الجدارية. تمرر أصابعها فوق هذا الغطاء الجديد من الطلاء حيث كانت مريم تنظر ذات مرة في وجه ملاك. الطلاء ناعم في مقابل لمستها، ولا يوجد أدنى أثر لما حدث من قبل.

شكر وامتنان

تُثبت لي هذا الرواية كيف يمكن تأليف كتاب، لكن لا يمكنه أن يرى النور إلا من خلال عديد من الأشخاص القيِّمين. أنا مدينة بعمق لوكيليّ الرائعين، كاتلين هالز وروبن ستراوس، لدعم رؤيتي في وقت كان من الممكن أن تختنق هذه القصة وتُقمع، ولتوجيهي بصبر خلال عملية النشر.

امتناني اللا-محدود لمحررتي، جيل بيالوسكي، ومحررتها المساعدة، درو إليزابيث ويتمان، وبقية الفريق الدقيق والدؤوب في *دبليو. دبليو. نورتون*، الذين قادوا كتابي بإصرار لبلوغ أقصى إمكاناته.

شكرًا أيضًا للأفراد والمجتمعات الذين ساهموا في هذا الكتاب، وكتابتي عمومًا بطرق معروفة أو غير متوقعة لهم؛ ريبيكا ماكاي وستوري ستوديو في شيكاغو، على توفيرهما مساحة لي لكتابة مسودة استكشافية وإرشادهما الدائم؛ أعز صديقاتي، نينا ديلاريا، التي لا تزال أول قارئة صادقة لي؛ أخواتي المدهشات في الكتابة والعناية بالنفس، فيمي باجاج، وجلناز سعيد، وماريا سبونت ليموس؛ ليلى نصر لمراسلاتها المخلصة وصداقتها الراقية. زمرة الكتَّاب الأمريكيين العرب، الذين يرتقون بمستوى مجتمعنا على الدوام؛ عائلتي في مدرسة هوموود فلوسمور Homewood-Flossmoor الثانوية، التي لا يتضاءل دعمها لحياتي الثانية أبدًا؛ باتريشيا ماكنير، التي لا تزال تسمو بمستوى قصصي؛ وعديد من المؤلفين اللامعين الذين ألهمتني كتبهم وأثارت شغفي،

وأولئك الذين كرسوا شخصيًا الوقت والاهتمام لقراءة ما أكتبه؛ ومجتمعي عبر الإنترنت، الذين يعززون عملي ويذكروني بلطف أننا في خضم الرحلة المجزية والصعبة نفسها لابتكار الفن ولمكافحة هذا المناخ من الكراهية والخوف واليأس. كلماتنا -رغم أنها أحيانًا بطيئة ومؤلمة- بمثابة أمل.

أخيرًا، أود أن أشكر جميع أفراد عائلتي الجميلة؛ زوجي خالد، وابنتيّ صباح وصابرين؛ وأمي وأخواتي وإخوتي وأصهاري وأقاربي وأصدقائي المحبوبين الذين يتوقون دائمًا إلى قراءة أعمالي وحضور المناسبات الأدبية من أجلي. كل حبي، على الدوام.

دائمًا إن شاء الله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

S A H A R   M U S T A F A H

«قصة غرباء يجتمعون معًا بطرق مدهشة وملهمة... كيف يستعيد كل فرد من عائلة رحمن حياته بعد المأساة التي أصابتهم يستحق سلسلة كاملة من الكتب. لكن تصميم عفاف وتفاؤلها يحمسك للقراءة حتى نهاية هذه الرواية... قصة عن النجاة والأمل، والتسامح والتواصل».

— New York Times Book Review

«مذهلة... ملحمة عائلية في وقتها، جوهرها الإيمان والتسامح».

— ماري كلير

«قصة لا تُنسى عن امرأة أمريكية فلسطينية مزقت الخسارة حياتها، تجد العزاء في إيمانها، وتواجه تهديدًا عنيفًا يختبر مدى التقدم الذي أحرزته. تكتب سحر مصطفى عن الأسرة والمجتمع بحنان وإحساس بالغين. جمال وجهكِ هدية للقراء».

— ليلى العلمي (مؤلفة رواية الأمريكيون الآخرون)

«عمل أول آسر... على مدار الرواية، توضح سحر مصطفى بقوة القدرة البشرية على التطهُّر من الماضي، والتجديد. هذه الحكاية الجذابة والمكتوبة في الوقت المناسب تمامًا ستبقى مع القراء».

— Publishers Weekly

«تكتب سحر مصطفى بأسلوب مؤثر ومقنع عن مجتمع المهاجرين الأمريكيين الفلسطينيين... مؤلفة متمكنة تستحق القراءة».

— Booklist

عن المؤلفة

سحر مصطفى ابنة مهاجرين فلسطينيين. فازت مجموعة قصصها القصيرة *Code of the West* بجائزة Willow Books للخيال 2016. تعيش وتعلّم طلاب المدارس الثانوية خارج شيكاغو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-9921-768-91-6
9 789921 768916